الأستاذ الدكتور
منيع عبد الحليم محمود
أستاذ التفسير وعلوم القرآن
وعميد كلية أصول الدين - القاهرة

دراسات في تفسير سورة البقرة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد النبى المصطفى الحبيب العالى القدر العظيم الشأن • اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق ، والخاتم لما سبق ، وناصر الحق بالحق ، والهادى الى صراطك المستقيم ، وعلى آله وصحبه حق قدره ومقداره العظيم •

اللهم انى عبدك ابن عبدك ابن أمتك ، ناصيتى بيدك ماض فى حكمك عدل فى قضاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك ، سميت به نفسك ، أو أنزلته فى كتابك ، أو علمته أحدا من خلقك ، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبى ، ونور بصرى ، وجلاء حزنى ، وذهاب همى وغمى •

اللهم ارحمنى بترك المعاصى أبدا ما أبقيتنى ، وارحمنى بترك مالا يعنينى ، وارزقنى حسن النظر فيما يرضيك عنى ، وألزم قلبى حفظ كتابك كما علمتنى ، ونور به بصرى ، واشرح به صدرى ، واجعلنى أتلوه كما يرضيك عنى ، وافتح به قلبى ، وأطلق به لسانى •

اللهم انا نعوذ بك من الشقاء فى حمله ، والجور عن حقه ، والغلو فى قصده ، والتقصير دون واجبه ، اللهم انك جعلته نجاة فنجنا به من كل هلكة ، وجعلته عصمة فاعصمنا به من كل بدعة وشبهة ، اللهم ألزم به قلوبنا السكينة والوقار والفكرة والاعتبار والتوبة والاستغفار ، حتى لا نشترى به ثمنا ولا نبتغى به بدلا ، ولا نؤثر عليه عرضا من أعراض الدنيا أبدا ، انك سميع الدعاء •

وبعـــد :

فلقد تضافرت الهمم وعظمت العناية بدراسة علوم القرآن الكريم ، وتنوعت المؤلفات فيه فى كل جيـــل وعصر منذ أوائل القرن الثانى الهجرى الى اليوم ، تشهد بذلك مكتبات العالم الاســـلامى وغير الأسلامى • وتلك معجزة من معجزات القـــرآن الكريم ، اذ أنه لا يزال كعهد النبى صلى الله عليه وسلم به ، رغم ما اعترى الحكومات الاسلامية من وهن عبر التاريخ الماضى والحاضر • وصدق الله العظيم :

(انا نحن نزلنـــا الذكر وانا له لحافظون)

وهذه فصـــول من عناية الأمة الاسلامية بالقـــرآن وعلومه ، جمعت بين المأثور والرأى حاولنا فيها بعناية الله وتوفيقه تفسير الآيات بما يكون هاديا ومرشدا ا[illegible]اء السبيل •

أ•د / منيع عبد الحليم محمود

مقـــدمة

روى الامام مسـلم بسنده عن تميم الدارى رضى الله عنه قال : أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « الدين النصيحة . قلنا : لمن ؟ قال : لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم »[1] .

« قال العلماء رحمهم الله : النصيحة لكتاب الله تعالى هى الايمان بأنه كلام الله تعالى وتنزيله ، لا يشبهـه شىء من كلام الخلق ، ولا يقدر على مثله الخلق بأسرهم ، ثم تعظيمه وتلاوته وتحسينها والخشـوع عندها واقامة حروفه فى التلاوة ، والزب عنه لتأويل المحرفين وتعرض الطاعنين ، والتصديق بما فيه ، والوقوف مع أحكامه وتفهم علومه وأمثاله ، والاعتبار بمواعظه ، والتفكر فى عجائبـه ، والعمل بمحكمه ، والتسـليم بمتشابهه ، والبحث عن عمومه وخصوصـه وناسخه ومنسوخه ، ونشر علومه والدعاء اليه ، والى ما ذكرناه من نصيحته »[2] .

وروى الترمذى بسـنده عن الحارث الأعور عن على قال : سـمعت رسـول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « انه ستكون فتن كقطع الليـل المظلم ، قيل فما النجاة منها يا رسول الله ؟ قال : كتاب الله تبارك وتعالى ، فيه نبأ من قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم ، وهو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين ، ونوره المبين ، والذكر الحكيم ، والصراط المستقيم ، هو

---

(١) صحيح مسلم ٢ — ٣٧ .
(٢) التبيان فى آداب حملة القرآن ٨٥ .

الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تتشعب معه الآراء ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يمله الأتقياء ، من علم علمه سبق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن اعتصم به فقد هدى الى صراط مستقيم »[1] .

خص الله جل شأنه هذه الأمة المحمدية بهذا الكتاب الكريم ، ولم يكل حفظه الينا ، بل انه سبحانه تكفل بحفظه (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون)[2] وذلك رفع لأعظم معجزات الرسول عليه الصلاة والسلام ، لأن الله تحدى بسورة منه العرب ، فلم يقدروا على أن يأتوا بمقدار آية منه ، ثم لم يزل هذا التحدى الى يومنا هذا ، والقرآن يتلى ليل نهار ، مع وفرة الملحدين والطاعنين ولم يستطع أحد معارضة شىء منه ، وأى دلالة على صدقه صلى الله عليه وسلم أعظم من هذا ؟ .

ولما تكفل سبحانه بحفظه خص به من شاء من عباده الذين هم أهل الله وأصفياؤه (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا)[3] ، وكان الاعتماد فى نقله على الصدور لا على نقله من الكتب والمصاحف ، وهذه خصوصية من الله لهذه الأمة المحمدية،بخلاف أهل الكتاب الذين لا يقرءون كتبهم الا نظرا .

ولقد خص الله من اصطفاهم بحفظه بالأمانة فى الأداء الى من بعدهم ، حسب ما تلقوه من النبى صلى الله عليه وسلم : لم يهملوا منه حركة ولا سكونا ولا اثباتا ولا حذفا ، حتى أنه لما كتبت المصاحف فى عهد عثمان — رضى الله عنه — جردت من النقط والشكل ، لتحتمل ما صح نقله عن النبى صلى الله عليه وسلم ، اذ كان الاعتماد على الحفظ لا على مجرد الخط والرسم .

---

(١) مقدمتان فى علوم القرآن ٢٥٥ ، والاتقان ٢ — ١٥١ .
(٢) سورة الحجر .
(٣) سورة فاطر .

ولما أرسلت المصاحف الى الأمصار قرأ أهل كل مصر بما في مصحفهم حسب ما أقرأهم الصحابة الذين تلقوه عن النبى صلى الله عليه وسلم • ثم أن القراء بعد ذلك تفرقوا وخلف من بعدهم خلف تصدوا للاقراء ، حتى خاف أئمة المسلمين أن يلتبس الباطل بالحق ، فجمعوا الحروف والقراءات وميزوا بين الصحيح وغيره ، وقالوا :

كل قراءة وافقت العربيـــة ولو بوجه • ووافقت أحد المصـــاحف العثمانية ولو احتمالا[1] ، وصح سندها : فهى القراءة الصحيحة •

أولا : اعلم أنه من المعلوم أن الله خاطب خلقه بما يفهمونه ، ولذلك أرسل كل رسول بلسان قومه ، وأنزل كتابه على لغتهم ، وقد نزل القرآن بلسان عربى مبين فى زمن أفصح العرب ، وكانوا يعلمون ظاهره وأحكامه ، لكن القـــرآن يعلو على غيره من الكلام العربى بألفاظه الجزلة ومعانيـــه الدقيقة • ومن هنا كان بعضه يحتاج من الصحابة الى النظر والبحث مع سؤالهم النبى صلى الله عليه وسلم عما استغلق عليهم فهمه[2] •

وقد جاء فى القرآن بعض آيات فسرها القرآن نفســـه فمن تفسير القرآن بالقرآن « فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه » البقرة • تفسيرها فى الأعـــراف « قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنـــا وترحمنا لنكونن

---

(١) قد توافق بعض القراءات الرسم تحقيقا ويوافقه بعضها تقديرا نحو نحو « ملك يوم الدين » فانه كتب بغير الف فى جميع المصاحف ، فقراءة الحذف تحتمله تحقيقا ، وقراءة الألف تحتمله تقديرا ، فتكون الألف حذفت باختصار . النشر ١ — ١١ .

(٢) الاتقان ٢ — ١٧٤ .

من الخاسرين » ، « هدى للمتقين » تفســيرها ما بعدها فى نفس ســورة البقرة « الذين يؤمنون بالغيب .. » الآيات .

والناظر فى كتب الســنة يجد الأمثلة الكثيرة لاجابة النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه أمام أسئلتهم :

١ — روى الامام أحمد والشيخان وغيرهم عن عائشة رضى الله عنها قالت « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليس أحد يحاسب الا هلك ، قالت : قلت يا رسول الله : جعلنى الله فداءك ، أليس يقول الله عز وجل : (فأما من أوتى كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا)[١] قال : ذاك العرض يعرضون ومن نوقش الحساب هلك » اللفظ للبخارى[٢] .

٢ — وروى البخارى وغيره عن عدى بن حاتم رضى الله عنــه قال : « قلت يا رسول الله ما الخيط الأبيض من الخيط الأسود ؟ أهما الخيطان ؟ قال : انك لعريض القفا ان أبصرت الخيطين ، ثم قال لا بل هو سواد الليل وبياض النهار »[٣] .

ولقد تصدى الصحابة والتابعون الى تفسير كتاب الله تعالى : وهم لا يجتمعون على ضلالة — من ذلك :

١ — ما رواه البخارى عن ابن عبــاس قال : « كان عمر يدخلنى مع أشياخ بدر فكأن بعضهم وجد نفسه ، فقال : لم تدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله ؟ فقال عمر : انه من حيث علمتم ، فدعاه ذات يوم فأدخله معهم فما

---

(١) سورة الانشقاق .

(٢) صحيح البخارى ١ — ٣٧ ، ٦ — ٢٠٨ .

(٣) نفس المرجع ٦ — ٣١ .

رأيت أنه دعانى يومئذ الا ليريهم ، قال : ماتقولون فى قول الله تعالى : (اذا جاء نصر الله والفتح)[1] فقال بعضهم : أمرنا أن نحمد الله ونستغفره اذا نصرنا وفتح علينا ، وسكت بعضهم فلم يقل شيئا • فقال لى : أكذاك تقول يا ابن عباس ؟ فقلت : لا ، قال : فما تقول ؟ قلت : هو أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلمه له ، قال : (اذا جاء نصر الله والفتح) وذلك علامة أجلك (فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان توابا) فقال عمر : ما أعلم منها الا ما تقول »[2] •

٢ — وعند البخارى عن مجاهد قال (يدع)[3] يدفع عن حقه ، يقال : هو من دععت يدعون يدفعون (ساهون) لاهون (والماعون) المعروف كله ، وقال بعض العرب الماعون الماء • وقال عكرمة : أعلاها الزكاة المفروضة وأدناها عارية المتاع[4] •

ولقد روت كتب التفسير كثيرا من أقوال التابعين فى تفسير القرآن باجتهادهم ، معتمدين على ما عرفوه من لغات العرب وفنونهم فى القول ، واضعين نصب أعينهم حديث الرسول صلى الله عليه وسلم : « من قال فى القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار »[5] •

ثم بعد عصر التابعين جاء من جمع أقوال الصحابة والتابعين،كتفسير ابن عيينة ووكيع وعبد الرزاق وعبد بن حميد وغيرهم ، ثم من بعدهم

---

(١) سورة النصر •
(٢) نفس المرجع ٦ — ٢٢١ •
(٣) سورة الماعون •
(٤) نفس المرجع ٦ — ٢١٩ •
(٥) رواه أبو داود والبيهقى من طرق من حديث ابن عباس • الاتقان ٢ — ١٧٩ ، والبرهان فى علوم القرآن ٢ — ١٦١ •

تفسير ابن جرير الطبرى ، وهو من أجل التفاسير ، ثم جاء خلائق اختصروا الأسانيد ونقلوا الأقوال غير معزوة لأصحابها ، فالتبس الصحيح بالعليل • ثم نقل عنهم ذلك من جاء بعدهم ملتفت الى تحرير ما نقل عن السلف الصالح • ثم صنف بعد ذلك قوم برعوا فى علوم ، فكان كل منهم يقتصر فى تفسيره على الفن الذى غلب عليه ، فنرى أبا حيان فى البحر والنهر يهتم بقواعد النحو ، والقرطبى يهتم بالفقه فى الجامع لأحكام القرآن ، والفخر الرازى يهتم بالعلوم العقلية فى مفاتيح الغيب ، وغيرهم كثير •

ثم ظهر فى عصرنا الحاضر من تكلم فى القرآن برأيه ، غير معتمد على الأدوات التى يحتاج اليها المفسر ، وهذا وضع خطير للتفسير لا يرضاه غيور على الدين • ولقد أوجب العلماء على المفسر بجانب وجوب معرفته اللغة والنحو والتصريف والبلاغة العربية والقراءات وأصول الدين والفقه وأسباب النزول والنزول والناسخ والمنسوخ وتاريخ الأمة العربية وأهل الكتاب ، والوقوف على السنة المبينة للقرآن : بجانب هذا أوجبوا أن يكون من أهل الزهد فى الدنيا والرغبة فى الآخرة ، يقول سفيان الثورى : « لا يجتمع فهم القرآن والاشتغال بالحطام فى قلب مؤمن أبدا » وروى عن الكلبى قال : « رأيت الحسن بمكة فسألته فلم يجبنى ، فقلت : نسألكم معاشر الفقهاء فلا تجيبوننا ؟ فقال : ويحك وهل رأيت بعينيك فقيها قط ؟ انما الفقيه الزاهد فى الدنيا الراغب فى الآخرة الدائب فى العبادة البصير بدينه »[1] •

واعلم أنه لا يحصل للناظر فهم معانى الوحى ولا تظهر له أسراره ، وفى قلبه بدعة أو كبر أو هوى أو وهو مصر على ذنب أو معتمد على قول

---

(١) مقدمتان فى علوم القرآن ١٧٦ •

مفسر ليس عنده علم ، ويجب أن يضع نصب عينيه حديث « من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم ، حتى يزيل الله عنه الحجب »[١] .

يجب أن نعلم أن شرف الانسان بما يعرف ويعقل ، ولما كان القرآن أعظم كتاب منزل كان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أفضل رسول بعث ، وكانت أمته من العرب والعجم أفضل أمة أخرجت للناس ، وكان حملته وقراؤه ومقرئوه أفضل هذه الأمة ، وكان أعظم ما يتقرب به الى الله تلاوة القرآن : يقول الامام أحمد بن حنبل : « رأيت رب العزة فى النوم ، فقلت : ما أفضل مايتقرب به المتقربون اليك ؟ قال بكلامى يا أحمد ، فقلت يا رب بفهم أو بغير فهم ؟ قال بفهم وبغير فهم »[٢] .

واذا كان شرف العلم من شرف موضوعه فان أشرف العلوم على الاطلاق تفسير القرآن الكريم ومدارسته ، قال تعالى : (يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا)[٣] .

أخرج ابن حاتم وغيره من طريق ابن أبى طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى : (يؤتى الحكمة) قال : « المعرفة بالقرآن : ناسخه ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه ومقدمه ومؤخره وحلاله وحرامه وأمثاله » وأخرج ابن مردويه من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس مرفوعا « يؤتى الحكمة : قال القرآن ، قال ابن عباس يعنى تفسيره ، فانه قد قرأه البر والفاجر »[٤] .

---

(١) الاتقان ٢ — ١٨١ ، والحديث رواه أبو نعيم فى الحلية عن أنس رضى الله عنه .

(٢) النشر ١ — ٤ .

(٣) سورة البقرة الآية ٢٦٩ .

(٤) الاتقان ٢ — ١٧٥ .

ثانيـا :

١ ــ ان الرســول صلى الله عليه وسلم بعد انتقاله الى الرفيــق الأعلى ، تضافرت جهود الصحابة على جمع القرآن الكريم حفظا وكتابة ، وعلى نشره فى الناس بطريق البعثات والكتب ، ووصلت الصحف الى جميع الأقطار بدون تحريف فيــه ، نقلوا ذلك عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وأوصلوه الى من بعدهم ، ومن بعدهم الى من بعدهم ، وهكذا حتى وصل الينا ، وسيصل الى من بعدنا كذلك صحيحا ، ولو حصل فيه شىء مما يدعى المغرضــون فى أى عصر من العصور لعورض ولثارت الأمة على مبلغيه وكاتبيه ، ولما لم ينقل شىء من هذا نقلا صحيحا دل على أن شيئا من ذلك لم يقع .

يقول ابن حــزم فى صفة وجوه النقل الذى عنــد المسلمين لكتابهم ودينهم : « ان نقل المسلمين ــ لكل ما ذكرنا ــ ينقسم أقساما ستة :

١ ــ شىء ينقله أهل المشرق والمغرب عن أمثالهم جيلا جيلا لا يختلف فيه مؤمن ولا كافر منصف غير معاند للمشاهدة ، وهو القرآن المكتوب فى المصاحف فى شرق الأرض وغربها ، لا يشكون ولا يختلفون فى أن محمد ابن عبد الله بن عبد المطلب أتى به وأخبر أن الله عز وجل أوحى به اليه ، وأن من اتبعه أخذه عنه كذلك ، ثم أخذ عن أولئك حتى بلغ الينا ... » .

ثم يقول « ... فانه نقل كل ذلك اليمانى والمصرى والربيعى والقضاعى ، وكلهم أعداء متباينون متحاربون ، يقتل بعضهم بعضــا ليس هناك شىء يدعوهم الى المســامحة فى نقلهم له ، ثم نقــله عن هؤلاء من بين المشرق والمغرب ، وكانت العرب بلا خلاف قوما لقاحا لايملكهم أحد ... أو ملوكا فى بلادهم يتوارثون الملك كابرا عن كابر ... فانقادوا كلهم لظهور الحق وبهوره ، وآمنــوا به صلى الله عليــه وسلم طوعا ، وهم آلاف آلاف ،

وصاروا اخوة كبنى أب وأم ، وانحل كل من أمكنه الانحلال عن ملكه منهم الى رسله طوعا بلا خوف غزو ولا اعطاء مال و لايطمع فى عز ، بل كلهم أقوى جيشا من جيشه ، وأكثر مالا وسلاحا منه ، وأوسع بلدا من بلده .. لما ثبت عندهم من آياته وبهرهم من معجزاته .. »[١] .

٢ — ثم ان القرآن جعله الله معجزة لنبيه صلى الله عليه وسلم على مدى العصور ، ولو حصل فيــه خلل لبطلت معجزته ، وبالتالى تبطل نبوة ســيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، بل نبــوة الأنبياء الذين ذكروا فى القرآن ، وأيضا تبطل الشرائع السماوية ، ولكن الله الذى ضمن حفظه قد وكل به الأمة ، وهى لا تجمع على ضلالة ولا تتواطأ على الاخبار عن باطل ولا على كتمان ما شــاهدوه ، لكثرتهم وخروجهم عن حد الحصر ، وبمثل هذا عرفنا النبوات والشرائع .

ثم ان اخبار الله تعالى أنه تولى حفظه وحراسته،يعطينا أنه لا يجوز أن يقع خبره سبحانه بخلاف مخبــره ، وقد قيض الله من الحفظة والنقلة من قاموا بأدائه خير قيــام « حتى نقلوا الينا الهمزة الثقيــلة والخفيفة ، وميزوا بين اطالة المشــبعة واللطيفة ، واستقصوا فى حفظ الاشــمام على المعلمين ، ففرقوا بين الاشمام وروم الحركة ، وهو صفة لبعض الحركات على الحروف ، وغير ذلك من الدقائق »[٢] .

٣ — ولو لم يكن للصحابة توقيف منه صلى الله عليه وسلم فى أصل القرآن وأجزائه وأوضاعه وترتيبه ، لما كانوا يرضون تأليفه ويثنون على

---

(١) الفصل فى الملل والأهواء والنحل ٢ — ٨١ ، ٨٤ ، ٨٥ بتصرف .

(٢) مقدمتان فى علوم القرآن ٤٠ .

أمير المؤمنين عمله ، وهؤلاء هم القراء العشرة ، وأسانيدهم متصلة بعثمان وعلى وعبد الله وأبى وابن عبـــاس وزيد رضى الله عنهم ، على حاله الذى بين أيدينا ، ولو كان اختلاف بينهم فى شيء من هذا لنقل الينا ، خاصة وأن الصدر الأول كان محاطا بالأعداء الذين يكيدون للاسلام وأهله ، ولو عثروا على شيء فى القرآن لاتخذوه ذريعة لفتنة الأمة ، ولكان ذلك داعيا لتمزيق وحدتهم ، وفى ترك النقـــل بخلاف ما ثبت عنهم دليـــل قوى على صحة ما ذكرناه •

٤ — وقد قام الاجماع على أن ما بين الدفتين هو الذى تركه صـــلى الله عليه وسلم ، وهو الذى جمعه عثمان رضى الله عنه ، فمن أنكر حرفا منه أو زاد فيه أو غير منه حرفا بحرف أو زعم أنه ليس بحجة للنبى صلى الله عليه وسلم ، عامدا لكل هذا فهو كافر بالاجماع ، للنص عليه واجماع الأمة على نقله متواترا •

قال القاضى عيـــاض « واعلم أن من استخف بالقرآن أو المصحف أو بشيء منه ، أو سبهما أو جحده أو حرفا منه أو آية ، أو كذب به او بشيء منه ، أو كذب بشيء مما صرح به فيه من حكم أو خبر ، أو أثبت ما نفاه أو نفى ما أثبته ، على علم منـــه بذلك ، أو شك فى شيء من ذلك فهو كافر عند أهل العلم باجماع ، قال الله تعالى : (وانه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميـــد) ••• ولهذا رأى مالك قتل من سب عائشة رضى الله عنها بالفرية ، لأنه خالف القرآن ومن خالف القرآن قتل »[1] •

وقال القرطبى « والقرآن الذى جمعه عثمان بموافقـــة الصحابة له لو أنكر بعضه منكر كان كافرا ، حكمه حكم المرتد ، يستتاب فان تاب والا

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى (٢ — ٢٨٧ : ٢٨٩) •

ضربت عنقه » ... قال أبو بكر : وفى قوله تعالى : (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) دلالة على كفر هذا الانســان ، لأن الله عز وجل قد حفظ القرآن من التغيير والتبديل والزيادة والنقصــان ، فاذا قرأ قارىء « تبت يدا أبى لهب وقد تب ما أغنى عنه ماله وما كسب سيصلى نارا ذات لهب ومريته حمــالة الحطب فى جيدها حبل من ليف » فقــد كذب على الله جل وعــلا وقوله ما لم يقل بدل كتابه وحرفه ، وحاول ما قد حفظه منه ومنع من اختلاطه به ، وفى هذا الذى أتاه توطئة الطريق لأهل الالحاد ، ليدخلوا فى القرآن ما يحلون به عرا الاسلام ، وينسبونه الى قوم كهؤلاء القوم الذين أحالوا هذا بالأباطيل عليهم ، وفيــه ابطال الاجماع الذى به يحرس الاســلام وبثباته تقام الصــلوات وتؤدى الزكوات وتتحرى المتعبدات »[١] .. الخ .

٥ — وبمثل هذا تشهد العقول الصحيحة والأذهان الصريحة ، والا فأى عقل كان يوجب تأخير سورة « اقرأ » الى أخريات الكتاب وهى أول ما نزل ؟ وتقديم سورة البقرة وهى مدنية وفيها آخر آية نزلت ؟ أو يوجب تأخير المنسوخ فى آية العدة ؟ أو يوجب تقديم المسبب على السبب فى قوله (ان الله يأمركم أن تذبحوا بقرة) ... (واذ قتلتم نفسا) ؟ اذن فهذا أمر لا يهتدى اليه بعقل بل لابد فيه من السماع[٢] .

قال الباقلانى : « وحكاية قول من قال ذلك يغنى عن الرد عليه ، لأن العدد الذين أخذوا القرآن فى الأمصار وفى البوادى وفى الأسفار والحضر ، وضبطوه حفظا من بين صغير وكبير ، وعرفوه حتى صار لا يشتبه على أحد منهم حرف : لا يجوز عليهم السهو والنسيان ولا التخليط فيه والكتمان ،

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١ — ٨٤ .

(٢) مقدمتان فى علوم القرآن ٦١ ، ٦٢ بتصرف .

ولو زادوا أو غيروا لظهر ••• ولو جاز أن يكون بعضه مكتوما لجاز على كله ، ولو جاز أن يكون بعضه موضوعا لجاز ذلك فى كله »[١] •

أما بعـــد •••

فان القرآن المتلو فى جميع أقطار الأرض ، والمكتوب فى المصحف من أول سورة الفاتحة الى آخر ســـورة الناس ، هو كلام الله ووحيه المعجز المنزل على نبيه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو الموجود بين أيدينا والى أن تقوم الساعة بدون تحريف ولا تغيير بزيادة أو نقص أو تقديم أو تأخير أو ابدال ، وجميـــع ما فيه حق ، نقله الخلف عن الســـلف حسب ما لقنه جبريل عليه السلام للنبى صلى الله عليه وسلم[٢] •

---

(١) اعجاز القرآن ١٨ — ٢٠ •

(٢) علوم القرآن الكريم تاليف ا.د/محمد احمد يوسف القاسم وا.د/منيع عبد الحليم محمود •

ســورة البقــرة

دراســة عــامة

وجه تسميتهــا :

هذا هو الاسم المشهور وفى الصحيح عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه : (هذا مقام الذى أنزلت عليه سورة البقرة)[١] •

فهذا الاسم الذى سميت به السورة ورد عن النبى صلى الله عليــه وسلم وجرى فى كلام السلف ، فقد ورد فى الصحيح أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة كفتاه) • وفيــه عن السيدة عائشة رضوان الله عليها :

(لما نزلت الآيات من آخر البقرة فى الربا قرأهن رسول الله ثم قام فحرم التجارة فى الخمر) •

وسبب هذه التسمية أنها ذكرت فيها قصــة البقرة التي أمر الله بنى اسرائيل بذبحها لتكون آية ووصف ســوء فهمهم لذلك وهى مما انفردت السورة بذكره •

وقــد زاد الفيروزآبادى أسماء أخرى فيقول : « وأما أســماؤها فأربعة : البقرة ، لاشتمالها على قصة البقرة • الثانى : سورة الكرسى ، لاشتمالها على آية الكرسى ، التى هى أعظم آى القرآن • الثالث : سنام القرآن • الرابع : الزهراء »[٢] •

---

(١) تفسير الألوسى جـ ١ ص ٩٨ •

(٢) بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز ص ١٣٣ •

ونحن نرى ما قرره صاحب التحرير والتنوير حيث يقول : وفى الاتفاق عن المستدرك أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « انها سنام القرآن » وسنام كل شىء أعلاه وهذا ليس علما لها ولكنه وصف تشريف . وكذلك قول خالد بن معدان « انها فسطاط القرآن » والفسطاط ما يحيط بالمكان لاحاطتها بأحكام كثيرة[1] .

وعلى هذا فهناك كثير من سور القرآن سماها البعض بغير أسمائها التوقيفية باجتهاد من عندهم وهو وصف لها ، وليس باسم كما سميت سورة التوبة بالفاضحة وبسورة العذاب وسورة الفاتحة بالكافية لأنها تكفى عما عداها .

يقول د/موسى شاهين : وهناك كثير من السور لها أسماء غير الأسماء التى اشتهرت بها ، والذى ينبغى التزامه هو المحافظة على الاسم الوارد وعدم تغييره[2] .

يقول الامام الزركشى : أنه ينبغى النظر فى وجه اختصاص كل سورة بما سميت به ولا شك أن العرب تراعى فى الكثير من المسميات أحد أسمائها من نادر أو مستغرب يكون الشىء من خلق أو صفة تخصه ، أو تكون معه أحكم و أكثر أو أسبق لادراك الرائى للمسمى ، ويسمون الجملة من الكلام أو القصيدة الطويلة بما هو أشهر فيها ، وعلى ذلك جرت أسماء سور الكتاب العزيز كتسمية سورة البقرة بهذا الاسم لقرينة ذكر قصة البقرة المذكورة فيها وعجيب الحكمة فيها ، وسميت سورة النساء بهذا الاسم لما تردد فيها من كثير من أحكام النساء[3] .

---

(١) التحرير والتنوير جـ ١ ص ٢٠١ .

(٢) اللآلىء الحسان فى علوم القرآن د/موسى شاهين ص ٢٨ .

(٣) البرهان فى علوم القرآن للزركشى جـ ١ ص ٢٧٠ .

ويثور بنا سؤال نتج عما ذكره الطبرانى والبيهقى عن أنس مرفوعا : « لا تقولوا سورة البقرة ولا سورة آل عمران ولا سورة النساء وكذا القرآن كله ولكن قولوا : السورة التى يذكر فيها البقرة والتى يذكر فيها آل عمران وكذا القرآن كله » .

فهل يكره أن يقال سورة كذا نتيجة هذه الرواية .

وللاجابة على ذلك نورد أقوال العلماء فى هذه الرواية :

يقول الامام الألوسى : سورة البقرة ، هذا هو الاسم المشهور وفى الصحيح : عن ابن مسعود رضى الله عنه : هذا مقام الذى أنزلت عليه سورة البقرة وهو معارض لما روى من منع ذلك .

ومن ثمة أجاز الجمهور ذلك من غير كراهية ، ويمكن أن يوفق بأنه كان مكروها فى بدء الاسلام ، لاستهزاء الكفار ثم بعد سطوع نوره نسخ النهى عنه فشاع من غير نكير[١] .

ويعلق الامام ابن كثير فيقول عن هذه الرواية :

هذا حديث غريب لا يصح رفعه ، وفى اسناده يحى بن ميمون الخواص وهو ضعيف الرواية لا يحتج به .

وأخرج البيهقى فى الشعب بسند صحيح عن ابن عمر قال « لا تقولوا سورة البقرة ولكن قولوا السورة التى تذكر فيها البقرة » .

وقد روى عن جماعة من الصحابة خلاف هذا . فثبت فى الصحيحين عن ابن مسعود أنه رمى الجمرة من بطن الوادى ، فجعل البيت عن يساره وعن يمينه ثم قال : هذا مقام الذى أنزلت عليه سورة البقرة .

وأخرج ابن ابى شيبة وأحمد ومسلم وأهل السنن والحاكم وصححه

---

(١) تفسير الالوسى جـ ١ ص ٩٨ .

عن حذيفة قال : « صليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة من رمضان فافتتح البقرة ، فقلت يصلى بها فى ركعة ، ثم افتتح النساء فقرأها ، ثم افتتح آل عمران فقرأها مترسلا » الحديث ..

وأخرج أحمد وابن الضريس والبيهقى عن السيدة عائشة قالت : « كنت أقوم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الليل فيقرأ بالبقرة وآل عمران والنساء » . وأخرج أبو داود والترمذى فى الشمائل والنسائى والبيهقى عن عوف بن مالك الأشجعى قال : « قمت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة ، فقام فقرأ سورة البقرة لا يمر بآية رحمة الا وقف » الحديث[1] .

فضل سورة البقرة

وهذه السورة فضلها عظيم وثوابها جسيم ، ويقال لها : فسطاط القرآن . قاله خالد ابن معدان ، وذلك لعظمها وبهائها ، وكثرة أحكامها ومواعظها ، وتعلمها عمر رضى الله عنه بفقهها وما تحتوى عليه فى اثنتى عشرة سنة وابنه عبد الله فى ثمانى وستين .

قال ابن العربى : سمعت بعض أشياخى يقول : فيها ألف أمر وألف نهى وألف حكم وألف خبر[2] .

وفى مسند أحمد وصحيح مسلم والترمذى والنسائى من حديث سهيل بن أبى صالح عن أبيه عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا تجعلوا بيوتكم قبورا فان البيت الذى تقرأ فيه سورة البقرة لا يدخله الشيطان » .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣٥ وفتح القدير ج ١ ص ٢٨ .
(٢) راجع تفسير القرطبى ج ١ ص ١٥٢ .

وقد روى الترمذى والنسائى وابن ماجة من حديث عبد الحميد بن جعفر عن سعيد المقبرى عن عطاء مولى أبى أحمد عن أبى هريرة رضى الله عنه قال :

« بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم : بعثا وهم ذووا عدد فاستقرأهم فاستقرأ كل واحد منهم ما معه من القرآن ، فأتى رجل منهم من أحدثهم سنا ، فقال : ما معك يا فلان ، فقال : معى كذا وكذا وسورة البقرة ، فقال : أمعك سورة البقرة ؟ قال : نعم • قال : اذهب فأنت أميرهم » •

فقال رجل من أشرافهم : والله ما منعنى أن أتعلم سورة البقرة الا أنى خشيت ألا أقوم بها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تعلموا القرآن واقرأوه ، فان مثل القرآن لمن تعلمه فقرأه وقام به كمثل جراب محشو مسكا يفوح ريحه فى كل مكان ومثل من تعلمه فيرقد وهو فى جوفه كمثل جراب أوكى على مسك » •

وهذا لفظ رواية الترمذى •

وقال الامام أحمد حدثنا عبد الملك بن عمر ، حدثنا هشام عن يحى بن أبى كثير عن أبى سلام عن أبى أمامة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« اقرأوا القرآن فانه شافع لأهله يوم القيامة ، اقرأوا الزهراوين البقرة وآل عمران ، فانهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان ، أو كأنهما غيايتان ، أو كأنهما فرقان من طير صوان يحاجان عن أهلهما يوم القيامة ، ثم قال : اقرأوا البقرة فان أخذها بركة وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة » •

ومعنى الزهراوان : المنيرتان ، والغيـاية : ما أظلك من فوقك • والفرق : القطعة من الشيء ، والصـواف : المصطفة المتضامة ، والبطلة : السحرة ، ومعنى لا تستطيعها أى لا يمكنهم حفظهـا ، وقيل لا تستطيع النفوذ فى قارئها •

زمن نزول الســورة

هى مدنية باجماع الآراء ، وقد ابتدأ نزولها بعد هجرة النبى صلى عليـه وسلم الى المدينة وقد نزل معظمها فى السنوات الأولى من الهجرة واستمر نزولها الى قبيل وفاة النبى صلى الله عليه وسلم بفترة قصيرة ، وكانت آخر آية من القرآن نزولا منها ، وهى قوله تعـالى :(واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون)[1] •

وبناء على ما سبق فاننا نستطيع أن نفصل الأمر كالتالى :

نزلت ســورة البقرة بالمدينة بالاتفاق وهى أول ما نزل فى المدينـة وحكى ابن حجـر فى شرح البخارى الاتفاق عليـه ، وقيل نزلت سورة المطففين قبلهـا بناء على أن سورة المطففين مدنيـة ، ولا شك أن سورة البقرة فيها فرض الصيام فرض فى السنة الأولى من الهجرة ، فرض فيها صوم عاشوراء ثم فرض صيام رمضان فى السنة الثانية لأن النبى صلى الله عليه وسلم صام سـبع رمضانات أولها رمضان من العام الثـانى من الهجرة ، فتكون ســورة البقرة نزلت فى السنة الأولى من الهجـرة فى أواخراها أو فى الثانية • وفى البخارى عن عائشة ما نزلت سورة البقرة الا وأنا عنده (تعنى النبى صلى الله عليه وسلم) وكان بناء رسول الله على عائشة فى شوال من السنة الأولى للهجرة • وقيل فى أول السنة الثانية وقد روى عنها أنها مكثت عنده تسـع سنين فتوفى وهى بنت ثمان عشرة سنة

---

(١) التفسير الوسيط ص ٢٤ •

وبنى بها وهى بنت تسع سنين ، الا أن اشتمال سورة البقرة على أحكام الحج والعمرة وعلى أحكام القتال من المشركين فى الشهر الحرام والبلد الحرام يعنى بأنها استمر نزولها الى سنة خمس وسنة ست كما يظهر فى تفسير (فان أحصرتم فما استيسر من الهدى) وقد يكون ممتدا الى ما بعد سنة ثمان كما يقتضيه قوله (الحج أشهر معلومات — الآيات الى قوله — لمن اتقى) على أنه قد قيل « ان قوله (واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله) الآية ، هو آخر ما نزل من القرآن ومعروف أنه قد يستمر نزول السورة فتنزل فى أثناء مدة نزولها سور أخرى »[1] .

عـــدد آيات الســـورة الكريمة

عدد آيات الســـورة الكريمة مائتان وخمس وثمانون آية عنـــد أهل العدد بالمدينة ومكة والشـــام ، وست وثمانون عند أهل العدد بالكوفة ، وسبع وثمانون عند أهل العدد بالبصرة .

ومنشأ الخلاف ، اختـــلاف المصحف الكوفى وغيره فى رؤوس بعض الآيات[2] .

كالوضع بالنســـبة للحروف المقطعة المبدوءة بها السورة « الم » هل هى آية مستقلة ، أم أنها جزء آية ؟ فقد عد أهل الكوفة « الم » حيث وقع آية وكذا « المص » و « طه » وكهيعص وطسم ويس وحم وعدوا حمعسق آيتين ، ومن عداهم لم يعد شـــيئا من ذلك ، وأجمع أهل العـــدد على أنه لا يعد « الر » حيث وقع آية . وكذا المر وطس وص وق ون[3] .

---

(١) تفسير التحرير والتنوير جـ ١ ص ٢٠٢ .

(٢) الفتوحات الالهية جـ ١ ص ٩٤٨ .

(٣) الاتقان للسيوطى جـ ١ ص ٧١ .

وعلى هذا نقول من اعتبرهما آيتين قال ان العدد مائتان وسبع وثمانون آية ومن لم يعتبر البسملة آية واعتبر « ألم » جزء آية قال ان العدد مائتان وخمس وثمانون آية ، ومن اعتبر واحدة منهما آية قال ان العدد مائتان وست وثمانون آية .

ومنشأ الخلاف فى عد آيات السور أيضا (البسملة) هل هى آية من القرآن الكريم أم لا ؟ والخلاف بين العلماء فى هذا معروف مشهور .

ومما تجدر الاشارة اليه أن الخلاف فى عدد الآيات لا يعنى ولا يفهم منه أن هناك زيادة أو نقصان فى آيات القرآن الكريم ، فقد تكفل الله تعالى بحفظه من الزيادة والنقصان والتغيير والتبديل والتحريف .

هذا وقد ذكر السيوطى فى الاتقان سبب الاختلاف فى عدد الآيات فقال : سبب الاختلاف فى عد الآى أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقف على رؤوس الآى للتوقيف فاذا علم محلها وصل للتمام ، فيحسب السامع حينئذ ، أنها ليست فاصلة[1] .

فى أغراض السورة الكريمة

هذه السورة مترامية أطرافها ، وأساليبها ذات أفنان . قد جمعت من وشائج أغراض السور ما كان مصداقا لتلقيبها فسطاط القرآن . فلا تستطيع احصاء محتوياتها بحسبان ، وعلى الناظر أن يترقب تفاصيل منها فيما يأتى من تفسيرها ، ولكن هذا لا يحجم بنا عن التعرض الى لائحات منها ، وقد حيكت بنسج المناسبات والاعتبارات البلاغية من لحمة محكمة فى نظم الكلام ، وسدى متين من فصاحة الكلمات[2] .

---

(١) دراسات فى التفسير د/امين باشا .
(٢) التحرير والتنوير ج ١ ص ٢٠٣ .

فعندما نطالع سورة البقرة بتدبر وعناية نراها فى مطلعها تنوه بشأن القرآن الكريم وتصرح بأنه حق لا ريب فيـــه ، وتبين لنا أن الناس أمام هدايته على ثلاثة أقسام :

١ ــ قسم آمن به وانتفع بهداياته فكانت عاقبته السعادة والفلاح : (أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون) •

٢ ــ وقســـم جحد واستكبر واستحب العمى على الهدى فأصــبح لا يرجى منه خير ولا ايمان ، فكان عاقبته الحرمان والخسارة : (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم) •

٣ ــ ثم فصلت الســـورة الحديث عن قسم ثالث هو شر ما تبتلى به الأمم وهم المنـــافقون الذين يظهرون خلاف ما يبطنـــون • وقد تحدثت الســـورة عنهم فى ثلاث عشرة آية ، كشفت فيها عن خداعهم ، وجبنهم ، ومرض قلوبهم ، وبينت ما أعده الله لهم من ســـوء المصير ، ثم زادت فى فضيحتهم وهتك سرائرهم فضربت مثلين لحيرتهم واضطرابهم قال تعالى : (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون الا أنفسهم وما يشعرون) ••• الى قوله تعالى ••• (ولو شـــاء الله لذهب بسمعهم وأبصـــارهم ان الله على كل شىء قدير) •

ثم وجهت السورة نداء الى الناس جميعا دعتهم فيه الى عبادة الله وحده ، وأقامت لهم الأدلة الساطعة على صدق هذه القضية وتحدتهم ــ ان كانوا فى ريب من القرآن ــ أن يأتوا بسورة من مثله وبينت لهم أنهم لن يستطيعوا ذلك لا فى الحاضر ولا فى المستقبل •

ثم ختم الربع الأول منها ببشارة الذين آمنوا وعملوا الصالحات بأن

لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، جمعت لذائذ المادة والروح وهم فيها خالدون •

ثم قررت السـورة الكريمة أن الله — تعالى — لا يمتنع عن ضرب الأمثال بما يوضح ويبين دون نظر الى قيمة الممثل به فى ذاته أو عند الناس كما قررت أن المؤمنين يقابلون هذه الأمثال بالايمان والاذعان ، أما الكافرون فيقابلونها بالاستهزاء والانكار •

وقد وبخت السورة بعد ذلك أولئك الكافرون على كفرهم ، مع وضوح الدلائل على وحدانية الله فى أنفسهم وفى الآفاق فقالت :

(كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ، ثم اليه ترجعون • هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ، ثم استوى الى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شىء عليم)[1] •

ثم أخذت السـورة الكريمة تحدثنا بعـد ذلك عن بعض جوانب قصة سيدنا آدم عليه السلام من خلافته فى الأرض وما حدث من الملائكة من استفسار يتعلق به وسكنه هو وزوجه الجنة وخروج سيدنا آدم عليه السلام وزوجه منها بسبب أكلهما من الشجرة التى حرمها الله عليهما •

(واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفة ، قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال : انى أعلم ما لا تعلمون •• الخ الآيات الكريمة) •

والسورة الكريمة قد اهتمت بالحوار مع اليهود فى المدينـة المنورة فالسورة كما ذكرنا من قبل مدنية وليس معنى حدوث هذا الحوار فى المدينة المنورة أنه اقليمى بل ان الحوار بالصورة المطروحة يمثل عالمية الاسلام

---

(١) التفسير الوسيط ص ٢٦ — ٢٧ •

فى دعوته لأهل الأديان الأخــرى • لقد تحدثت ســورة البقرة فى أكثر من مائة آية حديثا طويلا عن اليهود :

فتذكرهم أولا بنعمـــة الله عليهم وضرورة أن يفوا بعهودهم بنداء محبب الى نفوسهم ، وتدعوهم الى الايمان برســالة محمد عليه الصلاة والســلام :

(يا بنى اسرائيل اذكروا نعمتى عليكم ، وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم واياى فارهبــون • وآمنوا بما أنزلت مصــدقا لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا واياى فاتقون) •

ثم تذكرهم مرة أخرى أن يذكروا نعمته تعالى عليهم وتفضيله لهم على العالمين وأن يتقوا يوما لا يغنى فيه أحد عن أحد شيئا ، وأخذ يذكرهم ببعض نعمــه عليهم وبعض ما مضى من أحوالهم وأخبــارهم ، فذكر أنه نجاهم من آل فرعون ، وكانوا يسومونهم ســوء العذاب من ذبح الأبناء واستحياء النساء ، وأنه فرق بهم البحر فأنجاهم وأغرق آل فرعون •

ومع ذلك كانت طبيعة بنى اسرائيل الغالبة عليهم هى الكفر والجحود والنكران لهذه النعم •

فكانت النتيجة هى عقاب الله لهم :

(ضربت عليهم الذلة والمسكنة ، وباءوا بغضب من الله) •

ثم مضى القــرآن الكريم بعد ذلك يحدثنــا باستفاضة واســعــة عن أخلاقهم الفاسدة وتصرفاتهم القبيحة ودعواهم الباطلة التى أدت الى أن حل عليهم عذاب الله وعقابه جزاء كفرهم وعنادهم •

ومن أمثــلة تنطعهم فى الدين التى ذكرها القــرآن الكريم وجدالهم الذى يؤدى بهم الى الهاوية (ان الله يأمركم أن تذبحوا بقرة) •

ثم ذكر أن مثل هؤلاء لا يصح للنبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه أن يطمعوا فى ايمانهم لأنهم فى ذلك مثل أسلافهم فمنهم من يسمع بشارة التوراة بالنبى صلى الله عليه وسلم ، ثم يحرفها من بعد أن عقلها وعرفها ، واذا لقوا الذين آمنوا قالوا : أن صاحبكم نبى ، ولكن اليكم خاصة ، واذا خلا بعضهم الى بعض تعاتبوا على هذا الاقرار مع ما فيه من التحريف ، ومنهم أميون جهلاء لا يعلمون التوراة الا أمانى يمنيهم بها أحبارهم ، يزعمون بأن الله لا يؤاخذهم بخطاياهم وأن النار لا تمسهم الا أياما معدودة •

وكان القرآن الكريم يرد عليهم فى كل ذلك وغيره •

ولقد تحدث القرآن الكريم كثيرا فى سورة البقرة عن تفاصيل خداعهم للرسول صلى الله عليه وسلم ومن اتبعوه مثل قولهم (واذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقا لما معهم قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل ان كنتم مؤمنين) •

لقد ادعوا أنهم مأمورون ألا يأمنوا الا بما أنزل اليهم •

وذكر القرآن عنهم :

(ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر والله بصير بما يعملون) •

ولقد طعنوا فى القرآن بأنه نزل به جبريل وهو عدوهم لأنه ينزل بالشدة والقتال فقال تعالى ردا عليهم :

(قل من كان عدوا لجبريل فانه نزله على قلبك باذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين) •

وكان التحذير دائما للمؤمنين من اتباعهم فى باطلهم :

(ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينـزل عليكم من خـير من ربكم والله يختص برحمته من يشـاء والله ذو الفضـل العظيم) •

ثم ذكر القرآن الكريم مقالة اليهود والنصارى :

(وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هودا أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين) •

وبين بأن تلك أمانى لا دليل عليها من عقل أو نظر أو كتاب[1] •

ثم وضح الله مقدار جهلهم وبعدهم عن المنطق السليم :

(وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم قد بينا الآيات لقوم يوقنون) •

وتحدثنا سورة البقرة عن الكلمات التى اختبر الله بها سيدنا ابراهيم عليه السلام وبناء البيت الحرام وتضرعهما الى الله تعالى :

(ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم ، ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، وأرنا مناسكنا ، وتب علينا ، انك أنت التواب الرحيم) •

ثم أوضحت لنا الســورة الكريمة قيمة سيدنا ابراهيم عليه السلام كنبى مسلم بأنه ما كان يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما •

ثم ختمت تلك المحاورات ببيان ســنة الله فى خلقه وأن الانســان سيجازى بحسب عمله يوم القيامة :

(تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون) •

---

(١) راجع النظم الفنى فى القرآن للشيخ عبد المتعال الصعيدى •

ثم عودة الى اليهـود مرة أخرى فى اثارتهم للشبهـات عن تحويل القبلة :

(سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها ، قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشـاء الى صراط مستقيـم ... الخ الآيات) .

أما المقدار البـاقى من السورة الكريمة فانه حـديث عن التشريعات الحكيمة والآداب العالية والتوجيهات السامية[1] .

فقد عاد أولا الى محاجة المشركين بالاستدلال بآثار صنعة الله :

(ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك .. الخ الآيات) .

ومحاجة المشركين فى يوم يتبرأون فيـه من قادتهم ، وابطال مزاعم الفريقين فى محرمات من الأكل :

(يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم) .

وقد كمل ذلك بذكر صنف من الناس قليـل وهم المشركون الذين لم يظهروا الاسلام ولكنهم أظهروا مودة المسلمين :

(ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا) .

ولما قضى حق ذلك كله بأبدع بيان وأوضح برهان ، انتقل الى قسم تشريعات الاسلام اجمالا بقوله :

(ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب) .

ثم تفصيـلا : القصاص ، الوصية ، الصـيام ، الاعتكاف ، الحج ، الجهاد ، ونظام المعاشرة والعائلة ، المعاملات المالية ، والانفاق فى سبيل الله ، والصـدقات ، والمسكرات ، واليتامى ، والمواريث ، والبيـوع ،

---

(١) راجع التفسير الوسيط .

والربا ، والديون ، والاشـــهاد ، والرهن ، والنكاح ، وأحكام النســـاء ، والعدة والطلاق ، والرضاع ، والنفقات ، والأيمان •

وختمت السورة بالدعاء المتضمن لخصائص الشريعة الاسلامية وذلك من جوامع الكلم فكان هذا الختام تذييلا وفذلكة :

(لله ما فى السموات وما فى الأرض وان تبـــدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه •• الآيات) •

وكانت فى خلال ذلك كله أغراض شتى سيقت فى معرض الاستطراد فى متفرق المناسبات تجديدا لنشـــاط القارىء والسامع ، كما يسفر وجه الشمس اثر نزول الغيـــوث الهوامع ، وتخرج بوادر الزهر عقب الرعود القوارع ، من تمجيد الله وصفته (الله لا اله الا هو) ورحمته وسماحة الاســـلام ، وضرب أمثال (أو كصيب) واستحضـــار نظائر (وان من الحجارة) (ألم تر الى الذين خرجوا من ديارهم) وعلم وحكمة ، ومعانى الايمان والاسلام ، وتثبيت المسلمين (يأيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر) والكمالات الأصليـــة ، والمزايا التحسينية ، وأخـــذ الأعمال والمعانى من حقائقها وفوائدها لا من هيئاتها ، وعدم الاعتداد بالمصطلحات اذا لم ترم الى غاياته (وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها) (ليس البر أن تولوا وجوهكم) (واخراج أهله منه أكبر عند الله) والنظر والاستدلال ونظام المحاجة ، وأخبار الأمم الماضيـــة ، والرسل وتفاضلهم ، واختلاف الشرائع[1] •

المناسبة بين سورتى البقرة وما قبلها وما بعدها :

من أسماء ســـورة الفاتحة أنها (أم القـــرآن) فقد اشتملت على الأغراض الأســـاســـية للقرآن الكريم فجاءت سورة البقرة بعدها موضحة

---

(١) التحرير والتنوير جـ ١ ص ٢٠٦ .

لقضايا الألوهية والربوبية والعبودية والتشريع وعلاقة الاسلام بالعقائد المخالفة له وفى ذلك يقول الامام الألوسى :

وجه مناسبتها لسورة الفاتحة : أن الفاتحة مشتملة على بيان الربوبية أولا ، والعبودية ثانيا ، وطلب الهداية فى المقاصد الدينية والمطالب اليقينية ثالثا ، وكذا سورة البقرة مشتملة على بيان معرفة الرب أولا ، كما فى يؤمنون بالغيب وأمثاله ، وعلى العبادات وما يتعلق بها ثانيا ، وعلى طلب ما يحتاج اليه فى العاجل وفى الآجل آخرا ، وأيضا فى آخر الفاتحة طلب الهداية ، وفى أول البقرة ايماء الى ذلك بقوله : (هدى للمتقين) ولما فتح سبحانه الفاتحة بالأمر الظاهر وكان وراء كل ظاهر باطن ، افتتح هذه بما بطن سره وخفى الا على من شاء الله تعالى أمر)[1] .

أما عن علاقة سورة (البقرة) بسورة (آل عمران) فقد نزل صدر هذه السورة فى وفد نصارى نجران ، وكانوا قد وفدوا على النبى صلى الله عليه وسلم فدخلوا عليه المسجد وعليهم ثياب الحبرات وأردية الحرير ، مختمين بالذهب ، ومعهم بسط فيها تماثيل ومسوح جاءوا بها هدية له فلم يقبل البسط ، ثم جادلوه فى الدين ، وانضموا بهذا الى أحبار اليهود فى الشغب على الاسلام ، فجاء صدر هذه السورة فى تصوير ذلك الجدال الذى دار بينهم وقد جاء أغلبه فى جدال النصارى مع النبى صلى الله عليه وسلم وجاء قليل منه فى جدال اليهود معه ، وقد أشبهت سورة آل عمران سورة البقرة فى ذلك الجدال ، كما أشبهتها أيضا فى طولها ولهذا ذكرت بعدها .

---

(١) تفسير الألوسى ج ١ ص ٩٨ .

وقد مهد فى أول السورة لذلك الجدال ببيان ما يجب لله من الأوصاف، ثم انتقل من هـذا الى الرد على مقالاتهم فى ذلك الجـدال الى تثبيت المؤمنين وتحذيرهم من التأثر بها ، ثم انتقل من هذا الى تثبيت المؤمنـين بعد هزيمتهم فى غزوة أحـد • وقد استغلوها أيضا فى التأثير عليهم ، ثم ختمت السورة بالتنويه بالمؤمنين كما ختمت به سورة البقرة[1] •

(١) النظم الفنى فى القرآن الكريم •

الحـــروف المقطعة فى أوائل الســـور

اختلف المفسرون فى الحروف المقطعة التى فى أوائل السور ومجموع ما وقع من حروف الهجاء أوائل الســـور أربعة عشر حرفا فى ســـور عدة جميعها تســـع وعشرون وهذه الحروف هى نصف حروف الهجاء وأكثـــر الســـور التى وقعت فيها هذه الحروف من الســـور المكية ما عدا البقرة وآل عمران وهـــذه الحروف هى : ا ، ح ، ر ، س ، ص ، ط ، ع ، ق ، ك ، ل ، م ، ن ، ه ، ى وهـــذه الحروف بعضها تكرر فى ســـور والبعض الآخر لم يتكرر .

والعلماء وقفوا أمام هذه الحروف المقطعة فى أوائل السور فريقين :

أولهمـــا : يرى أن هذه الحروف سر من أسرار الله تعـــالى فهو من المتشـــابه الذى لا يعلم تأويله الا الله فيكون سرا محجوبا استأثر الله به ويجب علينا الايمان بها كما جاءت وهذا هو رأى السلف وروى عن الخلفاء الأربعة أبو بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم وجماعة من الصحابة مثل ابن مسعود رضى الله عنه وقد سئل الشعبى عن هذه الحروف فقال : (سرا لله فلا تطلبـــوه) ، وقال سيدنا أبى بكر الصـــديق رضى الله عنه : (لله فى كل كتاب سر وسره فى القرآن أوائل السور)[1] .

وقد اقترب من هذا الرأى بعض المسلمين وفسروا هذه الحروف على أنها أسرار ولكن يمكن فتح مغاليقهـــا ويتأتى ذلك لأهل المعـــرفة فمنهم من قال :

---

(١) راجع تفسير الفخر الرازى والقرطبى وأبى السعود .

١ — أنها حروف مقتضبة من أسماء وصفات لله تعالى المفتتحة بحروف مماثلة لهذه الحروف وهذا الرأى رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وقاله محمد بن القرظى أو الربيع بن أنس (فآلم) مثلا • الألف اشارة الى أحد أو أزلى ، واللام الى لطيف ، والميم الى ملك أو مجيد ونحو ذلك والتفسير منهم يحتاج الى توقيف وأنى لهم به •

٢ — أنها رموز لأسماء الله تعالى وأسماء الرسول عليه الصلاة والسلام والملائكة (فآلم) مثلا الألف من الله واللام من جبريل ، والميم من محمد قاله الضحاك ، ولابد هنا من توقيف فى كل فاتحة منها •

٣ — أنها رموز لمدة دوام هذه الأمة بحساب الجمل قاله أبو العالية أخذا بقصة رواها ابن اسحاق عن جابر بن عبد الله بن رئاب قال : (جاء أبو ياسر بن أخطب وحيى بن أخطب وكعب بن الأشرف فسألوا رسول الله عن آلم وقالوا : هذا أجل هذه الأمة من السنين احدى وسبعون سنة فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لهم : ص والمر • فقالوا : اشتبه علينا الأمر فلا ندرى أبالقليل نأخذ أم بالكثير) اه •

وليس فى جواب رسول الله صلى الله عليه وسلم اياهم بعدة حروف أخرى من هذه الحروف المتقطعة فى أوائل السور تقرير لاعتبارها رموزا لأعداد مدة هذه الأمة ، وانما أراد ابطال ما فهموه بابطال أن يكون مفيدا لزعمهم على نحو الطريقة المسماة بالنقص فى الجدل • وأما ضحكه صلى الله عليه وسلم فهو تعجب من جهلهم •

٤ — أنها رموز كل حرف رمز الى كلمة فنحو (آلم) أنا الله أعلم ، و (المر) أنا الله أرى ، و (المص) أنا الله أعلم وأفصل • رواه أبو الضحى عن ابن عباس رضى الله عنهما ويوهنه أنه لا ضابط له لأنه أخذ مرة بمقابلة الحرف بحرف أول الكلمة ومرة بمقابلته بحرف وسط الكلمة أو آخرها •

ونظروه بأن العرب قد تتكلم بالحروف المقطعة بدلا من كلمات تتألف من تلك الحروف نظما ونثرا مثل قولهم :

نادأهم ألا ألجموا ألاتا قالوا جميعا كلهم ألافا

أراد بالحرف الأول ألا تركبون ، وبالثانى ألا فاركبوا •

وهذا الرأى لا يحسن تخريج القرآن عليه •

الفريق الثانى :

وهذا الفريق يرى أن المراد من هذه الفواتح معلوم لأنه لا يجوز أن يرد فى كتاب الله تعالى ما لا يكون مفهوما للخلق والا كان الخطاب به عبثا وسفها •

وهذا الرأى هو ما عليه الجمهور من العلماء وقد بنوه على ما ذكر فى القرآن الكريم من آيات تحض على النظر والتدبر منها :

(أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا)(١) •

(أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها)(٢) •

ولكن جمهور العلماء مع اتفاقهم على هذا الرأى فانهم اختلفوا فى المراد بهذه الحروف الى آراء كثيرة نذكر بعضها على سبيل المثال لا الحصر ثم نخلص الى الرأى الراجح :

١ — فى عداد الأقوال فى أولها لجماعة من المتكلمين والعلماء واختاره الفخر أنها أسماء للسور التى وقعت فيها ، قاله زيد بن أسلم ونسبه لسيبويه فى كتابه باب أسماء السور من أبواب ما لا ينصرف ونسبه بعضهم

---

(١) سورة النساء الآية : ٨٢ •

(٢) سورة محمد الآية : ٢٤ •

للخليل ونسبه صاحب الكشاف للأكثر ويعضــده وقوع هاته الحروف فى أوائل الســور فتكون هاته الحروف قد جعلت أسماء بالعــلامة على تلك السور ، وسميت بها كما تقول الكراســة (ب) والرزمة (ج) ، ونظره القفــال بما سمت العرب بأسماء الحروف كما ســموا لام الطائى والد حارثة ، وسموا الذهب عين ، والسحاب غين ، والحوت نون ، والجبل قاف ، قال شريح بن أوفى العنسى أو العبسى :

يذكرنى حاميم والرمح شاجر فهلا تلا حاميم قبــل التقدم

يريد حم عسق تمشق التى فيها (قل لاأسألكم عليه أجرا الا المودة فى القربى) ويبعد هذا القول بعدا ما ان الشــأن أن يكون الاسم غير داخل فى المسمى وقد وجدنا هذه الحروف مقروءة مع الســور باجماع المسلمين على أنه يرده اتحاد هذه الحروف فى عدة سور مثل الم والر وحم • وأنه لم توضع أسماء السور الأخرى فى أوائلها •

٢ — وقال جماعة انها أســماء للقرآن اصطلح عليهــا قاله الكلبى والسدى وقتادة • ويبطله أنه قد وقع بعد بعضهــا ما لا يناسبها لو كانت أسماء للقرآن ، نحو الم غلبت الروم ، والم أحسب الناس •

٣ — أن هاته الحروف أقسم الله تعالى بها كما أقسم بالقلم تنويها بها لأن مسمياتها تألفت منها أسماء الله تعالى وأصول التخاطب والعلوم قاله الأخفش ، وقد وهن هذا القول بأنها لو كانت مقسما بها لذكر حرف القسم اذ لا يحذف الا مع اسم الجلالة عند البصريين وبأنها قد ورد بعدها فى بعض المواضع قسم نحو (ن والقلم) و (حم والكتاب المبين) •

قال صاحب الكشاف : وقد استكرهوا الجمع بين قسمين على مقسم واحد حتى قال الخليــل فى قوله تعالى : (والليل اذا يغشى والنهــار اذا تجلى) أن الواو الثانية هى التى تضم الأسماء للأسماء أى واو العطف ،

والجواب عن هذا أن اختصـــاص الحذف باسم الجلالة مختلف فيه وأن كراهيـــة جمع قسمين تندفع بجعل الواو التالية لهاته الفواتح واو العطف على أنهم قد جمعوا بين قسمين قال النابغة :

والله والله لنعـــم الفتى الـ   حارث لا النكس ولا الخـــامل

٤ — أنها سيقت مساق التهجى مسرودة على نمط التعديد فى التهجية تبكيتا للمشركين وايقاظا لنظرهم فى أن هذا الكتاب المتلو عليهم وقد تحدوا بالاتيان بسورة مثله هو كلام مؤلف من عين حروف كلامهم كأنه يغريهم بمحاولة المعارضـــة ويستأنس لأنفسهم بالشروع فى ذلك بتهجى الحروف ومعالجة النطق تعريضا بهم بمعاملتهم معاملة من لم يعرف تقاطيع اللغة • فيلقنها كتهجى الصـــبيان فى أول تعلمهم بالكتاب حتى يكون عجزهم عن المعارضـــة بعد هذه المحاولة عجزا لا معذرة لهم فيه ، وقد ذهب الى هذا القول المبرد وقطرب والفراء •

قال فى الكشاف : وهذا القول من القوة والخلاقة بالقبـــول بمنزلة ، وقلت وهو الذى نختاره وتظهر المناسبة لوقوعها فى فواتح السور أن كل سورة مقصودة بالاعجاز لأن الله تعالى يقول (فأتوا بسورة من مثله) فناسب افتتاح ما به الاعجاز بالتمهيد لمحاولته ويؤيد هذا القول أن التهجى ظاهر فى هذا المقصد فلذلك لم يسألوا عنه لظهور أمره وأن التهجى معروف عنـــدهم للتعليم فاذا ذكرت حروف الهجـــاء على تلك الكيفية المعهودة فى التعليم فى مقام غير صـــالح لتعليم عرف الســـامعون أنهم عوملوا معاملة المتعلم لأن حالهم كحاله فى العجز عن الاتيان بكلام بليـــغ ، ويعضد هذا الوجه تعقيب هاته الحـــروف فى غالب المواقع بذكر القـــرآن وتنزيله أو كتابتـــه الا فى كهيعص ، والم أحسب الناس ، والم غلبت الروم ووجه تخصيص بعض تلك الحروف بالتهجى دون بعض ، وتكرير بعضها لأمر

لا نعلمه ولعله لمراعاة فصاحة الكلام ويؤيده أن معظم مواقع هذه الحروف فى أوائل السور المكية عدا البقرة على قول من جعلوها كلها مدنية وآل عمران ولعل ذلك لأنهما نزلتا بقرب عهد الهجرة من مكة وأن قصد التحدى فى القرآن النازل بمكة قصد أولى[1] .

ولهذا كل سورة افتتحت بالحروف فلابد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن وبيان اعجازه وعظمته ، وهذا معلوم بالاستقراء وهو الواقع فى تسع وعشرين سورة ولذلك يقول تعالى :

(الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين)[2] .

(الم الله لا اله الا هو الحى القيوم نزل عليك الكتاب بالحق ومصدقا لما بين يديه)[3] .

(المص كتاب أنزل اليك فلا يكن فى صدرك حرج منه)[4] .

(الر كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور باذن ربهم)[5] .

(الم تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين)[6] .

(حم تنزيل من الرحمن الرحيم)[7] .

(حمعسق كذلك يوحى اليك والى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم)[8] .

---

(١) التحرير والتنوير ج ١ ص ٢١٦ .
(٢) سورة البقرة آية : ١ — ٢ .
(٣) سورة آل عمران آية : ٢ — ٣ .
(٤) سورة الأعراف آية : ١ — ٢ .
(٥) سورة ابراهيم آية : ١ .
(٦) سورة السجدة آية : ١ — ٢ .
(٧) سورة فصلت آية : ١ — ٢ .
(٨) سورة الشورى آية : ١ — ٢ — ٣ .

وغير ذلك من الآيات الدالة على صحة ما ذهب اليه هؤلاء لمن أمعن النظر[1] •

وعن صفات هذه الحروف قال فى الكشاف :

ما ورد فى هذه الفواتح من أسماء الحروف هو نصف أسامى حروف المعجم اذ هى أربعة عشر وهى : الألف ، واللام ، والميم والصاد ، والراء والكاف ، والهاء ، والياء ، والعين ، والطاء ، والسين والحاء ، والقاف ، والنون ، فى تسع وعشرين سورة على عدد حروف المعجم ، وهذه الأربعة عشر مشتملة على أنصاف أجناس صفات الحروف ففيها من المهموسة نصفها : الصاد ، والكاف ، والهاء ، والسين ، والحاء • ومن المجهورة نصفها : الألف ، واللام ، والميم ، والراء ، والعين ، والطاء ، والقاف ، والياء ، والنون • ومن الشديدة نصفها : الألف ، والكاف ، والطاء ، والقاف • ومن الرخوة نصفها : اللام ، والميم ، والراء ، والصاد والهاء ، والعين ، والسين ، والحاء ، والياء ، والنون • ومن المطبقة نصفها : الصاد والطاء • ومن المنفتحة نصفها : الألف ، واللام ، والميم ، والراء ، والكاف، والهاء ، والعين ، والسين ، والقاف ، والياء ، والنون • ومن المستعلية نصفها : الألف ، واللام ، والميم ، والراء ، والكاف ، والهاء ، والياء ، والعين ، والسين ، والحاء ، والنون • ومن حروف القلقلة نصفها : القاف والطاء •

حكم الوقف عليها :

يوقف على جميعها وقف التمام اذا قدرت بحيث لا تحتاج الى ما بعدها ، وكانت مستقلة المعنى وذلك اذا لم تجعل أسماء للسور أو جعلت وحدها أما اذا قدرت بحيث تحتاج الى ما بعدها كأن تكون مبتدأ خبره ما بعده فلا يوقف عليها ويكون الكلام جملة واحدة[2] •

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٦٨ •

(٢) دراسات فى التفسير ص ٣٥ •

وفى كون هـذه الفواتح آية خلاف ، فقال الكوفيـون (الم) أينما وقعت ، وكذلك (المص) و (طسم) وأخواتها وطه ويس وحم وأخواتها ، كهيعص آية وحم عسق آيتان ، وأما (المر) وأخواتها الخمس فليست بآية وكذلك طس ، وص ، وق ، ون ٠

وقال البصريون ليس شيء من ذلك آية ٠

وفى المرشد أن الفواتح فى السـور كلها آيات عند الكوفيين من غير تفرقة[1] ٠

محل الحروف المقطعة من الاعراب :

١ ـــ ان جعلت أسماء للسور أو القرآن كان لها حظ من الاعراب رفعا ونصبا وجرا ، فالرفع على أنها خبـر مبتدأ محذوف بمعنى (هذه الم) مثلما تقول (هذه سـورة البقرة) أو مبتدأ خبره محذوف أو ما بعده من السورة والنصب بتقدير فعل القسم المقدر على طريقة (الله لأفعلن) على حذف حرف الجر واعمال فعل القسم ٠ أو النصب بفعل مضمر يناسب المقام كاذكر واقرأ ٠ والفتحة مقدرة منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة الحكاية والجر بتقدير الحرف حسبما يقتضيه المقام مثل (تفكر فى الم) و (عليك بألم) ٠

٢ ـــ وان جعلتها أسماء لله تعالى فتجرى فيها الوجوه المذكورة ما عدا أن تكون مبتدأ خبـره ما بعده من آى السورة لأن الموافقة بين المبتـدأ والخبر لا توجد حينئذ ٠

٣ ـــ وان جعلت أسماء مسمياتها الحروف الهجائية فان أبقيت معانيها منثورة على نمط التعديد ٠ أى منثور نثر أسماء الأعداد كما تقول : ثلاثة ، أربعة ، خمسة ، فلاحظ لها من الاعراب لعدم المقتضى والعامل ٠

---

(١) راجع تفسير الألوسى ج ١ ص ١٠٥ ٠

أما اذا نظرنا الى ما قصد منها على هذا الوجه وقدرت لها العوامل تكون معربة كأن تقول مثــلا : المتحدى به مؤلف من هذه الحروف ، أو المؤلف من هذه الحروف متحدى به وسواء قدرتها مرفوعة أو منصوبة أو مجــردة تكون الآية بعدها خبــرا لمبتدأ محذوف ويكون الــكلام من جملتين •

٤ — وان جعلتها أبعاض كلمات أو حروفا للتنبيه وللدلالة على انقطاع كلام واستئناف آخر ، فلا حظ لها من الاعراب •

٥ — وكذلك لا حظ لها من الاعراب ان جعلت سرا بين الله ورسوله أو سرا استأثر الله به ، لأن الاعراب فرع المعنى[1] •

وبعد هذه المقدمات الذى تحدثنا فيها عن ملامح من سورة البقرة نبدأ بتوفيق الله تعالى فى تفســير السورة الكريمة ونسأله سبحانه أن يلهمنا الرشد والســداد ، قل هو ربى لا اله الا هو عليه توكلت واليه أنيب وهو حسبى ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيــم اللهم صلى وســلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبــه كما تحب وترضى آمين •

---

(١) دراسات فى تفســير القرآن الكريم ص ٣٦ وص ٣٧ ويراجع أيضا تفسير الألوسى جـ ١ ص ١٠٥ وانظر التفسير الموضوعى للدكتور محمد القاسم ود/أحمد الكومى ص ٩٢ •

القـــرآن

قال الله تعالى : (**الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين**)

معانى المفردات :

الكتاب : فعال بمعنى المكتوب اما مصـــدر كاتب المصـــوغ للمبالغة فى الكتابة فان المصدر يجىء بمعنى المفعول كالخلق ، واما فعال بمعنى مفعول كلباس بمعنى ملبوس وعماد بمعنى معمود به • واشتقاقه من كتب بمعنى جمع وضم لأن الكتاب تجمع أوراقه وحروفه[1] •

والكتاب : القرآن وسمى كتابا لأنه جمع بعضه الى بعض[2] •

لا ريب فيـــه : الريب الشك وأصل الريب القلق واضطراب النفس ، وريب الزمان وريب المنون نوائب ذلك ، قال الله تعالى (نتربص به ريب المنون) ولما كان الشك يلزمه اضطراب النفس وقلقها غلب عليـــه الريب فصار حقيقة عرفية يقال : رابه الشىء اذا شككه أي يجعل ما أوجب الشك فى حاله فهو متعد •

هدى للمتقين : الهدى اسم مصدر الهدى ليس له نظير فى لغة العرب الا سرى وتقى وبكى ولغى مصدر لغى فى لغة قليلة • وفعله هدى هديا يتعدى الى المفعول الثـــانى وربما تعدى اليه بنفســـه على طريقة الحذف المتوسع •

والهدى على التحقيق هو الدلالة التى من شأنها الايصال الى البغية والهدى الشرعى : هو الارشـــاد الى ما فيه صلاح العاجل الذى لا ينقص صلاح الآجل[3] •

---

(١) التحرير والتنوير ج ١ ص ٢٢١ •

(٢) زاد المسير فى علم التفسير ج ١ ص ٢٣ •

(٣) التحرير والتنــوير ج ١ ص ٢٢ وزاد المســير فى علم التفسير ج ١ ص ٢٤ •

التفسير التحليـــلى :

ذلك : قال ابن جريح قال ابن عبـــاس ذلك الكتاب أى هذا الكتاب ، وكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والسدى ومقاتل بن حيان وزيد ابن أســـلم وابن جريج أن ذلك بمعنى هذا والعـــرب تعارض بين اسمى الاشارة فيستعملون كلا منهما مكان الآخر ، وهذا معروف فى كلامهم وقد حكاه البخارى عن معمر بن المثنى عن أبى عبيدة وقال الزمخشرى :

ذلك اشـــارة الى (الم) كما قال تعـــالى (لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك) وقال تعالى (ذلكم حكم الله يحكم بينكم) وقال (ذلكم الله) وأمثـــال ذلك مما أشير به الى ما تقدم ذكره والله أعلم • وقد ذهب بعض المفسرين فيما حكاه القرطبى وغيره ان ذلك اشارة الى القرآن الذى وعد الرسول صلى الله عليه وسلم بانزاله عليه أو التوراة أو الانجيل أو نحو ذلك فى أقوال عشرة وقد ضعف هذا المذهب كثيرون والله أعلم[1] •

وهناك ثلاثة أقوال فى الاشارة بذلك :

١ ــ هل هذه اشارة الى ما تقدم انزاله عليه من القرآن •

٢ ــ أو أنه أراد به ما وعده أن يوحيه اليه فى قوله : (سنلقى عليك قولا ثقيلا)[2] •

٣ ــ أو أنه أراد بذلك ما وعد به أهل الكتب الماضية ، لأنهم وعدوا بنبى وكتاب •

الواقع أننا اذا أخذنا فى دراســـة اسم الاشارة هنا نجد عدة أمور ترشدنا الى الوضع الذى يمكن الأخذ به •

لقد جوز صـــاحب الكشاف على احتمال أن تكون حروف ألم مسوقة مساق التهجى لاظهار عجز المشركين عن الاتيان بمثل بعض القرآن ، أن

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٦٨ •
(٢) المزمل آية : ٥ •

يكون اسم الاشارة مشار به الى ألم باعتباره حرفا مقصودا للتعجيز ، أى ذلك المعنى الحاصل من التهجى فهذه الحروف من جنس الحروف التى يتكلم بها العرب ومن نفس تراكيبهم فما هو سر عجزهم عن المعارضة الا اعجازه ، هذا رأى •

ويمكن أن تكون ذلك اسم اشارة واللام للبعد حقيقية فى الحس مجازا فى الرتبة والكاف للخطاب والمشار اليه على الراجح الكتاب الموعود به صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى (انا سنلقى عليك قولا ثقيلا) •

قال صاحب الكشاف : فان قلت أخبرنى عن تأليف (ذلك الكتاب) مع (ألم) قلت : ان جعلت (ألم) اسما للسورة ففى التأليف وجوه • أن يكون (ألم) مبتدأ ، و (ذلك) مبتدأ ثانيا ، والكتاب خبره والجملة خبر المبتدأ الأول •

ومعناه أن ذلك الكتاب هو الكتاب الكامل ، كأن ما عداه من الكتب فى مقابلته ناقص ، وأنه الذى يستأهل أن يسمى كتابا كما تقول : هو الرجل أى : الكامل فى الرجولية ، الجامع لما يكون فى الرجال من مرضيات الخصال •

وان جعلت (ألم) بمنزلة الصوت ، كان ذلك مبتدأ خبره الكتاب ، أى ذلك الكتاب المنزل هو الكتاب الكامل[١] •

وعلى هذا فالمشار اليه هو القرآن والبعد هنا على الحقيقة • أو تكون الاشارة الى ما بين أيدينا من القرآن الكريم وعلى هذا فالبعد هنا فى الرتبة والمنزلة فالاشارة للتعظيم وتنزيل البعد الرتبى منزلة البعد الحقيقى للايذان بعلو شأنه ، وكونه فى الغاية القاصية فى الفضل والشرف • وكانت الاشارة اليه بصيغة البعيد لأنه سامى المنزلة أينما توجهت اليه ، فان نظرت اليه

---

(١) بتصرف من تفسير الكشاف جـ ١ ص ٣٣ .

من ناحيــة تراكيبه فهو معجز للبلغاء ، وان نظرت اليه من ناحية قصصه فهو أصــدق محدث عن الماضين وأدق محدد لتاريخ السابقين ، فلا جرم كانت الاشارة فى الآية باستعمال اسم الاشارة للبعيد لاظهار رفعة شأن هذا القــرآن ، وقد شاع فى كلام البلغاء تمثيــل الشىء الشريف بالشىء المرفوع فى عزة المنال لأن النفيس عزيز على أهله ، فمن العادة أن يجعلوه فى مكان مرتفع بعيد عن الأيدى[١] •

الــكتاب : القــرآن ومن قال : أن المراد بذلك الكتاب الاشــارة الى التــوراة والانجيل كما حكاه ابن جرير وغيره فقــد أبعد النجعة وأغرق فى النزع وتكلف ما لا علم له به[٢] •

واللام فى الكتاب للحقيقة مثلها فى أنت الرجل •

والمعنى : ذلك هو الكتاب الكامل الحقيق بأن يخص به اسم الكتاب لغاية تفوقه على بقية الأفراد فى حيازة كمالات الجنس حتى كأن ما عداه من الكتب السماوية خارج منه بالنسبة اليه •

والكتاب كالكتب مصــدر كتب ويطلق على المكتوب كاللبــاس بمعنى الملبوس •

والكتب ــ كما قال الراغب ــ ضم أديم الى أديم بالخيــاطة ، وفى المتعارف ضم الحروف بعضها الى بعض ، والأصل فى الكتابة النظم بالخط وقد يقال ذلك للمضموم بعضه الى بعض ولذا يستعار كل واحد للآخر ، ولذا سمى كتاب الله وان لم يكن كتابا •

والكتاب هنا اما باق على المصدرية وسمى به المفعول للمبالغة أو هو بمعنى المفعول وأطلق على المنظوم عبارة قبل أن تنظم حروفه التى يتألف منها فى الخط تسمية بما يؤول اليه مع المناسبة[٣] •

---

(١) التفسير الوسيط جـ ١ ص ٥٠ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٦٩ .
(٣) تفسير الألوسى جـ ١ ص ١٠٩ .

ويطلق الكتاب كالقرآن على المجموع المنزل على النبى المرسل صلى الله عليه وسلم وعلى القدر الشائع بين الكل والجزء •

وبناء على هذا كان اطلاق اسم الكتاب على المنظوم فى ذلك الوقت رغم أنه لم يتم عبارة لما أن مآله الكتابة والمراد به على تقدير كون المسمى هى السورة جميــع القرآن الكريم وأن لم يتم نزوله عنــد نزول السورة اما باعتبار تحققه فى علم الله عز وجل أو باعتبار ثبوته فى اللوح أو باعتبار نزوله جملة الى السماء الدنيا[١] •

وقد استعملت كلمة (الكتاب) فى القرآن كتعبير يدل على وجوه :

وقد عدها الفخر الرازى :

أحدها : الفرض كما فى قوله تعالى : (كتب عليكم القصاص)[٢] •

(كتب عليكم الصيام)[٣] •

ثانيهما : الحجة والبــرهان قال تعالى : (فأتوا بكتابكم ان كنتــم صادقين)[٤] ، أى برهانكم •

ثالثهــا : الأجل : قال تعالى : (وما أهلكنا من قرية الا ولهــا كتاب معلوم)[٥] ، أى أجل •

رابعها : بمعنى مكاتبة السيد عبــده قال تعالى : (والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم)[٦] •

---

(١) تفسير أبى السعود ج ١ ص ٢٢ •
(٢) سورة البقرة الآية : ١٧٨ .
(٣) سورة البقرة الآية : ١٨٣ .
(٤) سورة الصافات الآية : ١٥٧ .
(٥) سورة الحجر الآية : ٤ .
(٦) سورة النور الآية : ٣٣ .

لا ريب فيه : فى هذه العبارة نفى أن يكون الكتاب الكامل الذى أنزله الله تعالى على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم معجزة دالة على صدقه، ومشتملة على المنهج السوى متعلقا للريب مظنة له ، لأنه من وضوح الدلالة وسطوع البرهان بحيث لا يرتاب فيه حصيف عاقل مستقيم الفطرة .

يقول الزمخشرى : فان قلت : كيف نفى الريب على سبيل الاستغراق وكم من مرتاب فيه ، قلت : ما نفى أن أحدا لا يرتاب فيه ، وانما النفى كونه متعلقا للريب ومظنة له ، لأنه من وضوح الدلالة وسطوع البرهان بحيث لا ينبغى لمرتاب أن يقع فيه ألا ترى الى قوله تعالى :

(وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله) .

فما أبعد وجود الريب بينهم وانما عرفهم الطريق الى مزيل الريب وهو أن يحزروا أنفسهم ويروزوا قواهم فى البلاغة ، هل تتم للمعارضة أم تتضاءل دونها فيتحققوا عند عجزهم أن ليس فيه مجال للشبهة ولا مدخل للريبة[1] .

ومعنى نفيه عن الكتاب اذن : أنه فى علو فى الشأن وسطوع البرهان بحيث ليس فيه مظنة أن يرتاب فى حقيقته وكونه وحيا منزلا من عند الله تعالى والأمر كذلك لأن العرب ، مع بلوغهم فى الفصاحة الى النهاية عجزوا عن معارضة أقصر سورة من القرآن ، وذلك يشهد بأنه بلغت هذه الحجة فى الظهور الى حيث لا يجوز للعاقل أن يرتاب فيه ، لا أنه لا يرتاب فيه أحد أصلا[2] .

---

(١) الكشاف جـ ١ ص ١٧٤ .

(٢) محاسن التأويل جـ ٢ ص ٣٣ .

والوقف على قوله فيه ، فيه معنى نفى وقوع الريب فى الكتاب على هذا الوجه نفى الشـك فى أنه منزل من الله تعالى لأن المقصـود خطاب المرتابين فى صـدق نسبته الى الله تعالى ، وسيجىء خطابهم بقوله (وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله) فارتيابهم واقع مستقر ، ولكن نزل ارتيابهم منزلة العدم لأن فى دلائل الأحـوال ما لو تاملوه لزال ارتيابهم فنزل ذلك الارتياب مع دلائل بطلانه منزلة العدم ، ومن المفسرين من فسر قوله تعالى (لا ريب فيـه) بمعنى أنه ليس فيه ما نوجب ارتيابا فى صحته أى ليس فيـه اضطراب ولا اختلاف فيكون الريب هنا مجاز فى سببه ويكون المجرور ظرفا مستقرا خبر (لا) فينظر الى قوله تعالى (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) أى أن القرآن لا يشتمل على كلام يوجب الريبة فى أنه من عند الحق رب العالمين ، من كلام يناقض بعضه بعضا أو كلام يجافى الحقيقة والفضيلة ، أو يأمر بارتكاب الشر والفساد أو يصرف عن الأخلاق الفاضلة وانتفاء ذلك عنه يقتضى أن ما يشتمل عليه القرآن اذا تدبر فيه المتدبر وجده مفيدا اليقين بأنه من عند الله .

يقول صاحب التحرير والتنوير : والآية هنا تحتمل المعنيين فلنجعلهما مقصودين . وهذا الرأى متروك لفطنة القارىء وما يهديه اليه الأسلوب القرآنى .

والوقف على فيه هو المشهور وهو ما اختاره الجمهور على نحو قوله (ربنا انك جامع الناس ليوم لا ريب فيه)[1] وقوله (وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه)[2] .

---

(١) سورة آل عمران الآية : ٩ .

(٢) سورة الشورى الآية : ٧ .

وعن نافع وعاصم أنهما وقفا على (لا ريب) ويكون قوله (فيه هدى للمتقين) كلام جديد ، ونظيره لا ضير ، ولا بأس .

يقول الفخر الرازى : واعلم أن القراءة الأولى أولى لأن على القراءة الأولى يكون الكتاب نفسه هدى وفى الثانية لا يكون الكتاب نفسه هدى بل يكون فيه هدى والأول أولى لما تكرر فى القرآن من أن القرآن نور وهدى والله أعلم[١] .

ونستطيع أيضا من خلال قراءة متفحصة للآية أن نستنتج التعريض بما بين أيدى أهل الكتاب يومئذ من الكتب فانها قد اضطربت أقوالها وتخالفت لما اعتراها من التحريف وذلك لأن التصدى للاخبار بنفى الريب عن القرآن مع عدم وجود قائل بالريب فيما تضمنه أى بريب مستند لموجب ارتياب اذ قصارى ما قالوه فيه أقوال مجملة مثل : هذا سحر ، هذا أساطير الأولين ، يدل ذلك التحدى على أن المراد التعريض لا سيما بعد قوله (ذلك الكتاب) كما تقول لمن تكلم بعد قوم تكلموا فى مجلس وأنت ساكت : هذا الكلام صواب تعرض بغيره[٢] .

وهدى : حال من الضمير المجرور أى لا ريب كائنا فيه للمتقين حال كونه هاديا وهى حال لازمة فيفيد انتفاء الريب فى جميع الأزمنة والأحوال والهدى فى الأصل مصدر هدى أو عوض عن المصدر وكل فى كلام سيبويه ولم يجىء من المصادر بهذه الزنة الا قليل كالتقى والسرى والبكى، عند ابن عطية ومذكر عند اللحيانى[٣] .

وعرف الزمخشرى الهدى بأنه : الدلالة الموصلة الى البغية

---

(١) الفخر الرازى جـ ١ ص ١٦٤ .

(٢) انظر التحرير والتنوير جـ ١ ص ٢٢٤ .

(٣) الألوسي جـ ١ ص ١١٠ .

فلا يسمى الهدى عنده بهذا الاسم الا اذا وصل الى البغية ، واستدل الزمخشرى على أن الهدى هو الايصال الى البغية بثلاثة وجوه •

الأول :

وقوع الضلال مقابلا له فى قوله تعالى : (وانا أو اياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين) • وقد فسر الضلال بالخيبة ، وقال : لو لم يعتبر الوصول فى الهدى ما وقع الضلال فى مقابله ولجاز أن يجتمعا •

الثانى :

مدح من اهتدى بقولنا مهدى ، ويقول : من حصل له الدلالة من غير اهتداء لا يقال له ذلك •

الثالث :

أن اهتدى مطاوع هدى ولا يغاير معنى المطاوع معنى أصله •

وقد رد الامام الألوسى على صاحب الكشاف وقال فى رده على الوجه الأول :

ان المقابل للضلال هو الهدى اللازم بمعنى الاهتداء •

والخلاف فى هدى المتعدى •

وفى رد الألوسى على الوجه الثانى ، قال : لا يلزم من اطلاق المهدى على المهتدى وجود الايصال فى الهدى لجواز أن يحصل له الهدى بغير ايصال •

وفى رده على الوجه الثالث ، قال : ان اهتدى ليس مطاوع هدى بل هو فعل مترتب عليه فكما تقول : هديته فاهتدى ، تقول : هديته فلم يهتدى •

وعلى ذلك يكون تفسير الهدى بالدلالة بلطف على ما يوصل أولى

من تفسير الهدي بنفس الايصال لأنا لو أخذنا الايصال فى مفهومه لم يكن لهداية من يهدى من ضل فلم يستجب فائدة ولم يقل به أحد[1] •

المتقين :

جمع متق اسم فاعل من وقاه فاتقى •

والمتقى من اتصف بالاتقـاء وهو طلب الوقاية ، والوقاية الصـيانة والحفظ من المكروه فالمتقى هو الحذر المتطلب للنجاة من شىء مكروه والمراد هنـا لمتقين الله ، أى الذين هم خائفون غضبه واستعدوا لطلب مرضاته واستجابة طلبـه فاذا قرىء عليهم القرآن استمعوا له وتدبروا ما يدعوا اليه فاهتدوا •

والتقوى الشرعيـة هى امتثال الأوامر واجتناب المنهيات من الكبائر ظاهرا وباطنا أى اتقاء ما جعل الله الاقتحام فيـه موجبا لغضبه وعقابه ، فالكبائر كلها متوعد فاعلها بالعقاب •

والمراد هنا من الهدى ومن المتقين :

ان القـرآن من شأنه الاتصال الى المطالب الخيرية وأن المستعدين للوصـول به اليها هم المتقون أى هم الذين تجردوا عن المكابرة ونزهوا أنفسهم عن حضيض التقليـد للمضلين وخشوا العاقبة وصانوا أنفسهم عن خطر غضب الله هذا هو الظاهر والمراد بالمتقين المؤمنون الذين آمنوا بالله وبسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وتلقوا القرآن بقوة وعزم على العمل به كما ستكشف عنهم الأوصاف الآتية فى قوله تعالى (الذين يؤمنون بالغيب — الى قوله — من قبلك)[2] •

---

(١) انظر تفسير الألوسى ج ١ ص ١٠٩ وكذلك المنتخب فى تفسير القرآن الكريم ص ٤٤ •

(٢) التحرير والتنوير ص ٢٢٦ •

ويثور هنا سؤال : كون الشيء هدى ودليلا لا يختلف بحسب شخص دون شخص فلما جعل القرآن هدى للمتقين فقط وأيضا فالمتقى مهتد والمهتدى لا يهتدى ثانيا والقرآن لا يكون هدى للمتقين •

الجواب : القرآن كما أنه هدى للمتقين ودلالة لهم على وجود الصانع وعلى دينه وصدق رسوله فهو أيضا دلالة للكافرين الا أن الله تعالى ذكر المتقين مدحا ليبين أنهم هم الذين اهتدوا وانتفعوا به كما قال :

(انما أنت منذر من يخشاها) •

(انما تنذر من اتبع الذكر) •

وقد كان عليه الصلاة والسلام منذرا لكل الناس فذكر هؤلاء الناس لأجل أن هؤلاء هم الذين انتفعوا بانذاره[1] •

فقــه الآية

فى الآية الســابق تفسيرها طرحت قضـية الاعجاز القرآنى للوهلة الأولى وهذا الاعجاز القرآنى كانت نتيجته الحتمية الهداية بأوسع معانيها وهذا هو المضمون الأســاسى للآية ولكن هذا المضمون يحتاج الى نوع من التفصيل نذكره فى فقهها بعون الله وتوفيقه •

القرآن مصـــدر هداية

الحديث فى القــرآن وعن القرآن لا ينتهى ، انه لا يحده فكر بشرى ولا يقيده تصــور انسانى • ولقد كان من الحكمة العميقة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يأخذ فى تفسيره كلمة كلمة وآية آية ، وانما فسر كلمة من هنا وآية من هنــاك • ولم يقل صلوات الله وسلامه عليــه : ان تفسيره يحد المعنى ويحدده ويقيــده • وفسره رسول الله صلى الله عليه

---

(١) انظر الفخر الرازى ج ١ ص ١٦٦ •

وسلم بسلوكه أكثر مما فسره بقوله المباشر فى معناه لقد كان خلقه صلى الله عليـــه وسلم القرآن • فكان خلقه تفسيرا للقرآن ومن هنا كان قوله تعالى :

(لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا)[1] •

وفسره صلى الله عليه وسلم بأحاديثه الكثيرة — عن طريق غير مباشر — أكثر مما فسره بطريق مباشر •

واذا كان رســـول الله صلى الله عليه وسلم قد تحلى بالقرآن فكان سلوكه تفسيرا له ، واذا كان قد امتزج بالقرآن فكان نطقه — وما ينطق عن الهوى — تفسيرا له ، واذ كانت حياته كلها سلبا وايجابا قولا وصمتا وحركة وسكونا انما هى تفســير للقرآن فان الصحابة ساروا على منواله بقدر اســتطاعتهم يحاولون أن يستهدوا بالقــرآن وأن يكون القرآن — ما استطاعوا — خلقهم •

لقد كانوا يعملون بالقرآن ، ويتخذونه اماما وقائدا ، انهم لم يتخذوه دراسة نظرية ، وانما اتخذوه هداية عملية حتى ان بعضهم ما كان يجاوز فى الحفظ السورة الى غيرها الا اذا حقق ما فيها من أوامر ، وانتهى عما فيها من نواه • لقــد اتخذوه دستورهم فى الحيــاة ، وأقاموه امامهم فى حياتهم ، لقــد طبقوا قواعده والتزموا مبــادئه : من جهاد ، وضرب فى الحيــاة ، وصدق فى القول ، واحســان فى العمل وعبودية أسمى وأقوى وأخشع ما تكون العبــودية لله سبحانه وحده ، وحققوا بذلك الأمة التى أحبها الله ورسوله •

---

(١) سورة الاحزاب آية : ٢١ .

ولقد ربى القرآن على مر العصور رجالا اتخذوه اماما وهاديا فكانوا مثلا أعلى فى الانسانية لا يدانيهم غيرهم من سائر الدول • ولا يزال القرآن للآن هو القرآن الذى وحد قبائل وجمع أشتاتا • وألف بين قلوب ، وكون أمة ، وأرسى قواعد حضارية تعتز بها لأنها حضارة بنيت على التقوى من أول يوم •

ونحن فى عالمنا الاسلامى فى سبيل النهوض والتطور والبعث والرقى فى حاجة أمس ما تكون الحاجة الى الاسترشاد بمصدر الهداية ومصدر القوة •

(ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم)[1] •

توجيهات الآية الكريمة بالنسبة للغزو الفكرى والثقافات الوافدة :

ولكننا لم ننته بعد من دلالات الآية الكريمة وذلك أننا اذا كنا قد ذكرنا بعض هذه الدلالات متخذين ألفاظ الآية أساسا :

فان للآية جوا وروحانية ناشئة عن تركيبها العام وعن مغزاها الذى ينبثق عن هذا التركيب وينبثق عن الجو الذى قيلت فيه • وعن ذلك سنأخذ فى الحديث الآن والله الموفق •

الانسان اما مسلم صادق أو مسلم مزيف•والمسلم الصادق لا يسمح لنفسه أن ينهل من منابع غير الهية فى الأمور التى أنزل الله فيها وحيا ، ان المؤمن الصادق لا يتخذ له فى العقيدة أو فى الأخلاق والتشريع اماما غير امامه الربانى •

والأمور التى أتى بها الدين ونزل بها الوحى وصرح بها الكتاب هى

---

(١) سورة الاسراء آية : ٩ .

راجع القرآن والنبى للدكتور عبد الحليم محمود ص ٢٦ .

مبـادىء لا يجوز — فى أعراف المؤمنين الصـادقين — العدول عنها الى غيرها .

والموقف القرآنى فى ذلك :

(فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما) .

ولقد حرص الرسول صلى الله عليه وسلم طيلة حياته على أن تستمر المنابع التى يستقى منها المسلمون صافية صفاء مطلقا ، وعلى أن تستمر القراءة (باسم ربك) لا تستقى الا من المنابع الاسلامية النقية .

وأول منبع هو القرآن الكريم ، ولقد حرص رسـول الله صلى الله عليه وسلم ألا يختلط بالقرآن غيره ، وكان شديد الحرص فى ذلك الى درجة أنه لم يسـمح ، فى العهد الأول من الوحى ، أن تكتب الأحاديث التى كان ينطق بهـا حتى لا تختلط بالقرآن ، ثم لما بانت معالم القـرآن ، وبدت أوصافه الذاتية وأسفرت آياته عن شخصيته سمح الرسول صلى الله عليه وسلم بكتابة السنة .

ولقد حرص رسـول الله صلى الله عليه وسلم على ألا يلوث الدين الاسلامى بغيره[1] .

ولقد روى المحدثون فى ذلك أحاديث فى غاية العمق منها :

روى الامام أحمد بسنده عن جابر : (أن عمر بن الخطاب أتى النبى صلى الله عليه وسلم بكتاب أصابه عن بعض أهل الكتاب ، فقرأه على النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : فغضب ، وقال :

أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب ؟ والذى نفسى بيـده لقد جئتكم بها

---

(١) القرآن فى شهر القرآن للدكتور عبد الحليم محمود ص ٢٢ .

بيضاء نقيــة ، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبونه أو ببــاطل فتصــدقونه ، والذى نفسى بيده لو أن موسى كان حيــا ما وسعه الا أن يتبعنى) .

وأخرج عبــد الرزاق فى المصنف ، والبيهقى فى شعب الايمــان عن الزهرى (أن حفصــة جاءت الى النبى صلى الله عليــه وسلم بكتاب من قصص يوسف فى كتف فجعلت تقرؤه عليه ، والنبى صلى الله عليه وسلم يتلون وجهه ، فقــال : (والذى نفسى بيــده لو أتاكم يوسف وأنا بينكم فاتبعتموه وتركتمونى ضــللتم ، أنا حظكم من النبيــين وأنتم حظى من الأمم) .

وأخرج عبد الرزاق والبيهقى أيضا عن أبى قلابة (أن عمربن الخطاب رضى الله تعالى مر برجل يقرأ كتــابا فاستمعه ساعة فاستحسنه فقــال للرجل : اكتب لى من هذا الكتاب قال : نعم فاشترى أديما فهيأه ثم جاء به اليه فنسخ له فى ظهره وبطنه ثم أتى النبى صلى الله عليه وسلم فجعل يقرؤه عليه وجعل وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلون فضرب رجل من الأنصــار الكتاب وقال : ثكلتك أمك يا ابن الخطــاب ألا ترى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ اليوم وأنت تقرأ عليه هذا الكتاب .

فقال النبى صلى الله عليه وسلم عند ذلك : انما بعثت فاتحا وخاتما ، وأعطيت جــوامع الكلم وخواتيمه واختصر لى الحديث اختصــارا ، فلا يهلكنكم المتهوكون) أى : الواقعون فى كل أمر بغير روية .

وقيل : المتحيرون .

وأخرج الدارمى وابن جرير وابن المنــذر وابن أبى حاتم عن يحيى ابن جعدة قال : جاء ناس من المسلمين بكتف قد كتبوا فيها بعض ما سمعوه من اليهود فقال رســول الله صلى الله عليه وسلم : (كفى بقوم حمقا أو

ضلالة أن يرغبوا عما جاء به نبيهم اليهم ، الى ما جاء به غيره الى غيرهم) فنزلت : (أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ان فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون)[1] .

وبصفة عامة فان الموقف الذى يجب أن يتبعه المسلم بالنسبة للأخذ من مجال الحضارة المادية هو موقف المشجع على الأخذ منها أينما كانت ، وعلى المساهمة فيها مساهمة فعالة وعلى الارتقاء بهـا وتطويرها تطويرا مستمرا . ان اكتشاف نواميس الله فى الكون من واجبات المسلم حتى لو كانت هذه العلوم قد نشأت فى حضارات ليس لها نصيب فى العقيدة الاسلامية .

ولقد ترجم سيدنا عمر بن عبد العزيز كتابا فى الطب لما رأى حاجة المسلمين الى ذلك .

ولما ترجمت كتب الكيمياء والطبيعة والطب والفلك فى عهد أبى جعفر المنصور وبعده لم يجد ذلك من المسلمين الا كل ترحيب .

ولكن موقف المسلمين فى الجانب الروحى من الحضارات القديمة والحديثة موقف يختلف عن ذلك كل الاختلاف .

ان الموقف الاسلامى فى ذلك يرى أن فى عقائد المسلمين وفى أخلاق المسلمين من الصدق ومن الحق والوضوح ما يغنى عن غيرها .

ورأت أن عقائد المسلمين وأخلاق المسلمين قد حددها الأسلوب الالهى فى القرآن الكريم وبينها الرسول صلى الله عليه وسلم فى أحاديثه .

ان الله سبحانه وتعالى هو الذى عبر عنها ، وان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد طبقها . وهذه ميزة لا توجد فى غير الدين الاسلامى .

---

(١) سورة العنكبوت آية : ٥١ .

أمن المعقول أن يدع الانسان الأسلوب الالهى فى اعجازه الى فكر بشرى يترجمه أسلوب بشرى آخر •

لقد انتهر الرسول صلى الله عليه وسلم سيدنا عمر رضى الله عنه فى شدة لأنه أتى بصحف من التوراة يتلوها ، وغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم على كل من حاول أن يستقى فى العقيدة والأخلاق من منبع غير القرآن والسنة النبوية الشريفة •

وسار المسلمون فى سلفهم الصالح على هذا النسق من التفرقة بين الجانب المادى والجانب الروحى[1] •

وصف القرآن :

ان وصف القرآن فى مغزاه ومبانيه دليل على كونه كتاب هداية للمتقين وللبشر أجمعين ، وان أصدق وصف للقرآن الكريم هو الوصف الذى أتى به القرآن نفسه ، ومهما قال القائلون فى وصفه وتفنن الكتاب فى اعطاء صورة عنه فانهم لن يبلغوا الوصف الذى وصفه به منزله سبحانه وتعالى ونحن فيما يلى نذكر بعض ما ورد فى القرآن عن القرآن فهو الكتاب الذى لا ريب فيه هدى للمتقين •

القرآن من أسباب بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم :

(ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ، ويزكيهم انك أنت العزيز الحكيم)[2] •

(لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو

---

(١) بتصرف من كتاب القرآن فى شهر القرآن ص ٢٨ وص ٢٩ وص ٣٠ .

(٢) البقرة آية : ١٢٩ .

عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وان كانوا من قبـل لفى ضلال مبين)[١] .

(كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلوا عليكم آياتنا ، ويزكيكم ويعلمكم الكتاب ويعلمكم ما لم تكونوا تعلموا)[٢] .

مصدره :

(وانك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم)[٣] .

(حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم)[٤] .

(حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم)[٥] .

(الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير)[٦] .

(حم والكتاب المبين ، انا أنزلناه فى ليلة مباركة انا كنا منذرين)[٧] .

أوصافه :

(الر تلك آيات الكتاب المبين)[٨] .

(الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين)[٩] .

(طس تلك آيات القرآن وكتاب مبين)[١٠] .

---

(١) آل عمران آية : ١٦٤ .
(٢) البقرة آية : ١٥١ .
(٣) النمل آية : ٦ .
(٤) غافر آية : ١،٢ .
(٥) الجاثية آية : ١،٢ .
(٦) هود آية : ١ :
(٧) الدخان آية : ١ـ٣ .
(٨) يوسف آية : ١ .
(٩) الحجر آية : ١ .
(١٠) النمل آية : ١ .

هو نور :

(يا أيها النـــاس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنـــا اليكم نوراً مبينا)[١] .

(وكـــذلك أوحينا اليـــك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الـــكتاب ولا الايمان ، ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا ، وانك لتهدى الى صراط مستقيم)[٢] .

حكيم :

(الر تلك آيات الكتاب الحكيم)[٣] .

حق :

(والذى أوحينا اليك من الكتاب هو الحق مصدقا لما بين يديه ان الله بعباده لخبير بصير)[٤] .

مبارك :

(كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب)[٥] .

(وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون)[٦] .

معجز :

(قـــل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هـــذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا)[٧] .

عظيم :

(ولقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم)[٨] .

---

(١) النساء آية : ١٧٤ .
(٢) الشورى آية : ٥٢ .
(٣) يونس آية : ١ .
(٤) فاطر آية : ٣١ .
(٥) ص آية : ٢٩ .
(٦) الانعام آية : ١٥٥ .
(٧) الاسراء آية : ٩٢ .
(٨) الحجر آية : ٨٧ .

على حكيم :

(وانه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم)[١] .

عزيز :

(ان الذين كفروا بالذكر لما جاءهم ، وانه لكتاب عزيز)[٢] .

مفصل على علم :

(ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون)[٣] .

(كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون)[٤] .

أحسن القصص :

(نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا اليك هذا القرآن وان كنت من قبله لمن الغافلين)[٥] .

لا عوج له :

(الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا)[٦] .

يهدى الى الحق :

(واذ صرفنا اليك نفرا من الجن يستمعون القرآن ، فلما حضروه قالوا أنصتوا ، فلما قضى ولوا الى قومهم منذرين • قالوا يا قومنا انا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدى الى الحق ، والى طريق مستقيم)[٧] .

---

(١) الزخرف آية : ٤ .
(٢) فصلت آية : ٤١ .
(٣) الأعراف آية : ٥٢ .
(٤) فصلت آية : ٣ .
(٥) يوسف آية : ٣ .
(٦) الكهف آية : ١ .
(٧) الأحقاف آية : ٢٩ــ٣١ .

عربى الأسلوب عالى الدلالة :

(حم والكتاب المبين ، انا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون)[١] .

(قرآنا عربيا غير ذى عوج لعلهم يتقون)[٢] .

لا ريب فيه :

(الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين)[٣] .

يخرج من الظلمات الى النور :

(الر كتاب أنزلناه اليـك لتخرج الناس من الظلمات الى النور باذن ربهم الى صراط العزيز الحميد)[٤] .

بشرى للمسلمين :

(ويوم نبعث فى كل أمة شـهيدا عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيدا على هؤلاء ، ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين)[٥] .

رحمة للمؤمنين :

(وما أنزلنا عليـك الكتاب الا لتبين لهم الذى اختلفوا فيـه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون)[٦] .

تلاوته :

(ان الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصـلاة ، وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ، يرجون تجارة لن تبور)[٧] .

---

(١) الزخرف آية : ١ـ٣ .
(٢) الزمر آية : ٢٨ .
(٣) البقرة آية : ١ـ٣ .
(٤) ابراهيم آية : ١ .
(٥) النحل آية : ٨٩ .
(٦) النحل آية : ٦٤ .
(٧) فاطر آية : ٢٩ .

نذير :

(تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا)[1] .

أنزل بالحق :

(انا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق ، فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فانما يضل عليها ، وما أنت عليهم بوكيل)[2] .

أحسن الحديث :

(الله نزل أحسن الحديث كتابا متشـــابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله ، ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ، ومن يضلل الله فما له هاد)[3] .

نذير لكل من بلغه :

(قل أى شىء أكبر شهادة ، قل الله شهيد بينى وبينكم ، وأوحى الى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى قل لا أشهد ، قل انما هو اله واحد واننى برىء مما تشركون)[4] .

تذكرة :

(نحن أعلم بما يقولون ، وما أنت عليهم بجبار ، فذكر بالقرآن من يخاف وعيد)[5] .

مصدقا لما بين يديه :

(نزل عليـــك الكتاب بالحق مصـــدقا لما بين يديه وأنزل التـــوراة والانجيل)[6] .

---

(١) الفرقان آية : ١ .
(٢) الزمر آية : ٤١ .
(٣) الزمر آية : ٢٣ .
(٤) الأنعام آية : ١٩ .
(٥) سورة ق آية : ٤٥ .
(٦) آل عمران آية : ٣ .

أثره وتأثيره :

(لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله ، وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون)[1] .

حكم :

(أفغير الله أبتغى حكما ، وهو الذى أنزل اليكم الكتاب مفصلا ، والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق ، فلا تكونن من الممترين)[2] .

ان القرآن الكريم مصدر الهداية للمتقين :

فعن السيدة عائشة — رضوان الله عليها — أن (من قرأ القرآن فليس فوقه أحد) .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه :

(اذا أردتم العلم فثوروا القرآن فان فيه علم الأولين والآخرين) .

وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنه :

(من جمع القرآن فقد حمل أمرا عظيما وقد أدرجت النبوة بين جنبيه ، الا أنه لا يوحى اليه) .

وفى رواية عنه :

(من قرأ القرآن ، فقد اضطربت النبوة بين جنبيه وما ذاك الا أنه جامع لمعانى النبوة) اه .

ونعود فنقول أنه لا تتأتى الهداية الا اذا كان هناك التدبر فى هذا القرآن .

ولا تكون التقوى الا بهذا التدبر .

---

(١) الحشر آية : ٢١ .
(٢) الانعام آية : ١١٤ .

التذير فى القرآن :

عن أبى قال : « قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بنا ليــلة فقام بآية يرددها وهى : (أن تعذبهم فانهم عبادك ، وان تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم) •

وقام تميم الدارى ليــلة بهذه الآية (أم حسب الذين اجتــرحوا السيئات) من سورة الجاثية •

وقام سعيــد بن جبير ليلة يردد هذه الآية (وامتازوا اليــوم أيها المجرمون) •

فيجب على المسلم التفهم وهو أن يستوضح من كل آية ما يليق بها اذ القرآن يشتمل على ذكر صفات الله عز وجل ، وذكر أفعــاله ، وذكر أحوال الأنبيــاء عليهم السلام ، وذكر أحــوال المكذبين لهم ، وأنهم كيف أهلكوا ، وذكر أوامره وزواجره ، وذكر الجنة والنار[1] •

أما صفات الله تعالى فكقوله تعالى : (ليس كمثله شىء وهو السميع البصير) •

وكقوله تعالى : (الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر) •

فليتأمل معانى هذه الأسماء والصفات ليكشف له أسرارها ، فتحتها معان مدفونة لا تنكشف الا للموفقين ، واليــه أشار على رضى الله عنــه بقوله : ما أسر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا كتمه عن الناس الا أن يؤتى الله عز وجل عبدا فهما فى كتابه •

---

(١) انظر احياء علوم الدين .

فلتكن حريصا على طلب ذلك

وقال ابن مسعود رضى الله عنه : من أراد علم الأولين والآخرين فليثور القرآن ، وأعظم علوم القرآن تحت أسماء الله عز وجل وصفاته إذ لم يدرك أكثر الخلق منهـا الا أمورا لائقة بأفهامهم ولم يعثـروا على أغوارها .

وأما أفعـاله تعالى فكذكره خلق السموات والأرض وغيرها فليفهم التالى منها صفات الله عز وجل ، وجلاله ، اذ الفعل يدل على الفاعل فتدل عظمته على عظمته ، فينبغى أن يشهد فى الفعل الفـاعل دون الفعل فمن عرف الحق ، رآه فى كل شىء ، اذ كل شىء فهو منه واليه ، وبه وله ، فهو الكل على التحقيـق ، ومن لا يراه فى كل ما يراه ، فكأنه ما عرفه ، ومن عرفه عرف أن كل شىء ما خلا الله باطل ، وأن كل شىء هالك الا وجهه ، لأنه سيبطل فى ثانى الحال بل هو الآن باطل ان اعتبر ذاته من حيث هو ، الا أن يعتبر وجوده من حيث أنه موجـود بالله عز وجل وبقدرته فيكون له بطريق التبعية ثبات وبطريق الاستقلال بطلان محض .

ولهذا ينبغى اذا قرأ التالى قوله عز وجل :

(أفرأيتم ما تحرثون) (أفرأيتم ما تمنـون) (أفرأيتم الماء الذى تشربون) (أفرأيتم النار التى تورون) .

فلا يقصر نظره على الماء والنار والحرث والمنى ، بل يتأمل فى المنى وهو نطفة متشابهة الأجزاء ، ثم ينظر فى كيفية انقسامها الى اللحم والعظم والعروق والعصب ، وكيفية تشكل أعضائها بالأشكال المختلفة من الرأس واليد والرجل والكبد والقلب وغيرها ، ثم الى ما ظهر من الصفات الشريفة من السمع والبصر والعقل وغيرها ، ثم الى ماظهر فيها من الصفات المذمومة من الغضب والشهوة والكبر والجهل والتكذيب والمجادلة كما قال تعالى : (أو لم ير الانسان أنا خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم مبين) .

فيتأمل هذه العجائب ليترقى منها الى عجب العجائب ، وهو الصفة التى منهـا صدرت هـذه الأعاجيب فلا يزال ينظر الى الصنعـة فيرى الصانع •

وأما أحوال الأنبياء عليهم السلام : فاذا سمع منها أنهم كيف كذبوا وضربوا وقتل بعضهم ، فليفهم منه صفة الاستغناء لله عز وجل عن الرسل والمرسل اليهم ، وأنه لو أهلك جميعهم لم يؤثر فى ملكه شيئا ، واذا سمع نصرتهم فى آخـر الأمر فليفهم قدرة الله عز وجـل ، وارادته لنصرة الحق •

وأما أحوال المكذبين : كعاد وثمود وما جرى عليهم فليكن فهمه منه استشعار الخوف من سطوته ونقمته ، وليكن حظه منه الاعتبار فى نفسه ، وأنه ان غفل وأساء الأدب واغتر بما أمهل ، فربما تدركه النقمة وتنفذ فيه القضـية ، وكذلك اذا سمع وصف الجنـة والنار وسائر ما فى القرآن ، فلا يمكن استقصاء ما يفهم منها لأن ذلك لا نهاية له ، وانما لكل عبد منه بقدر رزقه[1] •

قال محمد بن كعب القرظى :

من بلغه القرآن ، فكأنما كلمه الله ، واذا قدر ذلك لم يتخذ دراسـة القرآن عمله ، بل يقرؤه كما يقرأ العبد كتاب مولاه ، الذى كتبه اليه ليتأمله ويعمل بمقتضاه •

ولذلك قال بعض العلماء :

هذا القرآن رسائل أتتنا من قبل ربنا عز وجل بعهوده ، نتدبرها فى الصـلوات ، ونقف عليها فى الخلوات ، وننفذها فى الطـاعات والسنن المتبعات •

(١) المصدر السابق •

وكان مالك بن دينـــار يقول : ما زرع القـــرآن فى قلوبكم يا أهل القرآن ؟ .

أن القرآن ربيع المؤمن ، كما أن الغيث ربيع الأرض .

وقال قتادة : لم يجالس أحد هذا القرآن الا قام بزيادة أو نقصان قال الله تعالى :

(هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين الا خسارا)[1] .

---

(١) أول الآية « ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ... » الآية من سورة الاسراء : ٨٢ .

طوائف النـــاس أمام هداية القـــرآن

الناس أمام هداية القرآن ثلاث طوائف لا رابع لها : طائفة المؤمنين وطائفة الكافرين ، وطائفة المنـافقين • وسنتكلم عن كل طائفة من هـذه الطوائف من خلال الآيات التى تحدثت عنها[١] •

الطائفة الأولى : المؤمنـون :

قال الله تعـالى : (الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصـلاة ومما رزقناهم ينفقون • والذين يؤمنـون بما أنزل اليك وما أنزل من قبـلك وبالآخرة هم يوقنون • أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون) •

معانى المفردات :

قوله تعالى : (الذين يؤمنون بالغيب) •

الايمان فى اللغة : التصديق ، والشرع أقره على ذلك وزاد فيه القول والعمل •

وأصـل الغيب : المكان المطمئن الذى يستتر فيـه لنزوله عما حوله فسمى كل مستتر : غيبا •

قوله تعالى : (ويقيمون الصلاة) •

الصلاة فى اللغة : الدعاء • وفى الشريعة : أفعال وأقوال على صفات مخصوصة والمراد باقامتها تمام فعلها على الوجه المأمور به[٢] •

قوله تعالى : (ومما رزقناهم ينفقون) •

والانفاق هو اخراج المال من اليد — ومنه نفق البيع اذا خرج من يد البائع الى المشترى — ونفقت الدابة — أى خرجت روحها ، ومنه المنافق الذى يخرج من الايمان ، أو يخرج الايمان من قلبـه ، فالمادة تدل على الاخراج والذهاب ، والمراد منـه أعم من الزكاة المفروضة — وقيـل : المفروضة — والأول أولى[٣] •

---

(١) دراسات فى التفسير ص ٥١ •
(٢) زاد المسير فى علم التفسير جـ ١ ص ٢٤ •
(٣) القرطبى جـ ٢٠ ص ١٥٦ •

قوله تعالى : (والذين يؤمنون بما أنزل اليك) ٠

القــرآن

قوله تعالى : (وما أنزل من قبلك) ٠

التوراة والانجيل وغيرها من كتب الله عز وجل[1] ٠

قوله تعالى : (وبالآخرة هم يوقنون) ٠

الآخرة اسم لما بعد الدنيا ، وسميت آخرة ، لأن الدنيا قد تقدمتها . وقيل : سميت آخرة لأنها نهاية الأمر ٠

اليقين : ما حصلت به الثقة وثلج فى الصدر ، وهو أبلغ علم مكتسب ٠

قوله تعالى : (أولئك على هدى من ربهم) ٠

أى على رشاد وقال ابن عباس : على نور واستقامة ٠

قوله تعالى : (وأولئك هم المفلحون) ٠

قال ابن قتيبــة : المفلحون : الفائزون ببقاء الأبد ٠ وأصل الفلاح : البقاء ويشهد لهذا قول لبيد :

نحل بلاداً كلهــا حل قبلنــا ونرجو الفلاح بعد عاد وحمير

يريد البقــاء ٠ وقال الزجاج : المفلح : الفائز بما فيــه غاية صلاح حاله ٠ قال ابن الأنبارى : ومنه حى على الفلاح ، معناه : هلموا الى سبيل الفوز ودخول الجنة[2] ٠

التفسير التحليلى :

مناسبة الآيات لما قبلها :

يتعين أن يكون كلاما متصلا بقوله (للمتقين) على أنه صفة لارداف صفتهم الاجمالية بتفصيل يعرف به المراد ، ويكون مع ذلك مبدأ استطراد لتصنيف أصــناف الناس بحسب اختــلاف أحوالهم فى تلقى الــكتاب المنوه به ٠

وقد أجريت هذه الصفات للثناء على الذين آمنوا بعد الاشراك بأن كان رائدهم الى الايمان هو التقوى والنظر فى العاقبة[3] ٠

(١) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزى الكلبى الغرناطى جـ ١ ص ٦٢ .
(٢) زاد المسير فى علم التفسير جـ ١ ص ٢٧ .
(٣) التحرير والتنوير جـ ١ ص ٢٢٩ .

وكذلك المؤمنين الذين سيأتون فى المستقبل ولم يشاهدوا أنوار النبوة وأحداث الاسلام الأولى .

ولذلك وصف الجميع بقوله: يؤمنون بالغيب أى بعد أن كانوا يكفرون بالبعث والمعاد بالنسبة للفريق الأول كما حكى عنهم القرآن فى آيات كثيرة . ونظرا لعدم الالتقاء بالرسول صلى الله عليه وسلم بالنسبة للفريق الثانى .

وجوز صاحب الكشاف كونه كلاما مستأنفا مبتدأ وكون (أولئك على هدى) خبره .

وقد رد عليه صاحب التحرير والتنوير بقوله :

وعندى أنه تجويز لما لا يليق ، اذ الاستئناف يقتضى الانتقال من غرض الى آخر ، وهو المسمى بالاقتضاب وانما يحسن فى البلاغة اذا أشبع الغرض الأول وأفيض فيه حتى أوعب أو حتى خيفت سآمة السامع ، وذلك موقع أما بعد أو كلمة هذا ونحوهما ، والا كان تقصيرا من الخطيب والمتكلم لاسيما وأسلوب الكتاب أوسع من أسلوب الخطابة لأن الاطالة فى أغراضه أمكن .

قوله تعالى : (الذين يؤمنون بالغيب) .

الايمان فى اللغة التصديق ، وهو افعال من الأمن المتعدى لواحد ، فحقيقته آمن به ، أى أمنه من التكذيب والمخالفة ، لأن المصدق يؤمن المصدق ، أى يجعله أمينا من التكذيب والمخالفة قال تعالى (وما أنت بمؤمن لنا)[1] أى بمصدق .

---

(١) سورة يوسف آية : ١٧ .

يقول الامام الألوسى :

الايمان فى اللغة التصديق أى اذعان حكم المخبر وقبوله وجعله صادقا وهو افعال من الأمن كأن حقيقة آمن به آمنه التكذيب والمخالفة ويتعدى باللام كما فى قوله تعالى : (أنؤمن لك واتبعك الأرذلون) وبالباء كما فى قوله صلى الله عليه وسلم (الايمان أن تؤمن بالله) الحديث •

قالوا : والأول : باعتبار تضمينه معنى الاذعان والثانى باعتبار تضمينه معنى الاعتراف اشارة الى أن التصديق لا يعتبر ما لم يقترن به الاعتراف وقد يطلق بمعنى الوثوق من حيث أن الواثق صار ذا أمن وهو فيه حقيقة عرفية أيضا كما فى الأساس •

وأما فى الشرع فهو التصديق بما علم مجىء النبى صلى الله عليه وسلم به ضرورة ، وتفصيلا فيما علم تفصيلا واجمالا فيما علم اجمالا وهذا مذهب جمهور المحققين[1] •

هذا وقد بين النبى صلى الله عليه وسلم ذلك بقوله : (الايمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ••• الحديث) •

يقول صاحب دراسات فى التفسير :

والمعنى الشرعى لا يخرج عن المعنى اللغوى وقد جرى أسلوب القرآن الكريم على أن الايمان هو التصديق الا أنه تصديق خاص قال تعالى (آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله) •

وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله ، والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا)[2] •

---

(١) راجع تفسير الألوسى ج ١ ص ١١٠ •
(٢) سورة النساء آية : ١٣٦ •

يقول د/أحمد السيد الكومى :

واذن فالايمان فى لسان القرآن هو التصديق بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، فمن أخل بجزئية من جزئياته لا يكون محصلا للايمان وحكمه الخلود فى النار ، ومن حصل هذا التصديق كان جديرا أن يسمى مؤمنا ، وقد اعتبر هذا الايمان منجيا من الخلود فى النار ، ولكنه حيث يذكر طرق النجاة لا يذكر الايمان الا مقرونا بالعمل الصالح[1] .

قال تعالى : (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات انا لا نضيع أجر من أحسن عملا)[2] .

(ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا)[3] .

(والعصر ان الانسان لفى خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر)[4] .

وفى حديث القرآن عن المؤمنين اجتلب فى الاخبار عنهم صيغة المضارع الدالة على التجدد ايذانا بتجدد ايمانهم بالغيب وتجدد اقامتهم للصلاة والاتقان اذ لم يكونوا متصفين بذلك الا بعد أن جاءهم هدى القرآن .

وقوله تعالى (بالغيب) والغيب اما مصدر وصف به الغائب مبالغة كالشهادة فى قوله تعالى (عالم الغيب والشهادة) أى ما غاب عن الحس والعقل غيبة كاملة بحيث لا يدرك لواحد منهما ابتداء بطريق البداهة وهو قسمان :

---

(١) تفسير سورة الفتح ص ٤٩ .
(٢) سورة الكهف آية : ٣٠ .
(٣) سورة الكهف آية : ١٠٧ .
(٤) سورة العصر .

١ ــ قسم لا دليل عليه وهو المراد من قوله تعالى « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو » .

٢ ــ وقسم قامت عليه البراهين كالصانع وصفاته والنبوات وما يتعلق بها من الأحكام والشرائع واليوم الآخر وأحواله من المبعث والنشر والحساب والجزاء وهو المراد هينا .

فالباء صلة للايمان اما بتضمينه معنى الاعتراف أو بجعله مجازاً عن الوثوق ، وهو واقع موقع المفعول به واما مصدر على حاله كالغيبة فالباء متعلقة بمحذوف وقع حالا من الفاعل كما فى قوله تعالى (الذين يخشون ربهم بالغيب) ، أى يؤمنون ملتبسين بالغيبة ، اما عن المؤمن به أى غائبين عن النبى صلى الله عليه وسلم غير مشاهدين لما معه من شواهد النبوة واما عن الناس أى غائبين عن المؤمنين لا كالمنافقين الذين اذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم .

وقيل المراد بالغيب : القلب لأنه مستور والمعنى :

يؤمنون بقلوبهم لا كالذين يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم فالباء حينئذ للآلة .

أما لماذا ترك ذكر المؤمن به على التقادير الثلاثة ؟

فهو ايماء للقصد الى احداث نفس الفعل كما فى قولهم فلان يعطى ويمنع أى يفعلون الايمان واما للاكتفاء بما سيجىء فان الكتب الالهية ناطقة بتفاصيل ما يجب الايمان به[1] .

وعن صلة (الذين يؤمنون بالغيب) بالمتقين فهى اما متصلة بها واما منقطعة عنها .

---

(١) حاشية الصاوى على الجلالين ج ١ ص ١٢ .

يقول الزمخشرى :

(الذين يؤمنــون) اما موصول بالمتقين على أنه مجرور أو منصوب أو مدح مرفوع بتقدير ، أعنى الذين يؤمنون أو هم الذين يؤمنون •

واما منقطع عن المتقين مرفوع على الابتداء مخبر عنه بقوله (أولئك على هدى من ربهم) فاذا كان موصولا كان الوقف على المتقين حسنا غير تام ، واذا كان منقطعا كان وقفا تاما)[1] •

أما لماذا خص بالذكر الايمان بالغيب دون غيره من متعلقات الايمان ؟ فذلك لأن الايمان بالغيب أى ما غاب عن الحس هو الأصل فى اعتقاد امكان ماتخبر به الرسل عن وجود الله والعالم العلوى ، فاذا آمن به المرء تصدى لسماع دعوة الرســل وللنظر فيما يبلغه عن الله تعالى فسهل عليه ادراك الأدلة ، وأما من يعتقد أن ليس وراء عالم الماديات عالم آخر وهو ما وراء الطبيعة فقد راض نفسه على الأعراض عن الدعوة الى الايمان بوجود الله وعالم الآخرة كما كان حال الماديين وهم المسمون بالدهريين الذين قالوا : (ما يهلكنا الا الدهر) وقريب من اعتقادهم اعتقاد المشركين ولذلك عبدوا الأصنام المجســمة ومعظم العرب كانوا يثبتون من الغيب وجود الخالق وبعضهم يثبت الملائكة ولا يؤمنون بسوى ذلك[2] •

وقبل أن ننتقل الى التفســير التحليلى للجملة التالية نحب أن نقدم لمحة عن موقف الفرق الاسلاميــة فى تعريف الايمان بعد أن قدمنا الرأى الذى عليــه جمهور المحققين من علماء الأمة الذين قالوا ان الايمــان هو التصديق لا مسمى له غير ذلك وهو مســماه اللغوى فينبغى ألا ينقل من معناه لأن الأصل عدم النقل وغلب فى لسان الشرعيين على ذلك التصديق •

---

(١) الكشـاف جـ ١ ص ١٢٣ •

(٢) التحرير والتنوير جـ ١ ص ٢٣٠ •

الآراء فى تعريف الايمـــان :

الرأى الثانى[1] :

وقد نقل عن أبى حنيفة ونسبه النووى الى جمهور الفقهاء والمحدثين والمتكلمين ونسبه الفخر الرازى الى الأشعرى واختاره ابن العربى ٠

(الايمان هو الاعتقاد بالقلب والنطق باللســـان بالشهادتين فيكون بذلك مقرا بهذا المعتقد فيجب النطق بهذا الاعتقاد والا لا يعتد به) ٠

واســـتدلوا بقوله تعالى : (فأخرجنا من كان فيها من المؤمنـــين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين) ٠

وفى حديث وفد عبد القيس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لهم : (آمركم بأربع وأنهاكم عن أربع الايمان بالله ٠ أتدرون ما الايمان بالله ؟ ٠ شهادة أن لا اله الا الله ٠ وأن محمد رسول الله واقام الصلاة) الخ ٠

والواقع أن سبب الخلاف هنـــا أن البعض نظر الى المفهوم وهو التصـــديق القلبى والبعض الآخر نظر الى الاعتداد اللفظى وهل الايمان يطلق على الاسلام والعكس فى آيات من القرآن الكريم وأحاديث نبوية شريفة أو هو مغاير فالخلاف هنا نرجحه بأنه لفظى والجميـــع متفق على التصديق القلبى ٠

الرأى الثـــالث :

وهـــذا رأى جمهور الصحابة والتابعين ونسب الى مالك وســـفيان الثورى وابن عيينـــة والأوزاعى وابن جـــريج والحسن وعطاء وطاووس وابن المبـــارك والبخارى وهو أن الايمان (اعتقاد وقول وعمل) واحتجوا

---

(١) ذكرنا كلمة الرأى الثانى على اعتبار ان الرأى الأول هو ما ذكرناه فى التفسير من قبل وهو المعتمد وما يذكر الآن فهو عرض للمفاهيم الأخرى .

بالآية الكريمة (ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم) فأثبتوا الزيادة والنقصان فى الايمان بناء على زيادة الأعمال ونقصها •

ومن أدلتهم فى ذلك : حديث : (الايمان بضع وسبعون شعبة) •

وقول الرسول صلى الله عليــه وسلم : (لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن) •

وبناء على هذا كان حديث (الايمان بضــع وسبعون شعبة) معيارا للتفاضل بين الناس فى الايمان •

والحديث الذى يليــه (لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن) دلالة على أن من يفعل الزنى ليس بكامل الايمان •

وبناء على ذلك الايمان يزيد وينقص •

قال ابن بطال : وهذا لا يخالف قول مالك بأن الايمان هو التصديق وهو لا يزيد ولا ينقص لأن التصديق أول منازل الايمان ويوجب للمصدق الدخول فيــه ولا يوجب له استكمال منازله وانما أراد هؤلاء الأئمة الرد على المرجئة فى قولهم (ان الايمان قول بلا عمل) •

وبصفة عامة فان الكثير من العلماء قد رأوا أن ذلك الرأى هو أقرب الى شرح الايمان الكامل وهذا رأى ليس فيه مخالفة انما الخلاف فى أصل مســمى الايمان ومما يؤيد ذلك بصراحة صريحة قول الامام مالك فى المدونة :

(من اغتسل وقد أجمع على الاسلام بقلبه أجزأه) •

قال ابن رشد : لأن اسلامه بقلبه فلو مات مات مؤمنا •

الرأى الـــرابع :

رأى الخوارج :

ان تارك شيء من الأعمال كافر غير مؤمن وهو خالد فى النار فالأعمال جزء من الايمان يعنون بكلمة الأعمال فعل الواجـبـات وترك المحرمات ولو صغائر فهم يعتبرون جميع الذنوب من الكبائر •

أما ترك المستحبات والمندوبات فان تركها عندهم لا يوجب خلودا فى النار وكذلك فعل المكروهات •

ونقل امام الحرمين عن الاباضية منهم ان تارك بعض الواجبات كافر لكن كفره كفر نعمة لا كفر شرك •

يقول الشيخ محمد الطاهر بن عاشور :

وأما المعتزلة فقد وافقوا الخوارج فى أن للأعمال حظا من الايمان الا أنهم خالفوهم فى مقاديرها ومذاهب المعتزلة فى هذا الموضع غير منضبطة فقال قدماؤهم :

ان العاصى يخلد فى النار لكنه لا يوصف بالكفر ولا الايمان ووصفوه بالفســـق وجعلوا استحقاق الخلود لارتكاب الكبيرة وكذلك نسب اليهم ابن حزم فى كتاب الفصل •

وقال واصل بن عطاء الغزال ان مرتكب الكبيرة منزلة بين المنزلتين أى لا يوصف بايمان ولا كفر فيفارق بذلك قول الخوارج وقول المرجئة ووافقه عمرو بن عبيد على ذلك •

لكنهم اضطربوا أو اضطرب النقل عنهم فى مسمى المنزلة بين المنزلتين الى عدة آراء :

فقال امام الحرمين فى **الاشارة** : ان جمهورهم قالوا : ان الكبيرة تحبط ثواب الطاعات وان كثرت ، ومعناه لا محالة أنها توجب الخلود فى النار •

وبذلك جزم التفتازانى فى شرح الكشاف والمقاصد ٠

وانما أثبتوا المنزلة لعدم اطلاق اسم الكفر ولاجراء أحكام المؤمنين على صاحبها فى ظاهر الحال فى الدنيا بحيث لا يعتبر مرتكب المعصية كالمرتد فيقتل ٠

ونقل ابن حزم فى الفصل عن جماعة منهم فيهم بشر المريسى والأصم أن من استوت حسناته وسيئاته فهو من أهل الأعراف ولهم وقفة لايدخلون النار مدة ثم يدخلون الجنة ، ومن رجحت سيئاته فهو مجازى بقدر ما رجح له من ذنوب فمن لفحة واحدة الى بقاء خمسين ألف سنة فى النار ثم يخرجون منها بالشفاعة ، وهذا يقتضى أن هؤلاء لا يرون الخلود ٠

وقال فى المقاصد ومثله فى الارشاد المختار عندهم خلاف المشتهر فان أبا على وابنه وكثيرا من المحققين عندهم ومتأخريهم قالوا : ان الكبائر انما توجب دخول النار اذا زاد عقابها على ثواب الطاعات فان أربت الطاعات على السيئات درأت السيئات وليس النظر الى أعداد الطاعات والزلات وانما النظر الى مقدار الأجور والأوزار فرب كبيرة واحدة يغلب وزرها طاعات كثيرة العدد ولا سبيل الى ضبط هذه المقادير فأمرها موكول الى علم الله تعالى ٠

وقد قرر صاحب الكشاف حقيقة المنزلة بين المنزلتين بكلام مجمل فقال :

الفاسق فى الشريعة الخارج عن أمر الله بارتكاب الكبيرة وهو النازل بين المنزلتين أى بين منزلتى المؤمن والكافر ٠ فتراه هنا لم يذكر أنه خالد فى النار ٠

وصرح فى قوله تعالى : (ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها) فى سورة النساء بما يعمم خلود أهل الكبائر دون توبة فى النار ٠

وعلى العموم فان المسلم انما هو مسلم فرارا من الخلود فى النار فكيف يكون ارتكاب بعض المعاصى موجبا لانتقاص فائدة الاسلام وبئس منكرا من القول سواء من المعتزلة أو الخوارج وهذا مما يجرىء العصاة على نقض عرى الدين اذ يخرج عنه المسلمون لانعدام الفائدة التى أسلموا لأجلها بحكم (أنا الغريق فما خوفى من البلل) ومن العجيب أن يصدر هذا القول عن عاقل فضلا عن عالم .

الرأى الخامس :

الايمان الاقرار باللسان اذا لم يخالف الاعتقاد القول فلا يشترط فى مسمى الايمان شىء من المعرفة والتصديق ، فأما اذا كان يعتقد خلاف مقاله بطل ايمانه وهذا يرجع الى الاعتداد بايمان من نطق بالشهادتين وان لم يشغل عقله باعتقاد مدلولهما بل يكتفى منه بأنه لا يضمر خلاف مدلولهما .

وهذا الرأى يتهافت للوهلة الأولى والأولى هو الرأى الأول .

يقول الامام الألوسى :

لاشك أن المقر باللسان وحده يسمى مؤمنا لغة لقيام دليل الايمان الذى هو التصديق القلبى فيه كما يطلق الغضبان والفرحان على سبيل الحقيقة لقيام الدلائل عليها من الآثار اللازمة للغضب والفرح ويجرى عليه أحكام الايمان ظاهرا ، ولا نزاع فى ذلك وانما النزاع فى كونه مؤمنا عند الله تعالى ، والنبى صلى الله عليه وسلم ومن بعده كما كانوا يحكمون بايمان من تكلم بالشهادتين كانوا يحكمون بكفر المنافق فدل على أنه لا يكفى فى الايمان فعل اللسان .

قوله تعالى : (ويقيمون الصلاة) .

الصـــلاة فى اللغة : الدعاء وفى الشريعة : أفعال وأقوال على صفات مخصوصة •

وفى تسميتها بالصلاة ثلاثة أقوال :

أحـــدها : أنها سميت بذلك لرفع الصـــلاة • وهو مغرز الذنب من الفرس •

الثـــانى : أنها من صليت العود اذا لينته فالمصلى يلين ويخشع •

الثالث : أنها مبنية على السؤال والدعاء • والصلاة فى اللغة : الدعاء، وهى فى هذا المكان اسم جنس •

قال مقاتل : أراد بها هاهنا : الصلوات الخمس •

وفى معنى اقامتها ثلاثة أقوال :

أحـــدها : أنه تمام فعلها على الوجه المأمور به ، روى عن ابن عباس ومجاهد •

الثـــانى : أنه المحافظة على مواقيتها ووضوئها وركوعها وسجودها . قاله قتادة ومقاتل •

الثـــالث : ادامتها ، والعرب تقول فى الشىء الراتب : قائم ، وفـــلان يقيم أرزاق الجند قاله ابن كيسان[1] •

اذن فمعنى (يقيمون الصلاة) هنا :

يعدلون أركانهـــا بأن يوقعوها مستجمعة للفرائض والواجبـــات أو للفرائض مع الآداب والسنن من قولهم : أقمت العود أى جعلته مستقيما غـــير معوج • ولا شـــك أن ترك بعض آداب الصـــلاة وسننها نوع من العوج •

---

(١) انظر زاد المسير فى علم التفسير ج ١ ص ٢٥ •

أو يواظبــون عليها ويداومون من قامت الســوق اذا نفقت ونفذ ما فيها من بضاعة باعتبار أن المصلى حريص على أداء الصلاة والاستمرار عليها كاستمرار المشترى للبضاعة الرائجة التى تنفق السوق بخلائها .

أو معنى (يقيمون) يتشمرون لآدائهــا بلا فترة عنها ولا توان من من قولهم قام بالأمر[1] .

وأقامه اذا جد فيه .

و (الصــلاة) :

فعلة من صلى كالزكاة من زكى وحقيقة صلى لغة أى حرك الصلوين أى الاليتين .

وهى شرعا أقوال وأفعال مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم بنية .

والعلاقة بين المعنى اللغوى والمعنى الشرعى أن المصلى يحرك صلويه فى ركوعه وسجوده .

وجاءت الصلاة فى اللغة أيضا بمعنى الدعاء .

والعلاقة بينه وبين المعنى الشرعى أن المصــلى يكون خاشعا متذللا طالبا للرحمة والمغفرة من الله تعالى فهو دعاء .

وسمى الداعى مصليا تشبيها له فى تخشعه بالراكع والساجد .

وعبر بالمضــارع اشارة الى دوام وتجدد هذه الصلاة واستمرارها وهذا شأن المتقين حيث لا تنقطع مناجاتهم لربهم بصلاتهم ، ويحظون فيها بالقرب منه ، والوقوف بين يديه ، يخصونه بالعبادة ، ويطلبون منه العون والهداية .

---

(١) راجع تفسير الالوسى وانظر المنتخب فى التفسير .

والمراد بالصلاة هنا : الصلاة المفروضة .

وقيل : الفرائض والنوافل .

والرأى الأول أولى وأرجح لأنه الذى يتوقف عليه الفلاح حين بين الرسول صلى الله عليه وسلم للأعرابى السائل عن الصلوات الخمس ، قال الأعرابى : (والله لا أزيد عليها ولا أنقص) فقال صلى الله عليه وسلم (أفلح ان صدق) فرتب الفلاح على أدائه الفرائض .

وقدم الايمــان بالغيب على اقامة الصــلاة تعظيما لعمل القلب ، واعتدادا بشرطية الايمان فى صحة أعمال الجوارح .

وقدم اقامة الصلاة على الانفاق ، لأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ولأنها تتكرر فى اليوم خمس مرات ، لأنها صلة بين العبد وربه ، والانفاق يدخل فيــه صلته بالناس ، ولأن مشروعياتها كانت سابقة على مشروعية الزكاة .

قوله تعالى : (ومما رزقناهم ينفقون) .

صلة ثالثــة فى وصف المتقين مما يحقق معنى التقوى وصدق الايمان من بذل عزيز على النفس فى مرضاة الله ، لأن الايمان لما كان مقره القلب ومترجمه اللسان كان محتاجا الى دلائل صدق صاحبه وهى عظائم الأعمال، من ذلك التزام آثاره فى الغيبة الدالة عليه (الذين يؤمنون بالغيب) ومن ذلك اقامة الصلاة وملازمة فعلها لأنها دليل على تذكر المؤمن من آمن به ، ومن ذلك السخاء ببذل المال للفقراء امتثالا لأمر الله بذلك[1] .

و (رزقناهم) مشــتق من الرزق بالفتــح وهو الاعطاء لما ينتفع الحيوان به وهو بالكسر اسم لما يرزقه الحيوان .

---

(١) التحرير والتنوير جـ ١ ص ٢٣٤ .

وعند الأشاعرة يقصد به : ما ساقه الله تعالى الى الحيوان فانتفع به سواء كان حلالا أو حراما من المطعومات أو المشروبات أو الملبوسات أو غير ذلك •

والمعتزلة فسروه فى المشهور تارة : بما أعطاه الله تعالى عبده ومكنه من التصرف فيه ، وتارة : بما أعطاه الله تعالى لقوامه وبقائه خاصة ولما كانت الاضافة الى الله معتبرة فى معناه وأنه لا رازق الا الله تعالى وأن القبيح عندهم لا يصح نسبته الى الله تعالى قالوا :

ان الحرام ليس برزق •

ومذهبهم هذا مردود اذ الكل منه واليه والذم والعقاب لسوء مباشرة الأسباب بالاختيار •

وان كان الأدب هو الطبيعة المتوقعة للمؤمن فلا ينبغى أن ينسب اليه الا الأفضل ، الا أنه من القبيح أن نتصور أن أحدا ممكن أن يخلق شيئا ويوجده من العدم ساء ذلك الشىء أم حسن •

والدليل على نسبة الرزق بنوعيه اليه سبحانه تعالى كما ذكره الألوسى والفخر الرازى ما أخرجه ابن ماجة من حديث صفوان ابن أمية قال :

جاء عمرو بن قرة فقال : يا رسول الله ان الله كتب على الشقوة فلا أرانى أرزق الا من دفى بكفى فأذن لى فى الغنى من غير فاحشة •

فقال صلى الله عليه وسلم : (لا اذن لك ولا كرامة ولا نعمة كذبت أى عدو الله لقد رزقك الله تعالى حلالا طيبا فاخترت ما حرم الله تعالى عليك من رزقه مكان ما أحل الله لك من حلاله)[1] •

---

(١) الألوسى جـ ١ ص ١١٧ •

والشاهد في هذا الحديث قوله صلوات الله وسلامه عليه (فاخترت ما حرم الله عليك من رزقه • حيث أضاف رسول الله صلى الله عليه وسلم الرزق بنوعيه الى الله تعالى •

و (من) : في قوله تعالى (ومما رزقناهم) للتبعيض •

و (ما) : اسم موصول •

وكون من للتبعيض اشـــارة الى أن الله لا يريد من عبده أن ينفق كل ما معه • بل المطلوب انفاق بعضه •

وهل قوله تعالى : (ومما رزقناهم ينفقون) يراد به الزكاة المفروضه باعتبار ذكره عقب قوله (ويقيمون الصلاة) أم انه ثناء على المتقين بالانفاق مطلقا فرضا كان أم نفلا ؟ •

أرجح الأقوال أنه ثناء عليهم بفعل الأمرين معا •

وفي الثناء على المتقين بانفاقهم من بعض ما رزقهم الله ملائمة لفطرة الانسان المجبـــولة على حب المال والحرص عليه وبالرغم من أن المال مال الله وهو الذي يتفضل به لكنه سبحانه وتعالى أوجد في القلب شدة التعلق به مما يؤدي الى حفظه • لأنه عصب الحيـــاة ، فكان الاعتدال في انفاقه دليـــلا على استقامة النفوس ، والاسراف في انفاقه دليل على انحرافها ، والوسط في كل شيء هو الملائم للفطرة •

قال تعـــالى : (والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما) •

وفي اسناد الرزق اليـــه بنون العظمة بيان لقدرته وحده على الرزق وأنه ان أمسك رزقه عن المرزوقين فلن يأتي به أحد ، قال تعالى :

(أمن هذا الذي يرزقكم ان أمسك رزقه بل لجوا في عتو ونفور) •

وكما أن فى اسـناد الرزق اليه سبحانه وتعالى ، تهذيبـا لنفوس المنفقين ليعلموا أن الفضل فيما أنفقوا اليه لا لهم فلا يغترون بأعمالهم •

و (الانفاق) :

الانفاد يقال : أنفقت الشىء وأنفدته بمعنى • والهمزة للتعدية •

وأصل المادة فى اللغة تدل على الذهاب والخروج ومنه نافق والنافقاء، والنفق ، والمراد : اخراج المال وصرفه •

والمعنى : أن المتقين ينفقون بعض ما يحبون ويخرجونه من أيديهم مع تعلق نفوسهم به • ايثارا لما أحبه الله وطلبا لمرضاته وعبر بالمضارع اشارة الى دوام سخائهم ورغبتهم فى الانفاق مما رزقهم الله •

وفى قوله تعالى (ومما) بيـان لعموم انفاق المتقين من أموالهم ومن علمهم ومن جاههم •

وفى قوله تعالى (ينفقون) دون تحديد وجوه الانفاق وأنواعه بيان لمسارعتهم فى كل الخيرات فهو شامل للنفقة على العيال وفى الجهاد وعلى المساكين وعلى النفقة على العلم وغير ذلك •

وجاءت الآية على هذا النحو من الترتيب لغرض هام ذكره الألوسى فقال :

ان الأعمـال اما قلبيـة وأعظمها اعتقاد حقيقة التوحيـد والنبوة والمعاد ، اذ لولاه كانت الأعمال كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء •

أو قالبيـة : وأصلها الصلاة لأنها الفارقة بين الكفر والاسلام وهى عمود ومعراج الموحدين • والأم التى يتشعب منها سائر الخيرات ولهذا قال صلى الله عليه وسلم (وجعلت قرة عينى فى الصلاة) وقد أطلق الله تعالى عليها الايمان كما قاله جمع من المفسرين فى قوله تعالى : (وما كان الله ليضيع ايمانكم) •

أو مالية :

وهى الانفاق لوجه الله تعالى ، وهى التى اذا وجـدت علم الثبات على الايمان •

وهذه الثلاثة متفاوتة الرتب •

فرتب سبحانه وتعالى ذلك مقدما الأهم فالأهم والألزم فالألزم لأن الايمان لازم للمكلف فى كل آن ، والصلاة فى أكثر الأوقات ، والنفقة فى بعض الحالات فافهم والله يتولى هداك[1] •

قوله تعالى : (والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك) :

قال ابن عباس : والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك أى يصدقون بما جئت به من الله وما جاء به من قبلك من المرسلين لا يفرقون بينهم ولا يجحدون ما جاءوهم به من ربهم •

وقد اختلف المفسرون فى الموصوفين هنا :

هل هم الموصـوفون بما تقدم من قوله تعالى : (الذين يؤمنـون ويقيمون الصـلاة ومما رزقناهم ينفقون) ومن هم : على ثلاثة أقوال حكاها الطبرى :

أحدها : أن الموصوفين أولا هم الموصوفون ثانيا ، وهم كل مؤمن ، مؤمنوا العرب ومؤمنوا أهل الكتاب وغيرهم •

قاله : مجاهد وأبو العالية والربيع بن أنس وقتادة •

الثـانى : هما واحد وهم مؤمنوا أهل الكتاب وعلى هذين تكون الواو عاطفة كما قال تعالى (سبح اسم ربك الأعلى الذى خلق فسوى والذى قدر فهـدى ، والذى أخرج المرعى ، فجعله غثـاء أحوى) وكمـا قال الشاعر :

---

(١) راجع تفسير الألوسى جـ ١ ص ١١٩ وتفسير الطبرى جـ ١ ص ٨٣ وتفسير الفخر الرازى جـ ١ ص ١٧١ والمنتخب فى التفسير ص ٥٥ •

الى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتيبة فى المزدحم

فعطف الصفات بعضها على بعض والموصوف واحد .

الثالث : أن الموصوفين أولا مؤمنوا العرب ، والموصوفون ثانيا بقوله (والذين يؤمنون بما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون) لمؤمنى أهل الكتاب .

نقله السدى فى تفسيره عن ابن عباس وابن مسعود وأناس من الصحابة ، واختاره ابن جرير رحمه الله ويستشهد لما قال بقوله تعالى :

(وان من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل اليكم وما أنزل اليهم خاشعين لله) . وبقوله تعالى : (الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون ، واذا يتلى عليهم قالوا آمنا به انه الحق من ربنا انا كنا من قبله مسلمين أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون) ٢ .

وبما ثبت فى الصحيحين : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بى ، ورجل مملوك أدى حق الله وحق مواليه ، ورجل أدب جريته فأحسن تأديبها ثم أعتقها وتزوجها) .

يقول ابن كثير :

وأما ابن جرير فما استشهد على صحة ما قال الا بمناسبة وهى أن الله وصف فى أول هذه السورة المؤمنين والكافرين ، فكما أنه صنف الكافرين الى صنفين كافر ومؤمن ، فكذلك المؤمنون صنفهم الى صنفين عربى وكتابى .

(قلت) والظاهر قول مجاهد : أربع آيات من أول سورة البقرة فى نعت المؤمنين وآيتان فى نعت الكافرين وثلاثة عشر فى المنافقين فهذه

الآيات الأربع عامات فى كل مؤمن اتصف بها من عربى وعجمى وكتابى من انسى وجنى ، وليس تصح واحدة من هذه الصفات بدون الأخرى بل كل واحدة مستلزمة للأخرى وشرط معها فلا يصح الايمان بالغيب واقام الصلاة والزكاة الا مع الايمان بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، وما جاء به من قبله من الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين والايقان بالآخرة كما أن هذا لا يصـــح الا بذلك ، وقد أمر الله المؤمنين بذلك كما قال :

« يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل » الآية •

(ولا تجادلوا أهــل الكتاب الا بالتى هى أحسن الا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذى أنزل الينا وأنزل اليكم والهنا والهكم واحد) الآية •

(يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم) •

(قل يا أهل الكتاب لستم على شىء حتى تقيموا التوراة والانجيل وما أنزل اليكم من ربكم) •

وأخبر تعالى عن المؤمنين كلهم بذلك فقال تعالى :

(آمن الرســـول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنـــون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله) •

(والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم) •

الى غير ذلك من الآيات الدالة على أمر جميع المؤمنين بالايمان بالله ورسله وكتبه ، لكن لمؤمنى أهل الكتاب خصوصية ، وذلك أنهم يؤمنون بما بأيديهم مفصـــلا فاذا دخلوا فى الاسلام وآمنوا به مفصلا كان لهم على ذلك الأجر مرتين وأما غيرهم فانما يحصل له الايمان بما تقدم مجملا كما جاء فى الصحيح :

(اذا حدثكم أهل الكتاب فلا تكذبوهم ولا تصدقوهم ولكن قولوا : آمنا بالذى أنزل الينا وأنزل اليكم) •

ولكن قد يكون ايمان كثير من العرب بالاسلام الذى بعث به سيدنا محمد صلى الله عليـــه وسلم أتم وأكمل وأعم وأشمل من ايمان من دخل منهم فى الاســـلام ، فهم وان حصل لهم أجران من تلك الحيثية فغيرهم يحصل له من التصديق ما ينيف ثوابه على الأجرين اللذين حصلا لهم •

والانزال فى اللغة :

الايصال والابلاغ والمراد بقوله (بما أنزل اليك) القرآن • وانما عبــر عنه بلفظ الماضى — وان كان بعضه مترقبا — تغليبا للموجود على ما لم يوجد •

وبقوله : (وما أنزل من قبــلك) الكتب الالهية السابقة التى أنزلها الله على أنبيائه كموسى وعيسى وداود عليهم السلام وهذا كقوله تعالى :

(يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله ، والكتاب الذى نزل على رسوله ، والكتاب الذى أنزل من قبل)[1] •

والايمان بما أنزل على الرسول صلى الله عليه وسلم يستلزم الايمان برسالته ويستوجب العمل بما تضمنته الشريعة •

وايجاب العمل بما تضمنه القرآن الذى أنزله الله على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم باق على اطلاقه • أما الكتب السماوية فيكفى الايمان بأنها كانت وحيا وهداية ، وقد تضمن القرآن الكريم ما اشتملت عليه هذه الكتب من هدايات وأصبح بنزوله مهيمنا عليها ، قال تعالى :

(ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء) •

---

(١) سورة النساء آية : ١٣٦ •

وصار من المحتم على كل عاقل أن يعمل بما جاء به القــرآن من توجيهات ·

وقدم الايمان بما أنزل عليه على الايمان بما أنزل على الذين من قبله مع أن الترتيب يقتضى العكس لأن ايمانهم بما قبله لا قيمة له الا اذا آمنوا بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ·

ولم يقل : ويؤمنون بما أنزل من قبلك بتكرير يؤمنون ، للاشعار بأن الايمان به وبهم واحد لا تغاير فيه وان تعدد متعلقه[1] ·

قوله تعالى : (وبالآخرة هم يوقنون) :

(الآخرة) : تأنيث الآخر الذى هو ضد الأول ويقابلها الأولى ·

والآخر اسم لكل ما يأتى متأخرا ، ثم سميت بها الدار الآخرة مقابل دار الدنيا تغليبا ·

وفى تقديم الجار والمجرور فى قوله (وبالآخرة) ، على قوله (هم يوقنون) ، وذكر ضمير الموقنين مرتين زيادة مدح لهم وتعريض بمن لم يؤمن من أهل الكتاب ، وأن اعتقادهم فى أمر الآخرة غير مطابق ولا صادر عن ايقان ·

و (يوقنون) من الايقان وهو الاعتقاد الجازم المطابق للواقع بحيث لا يطرأ عليه شك ، ولا يحوم حوله شبهة ·

يقال : يقن الماء ، اذا سكن وظهر ما تحته ·

والمعنى:وبالدار الآخرة وما فيها من بعث وحساب وثواب وعقاب هم يوقنون ايقانا قطعيا لا أثر فيه للادعاءات الكاذبة والأوهام الباطلة ·

ولا شــك أن الايمان باليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب له أثر عظيم فى فعل الخيرات ، واجتناب المنكرات ، لأن من أدرك أن هناك يوما

---

(١) راجع التفسير الوسيط ص ٤٩ ·

سيحاسب فيــه على عمله ، فانه من شأنه أن يسلك الطريق القويم الذى يكسبه رضى الله يوم يلقاه[١] .

قال أبو حيان :

وذكر لفظة (هم) فى قوله : (وبالآخرة هم يوقنون) ولم يذكرها فى قوله : (ومما رزقنــاهم ينفقون) لأن وصف ايقانهم بالآخرة أعلى من وصفهم بالانفاق فاحتاج هذا الى التوكيد ولم يحتج ذلك الى تأكيد ولأنه لو ذكرهم هناك لكان فيه قلق لفظى ، اذ يكون التركيب (ومما رزقناهم هم ينفقون)[٢] .

وغاير ســبحانه بين الايمان بالمنزل والايمان بالآخــرة ، فلم يقل : وبالآخرة هم يؤمنــون دفعا لكلفة التكرار ، أو لكثرة غرائب متعلقات الآخرة وماأعد فيها من الثواب والعقاب وتفصيل أنواع التنعيم والتعذيب ، ونشأة أصحابهما على خلاف النشأة الدنيوية الى غير ذلك مما هو أغرب من الايمان بالكتاب المنزل حتى أنكره كثير من الناس ، فناسب أن يقرن هذا الأمر المهم الغريب الذى حارت عقول الكثيرين فى اثبــاته وتهافتوا على انكاره بالايقان وفى هذا اظهارا لكمال المدح وابداء لغاية الثناء[٣] .

قوله تعالى : (أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون) :

(أولئــك) اشارة الى المتقين الذين حكى الله خصالهم الحميدة فى الآيتين السابقتين ، واذا قطعت الذين يؤمنون بالغيب عن المتقين وجعلتها مبتدأ كان قوله : (أولئــك على هدى من ربهم) فى موقع الخبــر ، واذا جعلت (الذين يؤمنــون بالغيب) صفة للمتقين كانت جملة (أولئك على هدى من ربهم) استئنافية لا محل لها من الاعراب وجملة (أولئك) على

---

(١) راجع التفسير الوسيط ص ٥٠ .
(٢) البحر المحيط ج ١ ص ٤٢ .
(٣) راجع تفسير الالوسى ج ١ ص ١٢٣ .

كلا التقديرين : شـــهادة من الله تبارك وتعالى للمتقين بأنهم على الهدى وأن من عداهم على الضلالة وأعظم بها من شهادة •

هذا كله اذا حصلت الآيتين السابقتين بيانا لأوصاف المتقين ، فأما اذا جعلت للعطف فى قوله (والذين يؤمنون بما أنزل اليك) للمغايرة وأن المراد بهم مؤمنوا أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأضرابه • فهو مبتدأ وخبـــره جملة (أولئك على هدى من ربهم) وما عطف عليـــه ، ويكون اختصاصهم بالهدى والفلاح تعريضا بأهل الكتاب الذين لا يؤمنون بنبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم ظانون أنهم على الهدى وطامعون أنهم ينالون الفلاح عند الله •

وعبر عن المتقين أو عن مؤمنى أهل الكتاب بـ (أولئك) للدلالة على أنهم يتميزون بذلك أكمل تمييز منتظمون بسببه فى سلك الأمور المشاهدة •

وما فى أولئك من معنى البعد للاشعار بعلو درجتهم وبعد منزلتهم فى الفضل •

وايراد كلمة (على) التى هى للاستعلاء لتمثيل حالهم فى ملابستهم للهدى بحال من يعلو الشىء ويستولى عليه بحيث يتصرف فيه كيفما يريد ففيها استعارة تمثيليـــة أو هى استعارة تبعية تشبيهـــا لتمسكهم بالهدى وارتباطهم به وتمكنهم فيه باستواء الراكب على مركوبه وتمكنه منه •

ونكر (هدى) لكمال تفخيمه أى أنه هدى لا يبلغ كنهه ولا يقادر قدره ثم زاد فى تعظيم هذا الهدى قوله تعالى : (من ربهم) لأنه حينئذ هدى لا يشوبه ضـــلال : اذ الرب متولى من يربيه بأنواع الكمالات التى يكون بها المربى على تمام الهداية والتوفيق •

وفى اضافة الرب الى هؤلاء المتقين مع أنه رب العالمين لمزيد اختصاص المتقين بمزيد عنايتهم بهم وهدايتـــه لهم وشهادة لهم بنيل الحظوة وكأن من عداهم لا التفات اليه •

وكرر اسم الاشارة لاظهار مزيد العناية بشأن المشار اليهم وللتنبيه على أن اتصافهم بتلك الصفات يقتضى فوزهم بالهدى وفوزهم بالفلاح فى الدنيا والآخرة وأن كلا من الفلاح والهدى كاف فى تميزهم عمن عداهم ولذلك وسط العاطف بين الجملتين نبيان أن الهدى شىء برأسه ظهرت آثاره فى المتقين وان اصابة الفلاح مختصة بهم •

و (هم) ضمير فصل ، وفائدته الدلالة على أن الوارد بعده خبر لما قبله لا صفة وتأكيد أن المسند ثابت للمسند اليه لا غيره •

والمعنى : أن الفلاح مختص بهؤلاء لا يتعداهم الى غيرهم فهم الظافرون بما طلبوا الناجون مما منه هربوا •

والفلاح والفلح : معناه الشق والقطع أو هو درك البغية •

والمعنى على الأول أن هؤلاء المتقين : هم الذين قطعوا الطريق الى ربهم بأمان وتغلبوا على الشهوات •

وعلى الثانى : فهم الفائزون فى الدنيا والآخرة الواصلون لمبتغاهم من رضا ربهم عليهم والنظر الى وجهه الكريم •

والمفلح : هو الفائز بالبغية •

يقول الامام النسفى فى تفسير هذه الآية :

فانظر كيف قرر الله عز وجل التنبيه على اختصاص المتقين بنيل ما لا يناله أحد على طرق شىء، وهى ذكر اسم الاشارة وتكريره ففيه تنبيه على أنهم كما ثبت لهم الأثرة بالهدى فهى ثابتة لهم بالفلاح وتعريف المفلحون ففيه دلالة على أن المتقين هم الناس الذين بلغك أنهم يفلحون فى الآخرة كما اذا بلغك أن انسانا قد تاب من أهل بلدك فاستخبرت من هو فقيل : زيد التائب أى هو الذى أخبرت بتوبته • وتوسيط الفصل بينه

وبين أولئك ليبصرك مراتبهم ويرغبك فى طلب ما طلبوا وينشطك لتقديم ما قدموا)[1]

فقــه الآيات

ان من فقه الآيات أن نبين بتوفيق الله تعالى أثر ونتيجة الثناء على الكتاب ومتقلديه ووصف هديه وأثر ذلك الهدى فى الذين اهتدوا به والثناء عليهم فى تكوين شخصية المسلم وهذا هو الدافع عندنا ، فمن هنا نكتفى بما أوردناه فى معنى الآيات وننطلق فى بيان الآثار والنتــائج التى تتمثل فى تكوين جوهر الشخصية الاسلامية من حيث :

اسلام الوجه لله :

ان كلمة الاسلام معناها اللغوى والشرعى : هى الدليل الهادى لنا الى التعريف بشخصية المســلم ، ذلك أننا حينما نتحدث عن (شخصية المســلم) فاننا لا نتحدث عن فطرة وطبــع ، وانما نتحــدث عن طابع مكتسب ، وهذا الطابع هو الطابع الاسلامى المبنى على القرآن والسنة •

وما دام الأمر كذلك فانه لا مناص من الحديث عن الاسلام •

ولقد كان الامام البخارى رضى الله عنه ، متابعا للقرآن مســتدلا به حينما فرق بين :

١ ـ الاسلام اذا لم يكن على الحقيقة •

٢ ـ الاسلام اذا كان على الحقيقة •

فاذا لم يكن الاسلام على الحقيقة وكان على الاستسلام أو الخوف من القتل فهو الذى يؤخذ من قول الله تعالى :

(قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا) •

---

(١) تفسير النسفى جـ ١ ص ١٥ .

أما اذا كان على الحقيقة فهو على قوله جل ذكره :

(ان الدين عند الله الاسلام) •

وعلى قوله سبحانه : (ومن يتبع غير الاسلام دينا فلن يقبل منه) •

ولسنا هنا بصدد الاسلام اذا لم يكن على الحقيقة،وانما نحن بصدد الاسلام الذى يقول عنه الراغب الأصفهانى انه (فوق الايمان) وهو أن يكون مع الاعتراف اعتقاد بالقلب ، ووفاء بالفعل ، واستسلام لله فى جميع ما قضى ودبر ، كما ذكر عن سيدنا ابراهيم عليه السلام فى قوله :

(اذ قال له ربه : أسلم • قال : أسلمت لرب العالمين) •

وقوله تعالى :

(ان الدين عند الله الاسلام) •

وقوله : (توفنى مسلما) •

أى : اجعلنى ممن استسلم لرضاك : ويجوز أن يكون معناه اجعلنى سالما عن أسر الشيطان حيث قال : (لأغوينهم أجمعين الا عبادك منهم المخلصين) •

وقوله : (ان تسمع الا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون) •

أى منقادون للحق مذعنون له •

(يحكم بها النبيون الذين أسلموا) •

أى الذين انقادوا من الأنبياء الذين ليسوا من أولى العزم لأولى العزم من الرسل الذين يهتدون بأمر الله ويأتون بالشرائع[1] .

---

(١) مفردات الراغب الأصفهانى .

وهذا المعنى الذى ذكره صاحب المفردات يرتبط ارتباطا وثيقا بالمعنى اللغوى لكلمة (اسلام) •

يقول ابن الأنبارى : المسلم معناه المخلص لله فى عبادته من قولهم سلم الشىء لفلان خلص له فالاسلام معناه : اخلاص الدين والعقيدة لله تعالى •

ولقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الاسلام ما هو ؟ •

فقال : أن يسلم لله وجهك وأن يسلم المسلمون من لسانك ويدك[1] •

مما سبق نجد أن لفظ (اسلام) لا يشير :

١ — الى شخص معين كما تشير البوذية الى بوذا مثلا •

٢ — ولا الى شعب معين كما تشير اليهودية الى شعب بذاته •

٣ — ولا الى اقليم أو بلد معين كما تشير النصرانية •

٤ — لا تشير الى زمن يحدها أو مكان تتقيد به •

ان هذه الكلمة تضعنا مباشرة فى جو عالمى مطلق انها لا تحد بالبعثة المحمدية •

فسيدنا نوح عليه السلام يقول لقومه :

(فان توليتم فما سألتكم من أجر ان أجرى الا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين) •

وسيدنا ابراهيم يقول عنه القرآن :

(ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين) •

وحينما حضر سيدنا يعقوب الموت قال لبنيه مستفسرا :

(ما تعبدون من بعدى ؟ •

---

(١) انظر الفخر الرازى جـ ٢ ص ٤٢٣ المطبعة الخيرية سنة ١٣١٨ •

قالوا :

نعبد الهك ، واله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحاق الها واحدا ونحن له مسلمون) •

هذا على سبيل المثال وليس الحصر •

على أن تسمية أتباع الدين الاسلامى فى العصر الحاضر بالمسلمين كانت تسمية سابقة على وجودهم الزمنى ، فلقد بين الله سبحانه فى آية من القرآن بعض جوانب الرسالة الملقاة على عاتق الأمة الاسلامية ، وهى آية من آيات التوجيه الالهى الذى يجب أن يكون شعار كل مسلم يقول تعالى :

(وجاهدوا فى الله حق جهاده ، هو اجتباكم ، وما جعل عليكم فى الدين من حرج ، ملة أبيكم ابراهيم ، هو سماكم المسلمين من قبل ، وفى هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم ، وتكونوا شهداء على الناس : فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير) •

ومن البديهى أن يكون (الاسلام) بهذه المكانة من العموم والشمول فى المكان ، ومن عدم التحديد بالبعثة المحمدية : فان أساسه لا يختلف فيه اثنان وان مبادئه الجوهرية حينما تعرض على النفوس المخلصة لا تجد الا القبول والاذعان •

والآيات الكريمة التى سبق أن فسرناها موجهة موحية :

والقرآن يعرض الاسلام فى أساسه وجوهره فى كلمات قليلة لا مناص من الايمان بها عندما يوجد الاخلاص ، يقول تعالى آمرا رسوله الكريم :

(قل : انما يوحى الى أنما الهكم اله واحد فهل أنتم مسلمون) •

ويأمره — صلى الله عليه وسلم — فى خطابه مع أهل الكتاب أن يقول لهم :

(قل : يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ، ولا نشرك به شيئا : ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فان تولوا : فقولوا : اشهدوا بأنا مسلمون) .

ويبين لهم الله سبحانه احدى علامات الصادقين والمرسلين مفرقا بهذه المناسبة بين الكفر والإيمان فيقول :

(ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ، ثم يقول للناس كونوا عبادا لى من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا ، أيأمركم بالكفر بعد اذ أنتم مسلمون) .

ويبين الله فى شمول عام فى صورة استفهام تقريرى ، جوهر التدين فيقول سبحانه :

(ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن) .

ومن هذه الآيات السابقة نعرف أن جوهر الاسلام هو :

١ — فى العقيدة : اسلام الوجه لله ومعنى اسلام الوجه لله الايمان بوحدانيته كما ترشد اليه الآية السابق تفسيرها ووحدانيته سبحانه تقتضى (ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا) .

انها تقتضى ألا نتخذ (الملائكة والنبيين أربابا) .

وتقتضى أن نكون ربانيين : والربانية فى العقيدة أن يكون الله وحده هو المقصود والمرجو .

٢ — أما فى الأخلاق : فان جوهر الاسلام هو الاحسان ، والربانية

كما تكون في العقيدة تكون في الأخلاق بمعنى أن يتخلق الانسان بالأخلاق التي أمر الله بها ومنها ما ذكر في الآية التي فسرناها من قبل •

والاسلام اذن كلمة شاملة لاسلام الوجه لله ، وللاحسان : والاحسان في الحقيقة يؤسس على اسلام الوجه لله وينبع منه •

ولن يتأتى أن يعارض أحد أو يرفض اسلام الوجه لله ، اللهم الا هؤلاء الذين خلت قلوبهم من الشعور بمعنى التدين •

ومن البديهي اذن أن الاسلام — اسلام الوجه لله — هو طريق الهداية :

(فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام) •

ومن شرح الله صدره للاسلام — اسلام وجهه لله — فهو على نور من ربه :

(أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه ، فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في ضلال مبين) •

ومعنى اسلام الوجه لله : قد فسره الله سبحانه حينما وضح ذروته ممثلة في شخص الرسول — صلى الله عليه وسلم — اذ يقول :

(قل ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين) •

وهذا هو المراد بتطبيق الايمان بالغيب في الآية الكريمة •

ولعل أول آية نزلت من القرآن الكريم تشير الى هذا المعنى أيضا ، وكانت بذلك توجيها من أول الأمر الى أن يكون العمل باسم الله ، لا باسم شيء آخر أو كائن آخر •

(اقرأ باسم ربك الذي خلق) •

ومن هنا كان لفظ اسلام أصدق تعبير عن الدين وكانت القضية :

(ان الدين عند الله الاسلام) •

قضية لا شك فيها :

وكانت القضية المترتبة على هذه :

(ومن يبتغ غير الاسلام دينا ، فلن يقبل منه ، وهو فى الآخرة من الخاسرين) •

قضية هى الأخرى لاشك فيها •

ان كل من يرفض اسلام الوجه لله ، انما يرفض الدين •

وبمقدار بعد الانســان أو قربه من اسلام الوجه لله يكون قربه أو بعده من المعنى الصادق للدين •

وليس بغريب ــ والأمر كذلك ــ أن يتحدث القرآن الكريم عن طائفة من أهل الكتاب انطوت جوانبهم على الاخلاص فيعلنون اسلامهم بمجرد أن يتلى عليهم القرآن ، بل يعلنــون أنهم كانوا من قبله مسلمين ، بقوله تعالى :

(ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون • الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنــون • واذا يتلى عليهم قالوا آمنا به • انه الحق من ربنا انا كنا من قبله مسلمون • أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ، ويدرؤون بالحسنة السيئة ، ومما رزقناهم ينفقون • واذا سمعوا اللغو أعرضوا عنــه ، وقالوا : لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين) •

والنتيجة المنطقية لما سبق ما أعلنه القرآن الكريم بقوله تعالى :

(شرع لــكم من الدين ما وصى به نوحا ، والذى أوحينــا اليك ، وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى : أن أقيموا الدين ، ولا تتفرقوا

فيه كبر على المشركين ما تدعوهم اليه ، الله يجتبى اليه من يشاء ، ويهدى اليه من ينيب) •

ويقول سبحانه :

(قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون) •

واسلام الوجه لله هو التوحيد ، واذا كانت سمة النصرانية فى وضعها الراهن — على ما يروى البيرونى — هى التثليث ، فان سمة الاسلام — حسبما يقول بحق — هى الوحيد ، انها توحيد الله بالربوبية : بالخلق ، بالايجاد ، بالاعطاء ، بالمنع •

(قل : اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير ، انك على كل شىء قدير) •

انه سبحانه يملك الملك فى اليسير منه والعظيم : فى الصحة ، فى القوة ، فى الجاه ، فى الرزق ، فى الغنى •

وهو يملكه فى الناحية القلبية : وقلب الانسان بين اصبعين من أصابع الرحمن وهو يملكه فى الهداية : ومن يهد الله فلا مضل له •

وهو يملكه فى الآخرة : مالك يوم الدين •

انه سبحانه : المتصرف المطلق فى الصغير والكبير : لا يعزب عن علمه ، ولا عن قدرته ولا عن ارادته وحكمته مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر وهيمنته شاملة عامة مطلقة •

ونعود فنذكر قوله تعالى :

(قل : يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم : ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فان تولوا فقولوا : اشهدوا بأنا مسلمون) •

أى فان لم يعترفوا معكم بأنه يجب أن تخصص العبادة لله وحده ، وأن ينتفى الشرك به سبحانه وأن لا يتخذ المخلوقون بعضهم أربابا ••• أى فان لم يعترفوا بهذا التوحيد وأعرضوا فأعلنوا : أنكم مسلمون ، أى موحدون •

والاسلام — كما كانت الأديان ، فى نقائها وصفائها من قبل — انما هو التوحيد وهو دعوة الى التوحيد : فالتوحيد — أو اسلام الوجه لله — جوهره وأساسه ، وكل تعاليمه ومبادئه : انما هى التوحيد : وهى وسائل ومناهج للوصول بالانسان الى التوحيد أشهد ألا اله الا الله : انها رسالة السماء الخالدة •

وأشهد أن محمدا رسول الله •• الذى بلغ الرسالة فأدى بهذا التبليغ الصادق الأمانة التى وكلت اليه وهى التوحيد •

التوحيد هو مبدأ الاســلام وجوهره ، ولكن التوحيد ليس مجرد قول وليس مجرد كلمة لا أساس لها فى القلب والشعور •

واذا لم يؤمن الانســان بالتوحيد ايمانا يملك عليه جميع أقطاره ، فانه لا يكون كامل الايمان •

ومن أجل ايجاد الانســان الموحد فى صورة راقية •• كانت تعاليم الاسلام •

والآية الكريمة موجهة موحية :

الصلاة انما هى انفصال عن كل ما سوى الله من أجل الاتصال بالله فهى توحيد •

ومن هنا كان بدؤها (الله أكبر) لتشعر الانسان من المبدأ أن جميع ما فى العالم من سادة ، وجميع ما فى العالم من بشر ، تتعلق بهم الآمال ، أو يناط بهم الرجاء ، فان الله أكبر منهم وأجــل وأعظم فيجب أن تتعلق الآمال به وحده وأن يقتصر الرجاء عليه سبحانه •

ثم تتوالى جميع الأوضاع فى الصلاة .. من قراءة وركوع ، وسجود وتشهد ، لتعلن بكل حركة ، وبكل وضع الانفصال عما سوى الله من أجل الاتجاه الى الله وحده ، ومن أجل اسلام الوجه اليه سبحانه .

والصوم : انما هو تنزه عن المادة،وعن السوء فى القول والعمل ، فترة من الزمن من أجل مرضاة الله ، انه تنزه عن النقص البشرى الذى يتمثل فى شهوات المعدة : لتخلص الروح فتـرة الى التأمل فى كمال الله ، انه محاولة للتخلق بأخلاق الله ، لأنه سبحانه الكمال المطلق الذى لا يحتاج الى شيء لابد لمن يأمل فى شيء من الكمال من أن يتحلى بما أراده سبحانه انه تنزه عن النقص فى سبيل التوحيد .

والزكاة : انما هى بذل المادة فى سبيل الله،انها بذل المادة التى يجرى وراءها البشر ، ويكادون يعبـدونها ، بذلها بعد امتلاكها ، بذلها وقد كان فيها — لو أراد — الوسيلة للملاذ والشهوات ، انها تجرد عن المادة توحيد لله سبحانه .

أما الحج : فانه تجريد كله : انه تجرد عن الماضى ، فهو فى بدايته : التوبة عن الذنوب والآثام أى عن الفترات التى غفل الانسان فيها عن ذكر الله ، فأشرك معه غـيره واتخذ الهه هواه فنسى الله فوقع فى المعصـية والاثم .

وهو تجرد حتى عن ملابس الماضى ، وهو تلبية من أول لحظاته :

تلبية هى استجابة لله وحده ، أو هى توحيد خالص ، انها استجابة كاملة للأمر بنفى الشريك .

(لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، ان الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك) .

أن هذا النـداء الذى يتعالى ، وله عبير طيب ، وله سـناء متألق ،

فيصعد الى السماء ، فتفتح له أبوابها ••• أن هذا النداء انما هو الانطواء الكامل تحت راية التوحيد ••• وتتوالى أعمال الحج كلها واضحة سافرة أو رمزية مستطلبة : معلنة التوحيد منادية به ، طائفة وراءه ، ساعية من أجله ، واقفة تستشرفه ، راجية من الله سبحانه وتعالى ، أن يقبل أصحابها فى زمرة الموحدين يقول الله تعالى :

(وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحى اليه لا اله الا أنا فاعبدون) •

هذه بعض معالم التوحيد فى العقيدة •

ومعالم التوحيد فى الأخلاق :

أن لا يصدر عن الانسان ولا يرد فى سلوكه الشخصى أو فى سلوكه الاجتماعى أمر الا عن توجيه الهى •

ومعالم التوحيد فى(النية)أن يكون الانسان فى كل ما يأتى وما يدع : قاصداً وجه الله تعالى ، هو أن تكون حياته كلها لله وليست الحياة وحدها ، وانما الممات أيضا •

والتوحيد على العموم هو أن يهب الانسان نفسه لله فى قيامه وجلوسه ، فى نومه ويقظته ، فى حديثه وصمته ، فى غضبه ورضاه ، فى صداقته وعداوته ، فى بيعه وشرائه ، فى عمله وراحته ، فى أفكاره وآرائه : فى توجيهه واشاراته ، فى نصائحه وتحذيراته ، فى كل نفس يتنفسه ، أو طرفة عين يطرفها •

ونعود فنذكر — كقانون جامع — أن توحيد الانسان هو أن تكون صلاته ونسكه ومحياه ومماته لله رب العالمين لا شريك له •

ويقترب الانسان من المثل الأعلى الاسلامى بمقدار قربه من هذه المعانى :

عقيدة وأخلاقا ونية •

وقوله تعالى :

(ألا لله الدين الخالص) •

انما يشير بها الى خلوصه من كل شائبة شرك ؟ سواء أكان الشرك فى العقيدة أم كان فى الأخلاق والنية •

والله سبحانه أغنى الشركاء ، فمن عمل عملا لله ولغيره ، فان الله سبحانه برىء من عمله ، وكذلك من اعتقد شريكا لله فالله برىء منه •

ويعبر عن هذا فى وضوح جميل الحديث الشريف الذى رواه الصحابى الجليل عمرو بن عبسة قال قال رجل :

يا رسول الله : ما الاسلام ؟ •

قال صلوات الله وسلامه عليه : (أن يسلم لله قلبك ، وأن يسلم المسلمون من لسانك ويدك) •

وما من شك فى أن سلامة المسلمين من لسان الانسان ويده انما ترجع الى اسلام قلبه لله ، وانها على حد قول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(لو خشع قلبه لخشعت جوارحه) •

وعلى حد قوله صلى الله عليه وسلم :

(ألا أن فى الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله وان فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب) •

وقد يتساءل انسان : وما كيفية اسلام الوجه لله ؟ •

ما هى الوسائل لذلك ؟ •

ما الطريق ؟ •

أما الوسائل فانها المبادىء الالهية التى قررها الله سبحانه على لسان رسوله : قرآنا كانت أو سنة قولية ، أو عملية :

ولا مناص لكل من يريد أن يسلم وجهه لله سبحانه من أن يرجع فى ذلك الى القرآن ، ومن أن يرجع فى ذلك الى السنة : أى أنه لا مناص لكل من يريد من الهداية أو التدين أو الحق من أن يلجأ الى القرآن والسنة •

وذلك أن القرآن الكريم انما هو النص الوحيد فى العالم الآن الذى احتفظ — بحفظ الله له — بالتعبير الالهى الذى يشرح الدين ويوضحه دون تحريف بزيادة أو نقص ، والقرآن لم يحتفظ بما أوحاه الله بالمعنى فحسب ، وانما احتفظ بالتعبير نفسه ، وهذه منزلة لا تدانيها منزلة ، ودرجة فى الدقة والصدق لا يضارعها غيرها حتى ولا من قرب •

وانها لمفخرة للمسلمين كبرى أن يكون الدين الذى يدينون به انما يرجعون فيه الى النص الالهى نفسه فى دقته ، وفى نضارته ، وفى بركته وفى سنائه لألائه •

وانها لمفخرة للغة العربية أن تحتفظ بالكتاب الذى أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير •

أما النتيجة الأولى التى نريد أن نصل اليها فهى أن الدين ، واسلام الوجه لله ، والتوحيد ، والاسلام : كلها بمعنى واحد يفسر بعضها بعضا وكلها مطلقة عامة لا يحدها زمان ولا مكان ، وكلمة الاسلام خير ما يعبر عنها فى جرسها وفى كمالها :

(اليــوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليــكم نعمتى ، ورضيت لكم الاسلام دينا) •

والنتيجة الثانية : هى أن جوهر الشخصية الاسلامية ، أو الشخصية

المسلم ، انما هى اسلام الوجه لله أو التوحيد أو التدين الصادق أو الاسلام •

وبمقدار قرب المسلم من الاسلام ايمانا بالغيب واقامة للصلاة وتصدق لوجه الله تعالى الى آخره ••• يكون كمال شخصيته •

وما من شك فى أن أكمل شخصية اسلامية انما هى شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم الذى وصفه الله بأنه أول المسلمين ، ولم يصف أحدا غيره بذلك[١] •

الطائفة الثانية : طائفة الكافرين :

قال الله تعالى : (ان الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون • ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم) •

معانى المفردات :

قوله تعالى : (ان الذين كفروا) •

الكفر فى اللغة : التغطية • تقول : كفرت الشىء اذا غطيته ، فسمى الكافر كافرا لأنه يغطى الحق • قاله مقاتل •

قوله تعالى :

(سواء عليهم) أى : متعادل عندهم الانذار وتركه •

والانذار : اعلام مع تخويف ، وتناذر بنو فلان هذا الأمر : اذا خوفه بعضهم بعضا •

قوله تعالى : (ختم الله على قلوبهم) •

---

(١) راجع الاسلام والايمان للدكتور عبد الحليم محمود .

الختم : الطبع ، والقلب : قطعة من دم جامدة سوداء ، وهو مستكن فى الفؤاد ، وهو بيت النفس ، ومسكن العقل ، وسمى قلبا لتقلبه ٠

وقيل : لأنه خالص البدن ، وانما خصه بالختم لأنه محل الفهم[١] ٠

وهنا تعليل لعدم ايمانهم وهو عبارة عن اضلالهم ، فهو مجاز وقيل : حقيقة وأن القلب كالكف ينقبض مع زيادة الضلال والأول أبرع[٢] ٠

قوله تعالى : (وعلى سمعهم) يريد : وعلى أسماعهم ، فذكر بلفظ التوحيد ومعناه الجمع ٠ والسمع مصدر سمع وسماعا ويطلق على الآلة التى يقع بها السمع وهى الأذن ٠

قوله تعالى : (وعلى أبصارهم غشاوة) :

والأبصار جمع بصر وهو فى الأصل بمعنى الادراك بالعين واحساسها ويطلق على القوة التى يقع بها الابصار ٠

وعلى العين هى نفسها التى هى محله وشاع هذا حتى صار حقيقة فى العرف ٠

و (الغشاوة) : الغطاء ٠

قال الفراء : أما قريش وعامة العرب فيكسرون العين من « غشاوة » وعكل يضمون الغين ، وبعض العرب بفتحها ، وأظنها لربيعة ٠ وروى المفضل عن عاصم « غشاوة » بالنصب على تقدير : جعل على أبصارهم غشاوة ٠

قوله تعالى : (ولهم عذاب عظيم) :

أما (العذاب) فهو الألم المستمر ، وماء عذب : اذا استمر فى الحلق سائغا ٠

---

(١) زاد المسير فى علم التفسير جـ ١ ص ٢٨ ٠

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل جـ ١ ص ٦٣ ٠

و (العظيم) ضد الحقير • وقيــل العظيم : الكبير من عظم الشيء وأصله كبر عظمه ، ثم استعير لكل كبير محسوسا كان أم معقولا ، وقيل : انه فوق الكبير •

التفسير التحليــلى :

مناسبة الآيات لما قبلها :

هذا انتقال من الثنــاء على الكتاب ومتقلديه ووصف هديه وأثر ذلك الهدى فى الذين اهتدوا به والثناء عليهم الراجع الى الثناء على الكتاب لما كان الثنــاء انما يظهر اذا تحققت آثار الصفة التى استحق بها الثناء ، ولما كان الشيء قد يقدر بضده انتقل الى الكلام على الذين لا يحصل لهم الاهتداء بهذا الكتاب ، وسجل أن حرمانهم من الاهتداء بهديه انما كان من حيث أنفسهم اذا نبوا عن ذلك ، فما كانوا من الذين يفكرون فى عاقبة أمورهم ويحذرون من سوء العواقب فلم يكونوا من المتقين ، وكان سواء عنــدهم الانذار وعدمه فلم يتلقوا الانذار بالتأمل بل كان سواء والعدم عندهم[1] •

التفســير :

فى هاتين الآيتين بيان لأحوال طائفة ثانية من الناس ، على الضد فى طبيعتها وأوصافها ومآلها من الطائفة الأولى التى فازت برضوان الله •

والكفر : بالضم ضد الايمان وأصله المأخوذ منه الكفر بالفتح وهو ســتر الشيء وتغطيته ، ومنه سمي الليــل كافرا ، لأنه يغطى كل شيء بسواده ، وسمي السحاب كافرا لستره ضوء الشمس •

ثم شــاع الكفر فى مجرد النعمة : كأن المنعم عليــه قد غطى النعمة بجحوده لها ، يستعمله الشــارع فى عدم الايمان بالله وملائكته وكتبــه ورسله واليوم الآخر •

---

(١) التحرير والتنوير جـ ١ ص ٢٤٧ •

وسمى من لم يؤمن بما يجب الايمان به بعد الدعوة اليه كافرا ، لأنه صار بجحوده لذلك الحق وعدم الاذعان اليه كالمغطى له .

والمراد بالذين كفروا فى الآية التى معنا ، طائفة معينة صمت آذانها عن الحق ، عنادا وحسدا ، وليس عموم الكافرين ، لأن منهم من دخل فى الاسلام بعد نزول هذه الآية .

وسواء : اسم مصدر بمعنى الاستواء ، والمراد به اسم فاعل أى : مستو ولذلك يوصف به كما يوصف بالمصدر كما فى قوله تعالى :

(قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم) .

أى : مستوية .

و (الانذار) : اخبار معه تخويف فى مدة تتسع للتحفظ من المخوف ، فان لم تتسع له فهو اعلام واشعار لا انذار ، وأكثر ما يستعمل فى القرآن فى التخويف من عذاب الله تعالى .

والمعنى : ان الذين كفروا برسالتك يا محمد ، مستو عندهم انذارك وعدمه فهم لا يؤمنـــون بالحق ، ولا يستجيبوا لداعى الهدى ، لســـوء استعدادهم ، وفساد فطرهم .

وجاءت جملة (ان الذين كفروا ...) مســـتأنفة ولم تعطف على ما قبلها لاختلاف الغرض الذى سيق له الكلام ، اذ الجمل السابقة حديث عن الكتاب وآثاره وعظمته ، وهنا حديث عن الكافرين وأحوالهم .

وقوله (ســـواء) خبر ان ، وعليهم متعلق به و (أأنذرتهم) مؤول بمصدر فاعل سواء ، أى :

ان الذين كفروا سواء عندهم انذارهم وعدم انذارهم وانما استوى لديهم الانذار وعدمه ، مع أن الانذار انما يواجههم به نبى قوى أمين مؤيد من الله تعالى لأنهم لما جحدوا نعم الله ، وعموا عن آياته وحسدوا رسوله

على ما آتاه الله من فضله صاروا بسبب ذلك فى حضيض جمد معه شعورهم ، وبرد فيه احساسهم ، فلا تؤثر فيهم موجعات القول ، ولا تنفذ الى قلوبهم بالغات الحجج فهم كما قال الشاعر :

لقد أسمعت اذ ناديت حيا ولكن لا حيـاة لمن تنـادى

ولم يذكر سبحانه التبشير مع الانذار ، لأنهم ليسوا أهلا للبشارة ، ولأن الانذار أوقع فى القلوب ، والذى لا يتـأثر به يكون تأثره بغيره أولى .

ولم يقل سبحانه سـواء عليك أأنذرتهم أم لم تنذرهم ... الخ ، لأنه بالنسبة له صلى الله عليه وسلم لا يستوى الأمران ، اذ هو فى حالة انذاره لهم مثـاب ومأجور ، أما فى حالة عدم انذاره فهو مآخذ من الله تعالى لأنه مكلف بتبليغ ما أنزل اليه من ربه .

وجملة (لا يؤمنون) مفسرة لمعنى الجملة التى قبلها ومؤكدة لها ، لأنه حيث كان الانذار وعدمه سـواء فلا يتوقع منهم الايمان . ولذلك فصلت .

وفى هذه الجملة اخبار بعدم ايمانهم البتة ، وذلك لأن حرف لا اذا دخل على الفعل المضارع — كما هنا — أفاد أن الفعل لا يقع فى المستقبل حتى تقوم قرينة تقصر النفى فى المستقبل على وقت محدد .

والحكمة فى الاخبـار بعدم ايمان هذه الطائفة المعينة من الكفار ، تسلية النبى صلى الله عليه وسلم حتى لا يكون فى صدره حرج من تمردهم وعدم ايمانهم بعد أن قام بواجب دعوتهم ، وفى ذلك تذكرة لكل داع مصلح بأن لا يحترق قلبه أسفا على قوم أعرضوا عن سـلوك الصراط المستقيم بعد أن دعاهم اليه ، وبذل قصارى جهده فى تبصيرهم وارشادهم .

ثم بين سبحانه بعد ذلك الموانع التى حالت بينهم وبين الاهتداء الى الحق فى الماضى والمستقبل فقال تعالى :

(ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة) •

والختم : الوسم بطابع ونحوه ، مأخوذ من وضع الخاتم على الشىء وطبعه فيه للاستيثاق ، لكى لا يخرج منه ما هو بداخله ، ولا يدخله ما هو خارج عنه •

قال القرطبى : والختم مصدر ختمت الشىء ختما فهو مختوم شدد للمبالغة ، ومعناه التغطية على الشىء والاستيثاق منه ، وقد يكون محسوسا كما فى ختم الكتاب والباب ، وقد يكون معنويا كالختم على القلوب[1] •

والقلوب : جمع قلب ، وهو المضغة التى توجد بالجانب الأيسر من صدر الانسان ويستعمل فى القوة العاقلة التى هى محل الفهم والعلم •

والسمع : مصدر سمع ويطلق على الأذن •

ولما كان الختم يمنع من أن يدخل فى المختوم عليـــه شىء ، استعير لاحداث هيئة فى القلب والسمع تمنع من خلوص الحق اليهما •

الأبصار : جمع بصر ، وهو فى الأصل الادراك بالعين ، ويطلق على القوة التى يقع بها الابصار ، وعلى العـــين نفسها ، وهذا المعنى أقرب ما تحمل عليه الأبصار فى الآية ، وهو الأنسب لأن تجعل عليه غشاوة ، ومفاد الآية أن تصـــير أبصارهم بحيث لا تهتـــدى الى النظر فى حكمة المخلوقات وعجائب المصنوعات ، باعتبار وتدبر ، حتى لكأنما جعلت عليها غشاوة •

والغشـــاوة : ما يغطى به الشىء من غشـــاه اذا غطاه يقال : غشيه غشاوة ــ مثلثة ــ وغشاية • أى ستره وغطاه •

---

(١) القرطبى ج ١ ص ١٨٦ •

فهذه الآية الكريمة تفيد عن طريق الاستعارة أو التمثيل أن هناك حواجز حصينة ، وأقفالا متينة ، وغشاوات مطبقة ، قد ضربت على أسماعهم وعلى قلوبهم حتى أصبحوا لايخيفهم نذير ، ولا يرغبهم بشير ٠

وعبر فى جانب القلب والسمع بالختم ، وفى جانب البصر بالغشاوة ، لمعنى سام ، وحكمة رائعة ، ذلك أن آفة البصر معروفة اذ غشاوة العين معروفة لنا فالتعبير فى جانب العين بالغشاوة مما يحدد لنا جانب عجزهم عن ادراك آيات الله بتلك الجارحة ، وأما القلب والسمع فانهما لما كانا لا تدرك آفتهما الا بصعوبة ، فقد صور موانعهما عن الاستجابة للحق بصورة الختم ٠

وعبر فى جانب القلب والسمع بجملة فعلية تفيد التجدد والحدوث ، وفى جانب البصر بجملة اسمية تفيد الثبات والاستقرار ، لأنهم قبل الرسالة ما كانوا يسمعون صوت نذير ، ولا يواجهون بحجة ، وانما كان صوت النذير وصياغة البراهين بعد ظهور النبى صلى الله عليه وسلم ، وأما ما يدرك بالبصر من دلائل وجود الله وآيات قدرته ، فقد كان قائما فى السموات وفى الأرض وفى الأنفس ، ويصح أن يدرك قبل الرسالة النبوية ، وأن يستدل به المتبصرون والمتدبرون على وجود ربهم وحكمته فلم يكن عماهم عن آيات الله القائمة حادثا متجددا ، بل هم قد صحبهم العمى من بدء وجودهم ، فلما دعوا الى التبصر والتدبر صمموا على ما كانوا عليه من عمى ٠

وجمع القلوب والأبصار وأفرد السمع ، لأن القلوب تختلف باختلاف مقدار ما تفهمه مما يلقى اليها من انذار أو تبشير ، ومن حجة أو دليل ، فكان عن ذلك تعدد القلوب بتعدد الناس على حسب استعدادهم ، وكذلك شأن الناس فيما تنتظمه أبصارهم من آيات الله فى كونه ، فان أنظارهم

تختلف فى عمق تدبرها وضحولتــه ، فكان من ذلك تعدد المبصرين بتعدد مقادير ما يستنبطون من آيات الله فى الآفاق •

وأما المسموع فهو بالنسـبة للناس جميعا شىء واحـد هى الحجة يناديهم بها المرسلون ، والدليل يوضحه لهم النبيون •

لذلك كان الناس جميعا كأنهم على سمع واحد ، فكان افراد السمع ايذانا من الله بأن حجته واحدة ، ودليله واحد لا يتعدد •

ونرى القرآن هنا قدم القلب فى الذكر على السمع ، بينما فى سورة الجاثية قدم السمع فى الذكر على القلب فقال :

(أفرأيت من اتخذ الهه هواه ، وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون) •

وذلك لأنه سبحانه فى سورة الجاثية قد ذكر الختم معطوفا على قوله اتخذ الهه هواه ومن اتخذ الهه هواه يكون أول مايبدو منه للناس ويعرف هو اعراضه عن النصح ، ولى رأسه عن استماع الحجة ، فكان مظهر عدم السماع منه أول مايبدو للناظرين ، فلذلك قدم السمع على القلب •

وأما آيتنـا هذه وهى قوله تعالى : (ختـم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ••) ، فقد جاءت اثر الآية المختومة بقوله (لا يؤمنون) والايمان تصـديق يقوم على الحجة والبرهان ، وادراك الحجة والبرهان انما هو بالقلب فكان التعليل المتصل الواضـح لنفى الايمان • أن قلوبهم مغلقة لا تنفذ اليها الحجة ، ولا يتسرب اليها نور البرهان لذلك قدم القلب على السمع •

هذا وقوله تعالى (ختم الله على قلوبهم ••• الخ) لا ينفى عنهم تبعة الكفر ، لأنهم هم الذين باشروا من فساد الأعمال ، وذميم الخصال ، ومتابعة الهوى ، ما نسـج على قلوبهم من الأغلفة السميكة ، وأصم الى

جانب ذلك آذانهم وأعمى أبصارهم (وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) .

وللعلماء الكلام كلام طويل حول هذه المسألة فليرجع اليه من شاء .

ثم بين سبحانه ما يستحقونه من عقاب بسبب اغراقهم الكفر ، واستحبابهم للمعاصى فقال :

(ولهم عذاب عظيم) .

أى ولهم بسبب سوء أعمالهم عذاب موجع مؤلم لأبدانهم وأجسامهم .

وأصل العذاب : المنع ، يقال : عذب الفرس — كضرب — امتنع عن العلف ، وعذب الرجل اذا ترك المأكل والنوم فهو عاذب وعذوب ثم أطلق على الايجاع الشديد لما فيه من المنع عن اقتراف الذنب ، والعظيم الكبير ، من عظم الشىء ، وأصله كبر عظمه ثم استعير لكل كبير محسوسا كان أو معقولا .

ووصف العذاب بالعظيم على معنى أن سائر ما يجانسه من العذاب يكون بالنسبة اليه حقيرا هينا .

قال أبو حيان فى البحر : وقد ذكروا فى هاتين الآيتين من ضروب الفصاحة أنواعا :

الأول : الخطاب العام اللفظ ، الخاص المعنى .

الثانى : الاستفهام الذى يراد به تقرير المعنى فى النفس . أى : يتقرر أن الانذار وعدمه سواء عندهم .

الثالث : المجاز ويسمى الاستعارة وهو فى قوله تعالى : (ختم الله

على قلوبهم وعلى سمعهم) وحقيقة الختم وضع محسوس على محسوس يحدث بينهما رقم يكون علامة للخاتم ، والختم هنـا معنوى ، فان القلب لما لم يقبل الحق مع ظهوره استعير له اسم المختوم عليه فبين أنه من مجاز الاستعارة .

الرابع : الحذف وهو فى مواضع منها (ان الذين كفروا ..) .

أى : القوم الذين كفروا بالله وبك وبما جئت به ، ومنها لايؤمنون أى بالله وبما أخبرتهم به عنه..[1] .

والى هنـا يكون القرآن الكريم قد حدثنا عن طائفتين من النـاس : طائفـة المتقين وما لها من جميـل الصفات ، وجزيل الثـواب ، وطائفة الكافرين ، وما لها من ذميم النعوت ، وشديد العقاب[2] .

فقه الآيات

الناس أمام هداية القرآن ثلاث طوائف : مؤمنون قد بدأت السورة بذكرهم ، وكافرون وهم المذكورون فى هاتين الآيتين ، ومنافقون مذبذبون بين ذلك لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء وسيأتى الكلام عنهم بعد هاتين الآيتين .

والذين كفروا المذكورون هنـا فى الآيتين ليسوا مطلق الكافرين — بل هم كفار مكة الذين حادوا الله ورسوله ، وأشربوا فى قلوبهم الكفر ، وعلم الله أنهم لن يستجيبوا للرسول كأبى جهل وعتبة ابن ربيعة وأبى لهب وغيرهم ممن مات على الكفر ، فهؤلاء فسدت فطرتهم بموروثاتهم الفاسدة ، وأوهامهم الضالة ، وعصبيتهم الغاشمة ، وطمس على قلوبهم فلم يدركوا الحق ولم يؤمنوا به[3] .

والواقع أن المشكلة الأساسية كانت هى اثبات الرسالة .

---

(١) تفسير البحر المحيط لأبى حيان جـ ١ ص ٥٠ .
(٢) التفسير الوسيط ص ٥٩ .
(٣) دراسات فى التفسير ص ٨٦ .

اثبـات الرسـالة :

ان أشق مرحلة يصادفها كل رسول من الرسل : انما هى اقنـاع الناس برسالته ، وقد اختلفت وسائل هذا الاقناع ، واختلفت أساليبه ، وقد بدأ الرسول صلى الله عليه وسلم ، كأسلافه بتقرير أنه رسول ، وأنه متصل بالسماء ، وأن الوحى ينزل عليه تباعا •

وقد أرسله الله تعالى ، لحكمة سامية قد رددها القرآن فى غير ما موضع هى تزكية النفوس وتطهيرها ، وتزكيتها وتطهيرها خلقيا ، واجتماعيـا مؤسسا ذلك على تطهيرها وتزكيتها من ناحية العقيدة •

(لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وان كانوا من قبل : لفى ضلال مبين)[1] •

(ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ؛ ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ، انك أنت العزيز الحكيم)[2] •

ومن أجل ذلك كان ارساله رحمة للعالمين •

(وما أرسلناك الا رحمة للعالمين) •

ولكن العرب سخروا من دعوته ، وكان لابد من أن يفحمهم بآية من آيات الله ، فكانت هذه الآية هى القرآن •

لقد تحداهم فى عنف وتحـداهم — متدرجا بهم — : من أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ، الى أن يأتوا بعشر سور مثله ، ثم انتهى بهم أخيرا الى أن يأتوا بسورة من مثله قال تعالى :

---

(١) سورة آل عمران آية : ١٦٤ .

(٢) سورة البقرة آية : ١٢٩ .

(قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا)[١] .

(أم يقولون : افتراه ؟ قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات،وادعوا من استطعتم من دون الله ، ان كنتم صادقين)[٢] .

(وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا ، فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهداءكم من دون الله ، ان كنتم صادقين ، فان لم تفعلوا ، ولن تفعلوا ، فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة ، أعدت للكافرين)[٣].

ولم الشك فى أمر الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، مع أنه لو أخبرهم: أن خيلا وراء الوادى ستغير عليهم لصدقوه : لأنهم لم يعهدوا عليه كذبا .

على أنه لقد لبث فيهم من قبل أربعين عاما ، فلم يحدثهم بنبوة ولا برسالة : ذلك أن هذا الأمر انما يرجع الى مشيئة الله فحسب :

(قل لو شاء الله ماتلوته عليكم ولا أدراكم به . فقد لبثت فيكم عمرا من قبله . أفلا تعقلون)[٤] .

ويطلب اليهم القرآن : أن يتفكروا فى أمر صاحبهم هذا الذى نشأ بينهم وترعرع على مرأى ومسمع منهم ، بل كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم : بالصدق والأمانة ورجاحة العقل . قال تعالى :

(قل انما أعظكم بواحدة : أن تقوموا لله مثنى وفرادى ، ثم تتفكروا ،

---

(١) سورة الاسراء آية : ١٦٤ .

(٢) سورة هود آية : ١٣ .

(٣) سورة البقرة آية : ٢٣،٢٤ .

(٤) سورة يونس آية : ١٦ .

ما بصاحبكم من جنة ، ان هو الا نذير لكم بين يدى عذاب شديدا)[١] •

ولم الشك فى أمره مع أنه قد تجرد من كل مطمع دنيوى ؟

(قل : ما سألتكم من أجر فهو لكم ان أجرى الا على الله وهو على كل شيء شهيد)[٢] •

ولم التشكك فى أمره وهو أمى لا يقرأ ولا يكتب ؟ ومن كانت حاله هذه لا يمكنه أن يستمد ما يقول من كتاب قال تعالى :

(وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك اذا لا رتاب المبطلون)[٣] •

هذه الظروف وهذه الملابسات ، فضلا عن القرآن ، ترشد الى أن محمدا صلى الله عليه وسلم ، كان صادقا فى دعواه •

معارضة الكفار :

بيد أن الكفار تغالوا فى المعارضة ، حتى لقد وصلوا أحيانا ، الى حد السخف ، ولكن القرآن كان لهم بالمرصاد ، وكان دائما يفحم فى قوة •

لقد قالوا :

(ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق) •

فرد الله عليهم بما يقطع حجتهم :

(وما أرسلنا قبلك من المرسلين الا انهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق) •

وقال : (ولقد أرسلنا رسلا من قبلك ، وجعلنا لهم أزواجا وذرية) •

---

(١) سورة سبأ آية : ٤٦ •
(٢) سورة سبأ آية : ٤٧ •
(٣) سورة العنكبوت آية : ٤٨ •

ولم يجد اليهود ولاالنصارى مفرا من الاعتراف: بأن الرسل السابقين كانوا حقــا كذلك •

وقال الكفار : (لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ؟) •

فاذا بالقرآن يعلل ذلك تعليلا فى غاية القوة والوضوح :

(كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا) •

وقالوا : (لولا أنزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ؟) •

فرد عليهم القرآن فى أسلوب لاذع : (أهم يقسمون رحمة ربك) •

ورأوا : أن يكون الرسول ملكا ، فاذا بالقرآن يجيبهم فى منطق صارم:

(ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون) •

ويذكر ذلك فى موضع آخر مصورا تعنتهم فى انكار النبوة فيقول :

(وما منع الناس أن يؤمنوا ، اذ جاءهم الهدى ، الا أن قالوا ، أبعث الله بشرا رسولا ؟) •

ويرد عليهم القرآن ، معللا الأمر بتعليل آخر غير السابق فيقول :

(قل : لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السـماء ملكا رسولا) •

وهذا التعليل فى غاية العمق : فانه ينطوى على سبب من أهم أسباب ارسال الرسل ، فالملائكة ليسوا — بطبيعتهم — فى حاجة الى من يهديهم من الناحية الأخلاقية : انهم ملائكة •

ويتعمد القرآن أن يصفهم بأنهم يمشون مطمئنين فيثبت بذلك توضيح طبيعتهم الملائكية فى أذهاننا ومع ذلك يقول :

(لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا) •

لم ؟ انهم ملائكة فقط ، وهم يمشون — أو قبل كل شىء — :

مطمئنين فما حاجتهم الى الرسـالة ؟

الواقع أن مهمة الرسول الأولى ليست الأخلاق • وانما هى معرفة الله والملأ الأعلى وما وراء الطبيعة ، وذلك لا يتأتى فى صحة لا يشوبها خطأ بمنطق عقلى ، أو قياس نظرى ، وانما يتأتى عن الله بواسطة سفرائه الى عباده ، وهم الرسل •

والملائكة كالبشر : عاجزون عن معرفة الله الا به •

ولقد قالوا كما حكى القرآن عنهم :

(سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا) أما الأخلاق فانها فى المرتبة الثانية بعد معرفة الله •

وأرجفوا : بأن محمدا ، صلى الله عليه وسلم يستمد القرآن من شخص معين ، فرد عليهم القرآن فى قوة :

(لسان الذى يلحدون اليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين) •

ولمـا استيأس العرب من الجدل المنطقى تقمصوا عقلية الصبيان ؟

(وقالوا : لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا • أو تسقط السماء — كما زعمت — علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا ، أو يكون لك بيت من زخرف ، أو ترقى فى السماء ، ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه) •

فيجيبهم القرآن فى سهولة قوية ، لاذعة ، جادة ، ساخرة :

(قل : سبحان ربى ! هل كنت الا بشرا رسولا ؟) •

ويثور الكفار ، حينما يرون منطقهم ينهار فينادون :

(يا أيها الذى نزل عليه الذكر ، انك لمجنون ، لو ما تأتينا بالملائكة ان كنت من الصادقين ؟) •

ويرد عليهم القرآن مبينا لهم ما قد خفى عنهم :

(ما تنزل الملائكة الا بالحق ، وما كانوا اذا منظرين) .

ويصور القرآن فى النهاية موقفهم الحقيقى ، الذى لا يخرج عن أن يكون عنادا لا شائبة فيه لطلب الحق ، ولا للرغبة فى الهدى فيقول :

(ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون ، لقالوا انمـا سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون)[1] .

(ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا ان هذا الا سحر مبين) .

فلما أخذتهم الحجة من جميع أقطارهم ، ورأوا أنهم أضعف من أن يغلبوا بالمنطق ، أعرضوا وقالوا :

(قلو بنا فى أكنة مما تدعونا اليه ، وفى آذاننا وقر ، ومن بيننا وبينك حجاب ، فاعمل اننا عاملون)[2] .

فيذكرهم القرآن بموقف الأمم قبلهم ، وينذرهم بعذاب : كما هى سنته مع هذا النوع من المعاندين :

(فان أعرضوا فقل : أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود) .

حقا لقد كانت خصومة العرب للرسول صلى الله عليه وسلم : عنيفة قوية ، ولقد صورها القرآن فى قوتها وفى عنفها ، ولم يأب أن يذكر ما فاهت به العرب مما يسىء الى الرسول صلى الله عليه وسلم : فذكر وصفهم له بالجنون ، وبالشعر وأنه ساحر أو مسحور ،وبأنه ليس منعظماء القريتين، وبأنه يأخذ القرآن عن غيره ، أو بأن القرآن ليس الا سحرا و أسـاطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا وصور القرآن كل ذلك،وصور

---

(١) سورة الحجرات آية : ١٤، ١٥ .
(٢) سورة فصلت آية : ٥ .

الخصومة فى عنفوانها عارضا أدلة الجاحدين : ذلك أن القرآن هداية الله ، وهدايته سبحانه هى الحق الذى يقذف على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق[١] .

الطائفة الثالثة : طائفة المنافقين :

قال الله تعالى :

(ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ، يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون الا أنفسهم وما يشعرون . ف قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون) .

معـانى المفردات :

قوله تعالى : (ومن الناس) :

أصل الناس أناس لأنه مشتق من الانس وهو اسم جمع وحذفت الهمزة مع لام التعريف تخفيفا .

قوله تعالى : (من يقول)

ان كان اللام فى الناس للجنس فمن موصوفه وان جعلتها للعهد فمن موصولة وأفرد الضمير فى يقول رعيا للفظ ومن .

قوله تعالى : (وما هم بمؤمنين)

هم المنافقين وكانوا جماعة من الأوس والخزرج رأسهم عبد الله ابن أبى بن سلول يظهرون الاسلام ويبطنون الكفر .

قوله تعالى : (يخادعون)

أى يفعلون فعل المخادع ، يريدون الخدع باظهار خلاف مايسرون .

قوله تعالى : (وما يخدعون الا أنفسهم)

---

(١) راجع التفكير الفلسفى فى الاسلام د/عبد الحليم محمود .

أى وبال عليهم فعلهم راجع عليهم ، وما يخدعون بفتح اليـاء من غير ألف من خدع وهو أبلغ فى المعنى • لأنه يقال خادع اذا رام الخداع وخدع اذا تم له •

قوله تعالى : (وما يشعرون) •

حذف معموله أى لا يشعرون أنهم يخدعون أنفسهم •

قوله تعالى : (فى قلوبهم مرض) •

يحتمل أن يكون حقيقـة وهو الألم الذى يجدونه من الخوف وغيره وأن يكون مجازا بمعنى الشك أو الحسد •

قوله تعالى : (فزادهم) •

يحتمل الدعاء والخبر •

قوله تعالى : (يكذبون) •

بالتشديد أى يكذبون الرسول صلىاللهعليهوسلم وقرىء بالتخفيف أى يكذبون فى قولهم آمنا[1] •

التفسير التحليلى

مناسبة الآيات لما قبلها :

بعد أن بين الله تعالى أوصاف المتقين وأوصاف الكافرين ، ذكر طائفة ثالثة ليس عندها اخلاص المتقين ، وليس لديها صراحة الكافرين ، وانما هى طائفة قلقة ، اتخذت لنفسها وجهين تقابل هذا بوجه ، وهؤلاء بوجه آخر ، مذبذبين بين ذلك لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء ، تلك هى طائفـة المنافقين •

يقول الزمخشرى :

افتتح سـبحانه كتابه بذكر الذين أخلصـوا دينهم لله ، ووطأت

(١) انظر التسهيل لعلوم التنزيل جـ ١ ص ٦٤ .

قلوبهم ألسنتهم ، ووافق سرهم علنهم ، وفعلهم قولهم ، ثم ثنى بالذين محضوا الكفر ظاهرا وباطنا ، وقلوبا وألسنة ، ثم ثلث بالذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم أبطنوا خلاف ما أظهروا ، وهم الذين قال فيهم (مذبذبين بين ذلك لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء)(١) .

وسماهم المنافقين وكانوا أخبث الكفرة وأبغضهم اليه وأمقتهم عنده ، لأنهم خلطوا بالكفر تمويها وتدليسا ، وبالشرك استهزاء وخداعا ولذلك أنزل فيهم (ان المنافقين فى الدرك الأسفل من النار)(٢) .

ووصف حال الذين كفروا فى آيتين ووصف حال الذين نافقوا فى ثلاث عشرة آية ، نعى عليهم فيها خبثهم ومكرهم ، وفضحهم ، وسفههم واستجهلهم ، واستهزأ بهم ، وتهكم بفعلهم ، وسجل طغيانهم ، ودعاهم صما بكما عميا ، وضرب لهم الأمثال الشنيعة ، وقصة المنافقين عن آخ معطوفة على قصة الذين كفروا ، كما تعطف الجملة على الجملة(٣) .

والناس اسم جمع لا واحد له من لفظه وأصل الناس — على ما عليه الجمهور — أناس كما يشهد له انسان وانس وأناسى ، حذفت همزته تخفيفا ، وعوض عنها حرف التعريف « أل » ولذلك لا يجمع بينهما فى قول الشاعر :

ان المنايا يطلعن على الأناس الآمنينا

وقد سموا بذلك لظهورهم وتعلق الايناس بهم — كما سمى الجن جنا لاجتنانهم — من الأنس ضد الوحشة لا يأنس بجنسه ومدنى بطبعه قال الشاعر :

وما سمى الانسان الا لأنسه   ولا القلب الا أنه يتقلب

---

(١) سورة النساء آية : ١٤٥ .
(٢) سورة النساء آية : ١٤٥ .
(٣) الكشاف جـ ١ ص ١٦٥ .

وذهب البعض الى أن أصــله النوس وهو الحركة ، من نوس اذا تحرك انقلبت واوه ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها .

وذهب بعضهم الى أنه مأخوذ من نسى ، نقلت لامه الى موضع العين فصارت نيسا ثم قلبت الياء ألفا ، وقد سموا بذلك لنسيانهم قال تعالى فى حق آدم عليه السلام :

(ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما)[١] .

وال فى الناس اما أن تكون للجنس وعلى هــذا تكون (من) نكرة موصوفة ، واما للعهد الخارجى وتكون (من) موصولة مرادا بها عبد الله ابن أبى وأشياعه .

ووجه الضمير فى (يقول) باعتبــار لفظ (من) فان لفظها مفرد ، وجمعه فى قوله (آمنا) باعتبار معناه ، فان معناه جمع ، وعبر القرآن بلفظ (يقول آمنا) ليفيد أنه مجرد قول باللسان ، لا أثر له فى القلوب ، وانما يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم .

وقال القــرآن فى شأن المنافقين (ومن الناس) مجردا اياهم عن الوصفين الســابقين ، وصف الايمان ووصف الكفر ، لأنهم لم يكونوا بحسب ظاهر الأمر مع الكافرين ولا بحسب باطنه مع المؤمنين ، لذا عبر عنهم بالناس لينطبق التعبــير على ما حاولوه لأنفسهم من أنهــم لا هم مؤمنون ، ولا هم كافرون ، وفى ذلك مبالغة فى الحط من شأنهم ، فهم لم يخرجوا عن كونهم ناسا فقط ، دون أن يصلوا بأوصافهم الى أهل اليمين ، أو الى أهل الشمال الصرحاء فى كفرهم ، بل بقوا فى منحدر من الأرض ، لايمر بهم سالك الطريق المستقيم ولا سالك المعوج من الطرق[٢] .

---

(١) سورة طه آية : ١١٥ .
(٢) التفسير الوسيط جـ ١ ص ٦٨ .

واليوم الآخر : اما أن يراد به الوقت الذى لا حد له ، وهو الأبد الدائم الذى لا انقطاع له ، ويكون من وقت البعث الى ما لا يتناهى ، واما أن يراد به الوقت المحدود من البعث الى أن يدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، لأنه آخر الأوقات المحدودة ، وما بعده فلا حد له •

وتخصيصهم للايمان (بالله وباليوم الآخر) بالذكر مع تكرير الباء ، دون غيرهما مع أنهم كانوا يؤمنون بأفواههم بجميع ما جاء به النبى صلى الله عليه وسلم ليزيدوا فى التمويه على المؤمنين بادعاء أنهم قد حازوا الايمان من قطريه ، وأحاطوا به من طرفيه ، لأنهما المقصود الأعظم من الايمان،فان من آمن بالله آمن بملائكته وكتبه ورسلهوشرائعه،ومن علمأنه اليه المرجع والمصير استعد لذلك بالأعمال الصالحة ، وفى ذلك اشعار بدعوى حيازة الايمان بطرفيه المبدأ والمعاد •

وقوله (وما هم بمؤمنين) : رد لما ادعوه ، ونفى لما انتحلوه من الايمان على أبلغ وجه ، اذ جاء النفى مؤكدا بالباء فى قوله (بمؤمنين) ، ولأن انخراطهم فى سلك المؤمنين من لوازم ثبوت الايمان الحقيقى لهم وانتفاء اللازم أعدل شاهد على انتفاء الملزوم •

وايثار الجملة الاسمية (وما هم بمؤمنين) على الفعلية ، لأنها تفيد انتفاء الايمان عنهم فى جميع الأحوال والأزمنة ، بخلاف الفعلية الموافقة لدعواهم فلا يفيد الا نفيه فى الماضى •

وقوله : (يخادعون الله والذين آمنوا ••• الآية) •

اما أن تكون هذه الآية بيان لقولهم (آمنا) وتوضيح لما هو غرضهم ومقصدهم وهدفهم من هذا القول •

واما أن تكون مستأنفة استئنافا بيانيا جوابا عن سؤال مقدر نشأ من الكلام السابق كأن سائلا سأل وقال : ما لهم يقولون آمنا وهم غير مؤمنين ؟ •

فقيل جوابا عن ذلك (يخادعون الله والذين آمنوا ... الآية) .

والخدع : بفتح الخاء وكسرها — فى أصل اللغة : الاخفاء والابهام ، من قولهم خدع الضب اذا توارى فى جحره واختفى ، وضب خادع ، اذا أوهم الصائد اقباله عليه ثم خرج من باب آخر .

والمراد به أن توهم غيرك خلاف ما تخفيـــه من المكروه له من حيث لا يعلم .

والمخادعة : مفاعلة والمعروف فى المفاعلة أن يفعل كل واحد فى الآخر مثل ما يفعله به ، فيقتضى هنا أن يصدر من كل واحد ، من الله والمؤمنين والمنافقين فعل يتعلق بالآخر ، وظاهر هذا مشكل ، فالله سبحانه وتعالى لا يخدع ، ولا يخدع ، فهو سبحانه غنى عن كل نيل ، واصابة منفعة ، وهو سبحانه متعال على التعمل واستحضار المقدمات ، ولا تخفى عليـــه خافية فى الأرض ولا فى السماء ، ولا يصيبه مكروه فكيف يمكن للمنافقين أن يخـــدعوه ، ويوقعوا فى علمه تعالى خـــلاف ما يريدون من المـــكروه ويصيبونه به ؟[1] .

١ — أن صـــورة صنيعهم مع الله تعالى حيث يتظاهرون بالايمان ، وهم كافرون ليحقنوا دماءهم وأموالهم ، ويفوزوا بسهم من الغنـــائم ، وصورة صنيع الله تعالى معهم حيث أمر باجراء أحكام المســـلمين عليهم وهم عنده أهل الدرك الأسفل من النار — استدراجا لهم — وصورة صنيع المؤمنين معهم حيث امتثلوا أمر الله تعالى فيهم فأجروا ذلك عليهم ، تشبه صورة المخادعة ، ففى الكلام اما استعارة تبعية فى (يخادعون) وحده ، أو تمثيلية فى الجملة[2] .

٢ — وقيل ان فاعل تأتى بمعنى فعل كعافانى الله تعالى ، وعاقبت،

---

(١) انظر تفسير الألوسى ج ١ ص ١٤٦ .

(٢) تفسير الألوسى وتفسير الكشاف ج ١ ص ١٧١ .

اللص ، ويكون المعنى يخدعون الله والذين آمنوا ، وقد قرأ عبد الله بن مسعود رضى الله عنـه وأبو حيوة (يخدعون) ولا بعد فى حمل قـراءة الجمهور على ذلك ، ويكون ايثار صيغة المفاعلة لافادة المبالغة : فى الكيفية فان العقـل متى غولب فيه ، بولغ فيـه • أو فى الكمية كما فى الممارسه والمزاولة فانهم كانوا مداومين على الخداع[1] •

وجاءت الآية بقوله (يخادعون الله والذين آمنوا) ولم تذكر مخادعتهم للرسول صلى الله عليه وسلم ، ولعل الحكمة فى ذلك أن القرآن يعتبـر مخادعة الله تعالى مخادعة لرسوله صلى الله عليـه وسلم ، وفى هذا بيان لمكانته صلى الله عليه وسلم وبعد منزلته ، وعلو مرتبته عند الله سبحانه وتعالى كما قال تعالى (ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله) •

وقوله تعالى : (ومن يطع الرسول فقد أطاع الله)[2] •

وقوله (وما يخدعون الا أنفسهم) : حال من ضـمير يخادعون • أى يفعلون ذلك والحال أنهم ما يضرون بذلك الا أنفسهم •

فان قيل : كيف يخدعون أنفسهم ، والخداع انما يكون بين اثنين ؟ •

ويجاب عن ذلك بأن يقال :

ان المراد أن دائرة خداعهم وفعلهم راجعة اليهم ومقصورة عليهم وضررها عائد اليهم ، لا يتعداهم الى غيرهم •

أو يقال : انهم مايخدعون حقيقة الا أنفسهم حيث يغرونها بالأكاذيب فيلقونها فى مهاوى الردى ، وخـدعتهم أنفسهم حيث حدثتهم بالأمانى الباطلة الزائفة[3] •

---

(١) انظر الالوسى ج ١ ص ١٤٧ •
(٢) سورة النساء آية : ٨٠ •
(٣) راجع دراسات فى التفسير ص ٩٦ •

والأنفس : جمع نفس بمعنى ذات الشيء وحقيقته وعينه ، وتطلق على الروح لأن نفس الحي به • وعلى القلب لأنه محل الروح أو متعلقه ، والمعنى الأول هو المراد لأن المقصود بيان أن ضرر خداعهم راجع اليهم ، ولا يتخطاهم الى غيرهم •

وقوله (وما يشعرون) هذه الجملة اما أن تكون مستأنفة ، فلا محل لها من الاعراب واما أن تكون في محل نصب حال من فاعل يخدعون ، أى وما يرجع وبال خداعهم الا على أنفسهم والحال أنهم ما يشعرون •

ومفعول يشعرون محذوف لظهوره أى ما يشعرون أنهم يخدعونها ، أى أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنـــون ، أو اطلاع الله تعالى نبيه على خداعهم ، وكذبهـــم أو يكون محذوفا لافادة العموم ، وهـــذا الأحسن والأولى لأن المقصود من قوله (وما يشعرون) نفى الشعور عنهم البتة من غير نظير الى متعلقه والمعنى : وما يشعرون بشيء أصلا •

والشعـــور : ادراك الشيء من وجه يدق ويخفى مشتق من الشعر لدقته ، فهو بمعنى العلم ، ومنه سمى الشـــاعر شاعرا لعلمه بالمعانى التى لا يهتدى اليها كل أحد ، وقدرته على الوزن والتقفية بسهولة •

وقيل : هو الادراك بالحاسة مشتق من الشعار وهو ثوب يلى الجسد ، ومنه مشاعر الانسان أى حواسه الخمس التى يشعر بها •

وفى الآية مبالغـــة فى الذم فان قولك فلان لا يشعر أبلغ فى الذم من القول بأنه لا يســـمع ولا يبصر — مثـــلا — لأن اللمس أعم من السمع والبصر •

والآية تحتمل نفى الشعور بمعنى العلم ، فمعنى (لا يشعرون) أى لا يعلمون وكثـــيرا ما ورد بهذا المعنى ، وفى اللحاق نوع اشـــارة اليه ، ويحتـــمل نفـــيه بمعنى الادراك بالحـــواس ، فيجـــعل متعلق الفعـــل

كالمحسوس الذى لا يخفى الا على فاقد الحواس ، ونفى ذلك نهاية الذم ، لأن من لا يشعر بالبدهى المحسوس مرتبته أدنى من مرتبة البهائم ، فهم كالأنعام بل هم أضل ، ولعل هذا أولى لما فيــه من التهكم مع الدلالة على نفى العلم بالطريق الأولى •

قوله تعالى : (فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ••• الآية) :

هذه الآية اما أن تكون مقررة ومؤكدة لما يفيــده ويدل عليه قوله (وما هم بمؤمنين) من استمرار عدم ايمانهم •

واما أن تكون تعليــلا له كأنه قيــل ما العلة والسبب فى أنهــم لا يؤمنون ؟ •

فقيل : فى قلوبهم مرض يمنعهم ويحول بينهم وبين الايمان •

والمرض : بفتــح الراء وسكونها ــ حالة خارجة عن الطبــع ضارة بالفعل ، وقيل هو حقيقة فيما يعرض للبدن فيخرجه عن حد الاعتــدال اللائق به ، ويوجب الخلل فى أفعــاله وقد يؤدى الى الموت ، وهو مايقابل الصحة ، استعير هنــا لما فى قلوبهم من الجهل والبغضاء والحسد وسوء العقيدة وعداوة الرسول صلى الله عليه وسلم وغير ذلك من فنون الكفر المؤدية الى الهلاك النفسى والروحى •

والآية تحتملهما ، فانه لا شك فى أن فى قلوبهم المرضين ، والمرض المعنــوى سبب الحسى ، كما أن المرض يطلق لغة على أثره وهو الألم ، وقد كانت نفوسهم تتحرق ألما وتنفطر كمدا وغما على مافاتهم من الرياسة ، وتغلى حسدا على ما يرون من ثبات الرسول صلى الله عليه وسلم وعلو شأنه وانتشار الاسلام يوما بعد يوم •

وتنكير المرض للدلالة على كونه نوعا مبهما غــير ما يتعارفه الناس من الأمراض •

ولم يجمع المرض كما جمع القلوب لأن تعداد المحال تدل على تعداد الحال عقلا فاكتفى بجمع القلوب عن جمع المرض .

وقوله (فزادهم الله مرضا) :

هــذه الجملة معطوفــة على ما قبلها ، والفــاء للدلالة على ترتب ما بعدها على ما قبلها ، أى أن زيادة المرض مترتب على وجود المرض فى قلوبهم .

وزاد : يســتعمل لازما ومتعديا لاثنين غــير الأول كأعطى وكسى ، فيجوز حذف مفعوليه أو أحدهما اختصارا واقتصارا ، تقول : زاد المال . فهذا لازم ، وزدت زيدا خيرا ومنه (وزدناهم هدى) ، (فزادهم الله مرضا) وزدت زيدا ، ولا تذكر ما زدته ، وزدت مالا ولا تذكر من زدته ، وألف زاد منقلبة عن ياء لقولهم يزيد[١] .

وزيادة الله تعالى مرضهم : اما بمضاعفة حسدهم بزيادة نعم الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين ، فكلما زادهم الله نعما كلما زاد حسد المنافقين .

أو تزاد ظلمة قلوبهم بتجدد كفرهم بما ينزله الله سبحانه وتعالى شــيئا فشيئا من الآيات والذكر الحكيم ، فهم فى ظلمات بعضهــا فوق بعض .

أو أن زيادة المرض تكون بتكثير خوفهــم وهلعهم ورعبهم المترتب عليه ترك مجاهرتهم بالكفر بسبب انتشار الاسلام واعزاز الله له .

أو أن زيادة المرض تكون بمضاعفة الألم بزيادة الهم والغم وايقاد نار الحقد والبغضاء فى قلوبهم وهذا من أشد أنواع المرض قال الشاعر :

والهم يخترق الجسيم مخافة ويشيب ناصية الغلام فيهرم

---

(١) حاشية الصاوى على الجلالين ج ١ ص ١٧ .

ويكون ذلك بتكاليف الله تعالى لهم المتجددة ، وفعلهم لها مع كفرهم بها ، وبتكاليف النبى صلى الله عليه وسلم لهم ببعض الأمور ، وتخلفهم عنه ، فانه يجلب لهم ما يكرهونه من لومهم ، وسوء الظن بهم ، فيغتمون ان فعلوا أو ان تركوا[1] .

وانما عدى سبحانه وتعالى الزيادة اليهم لا على القلوب ، فلم يقل فزادها ، اما على سبيل الحذف أى فزاد الله قلوبهم مرضا ، أو اشارة الى أن مرض القلب مرض لسائر الجسد كما قال صلى الله عليه وسلم (ألا وان فى الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله ، واذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب) .

واعادة (مرض) منكرا لكونه غير المرض الأول ضرورة أن المزيد يغاير المزيد عليه ، فان النكرة اذا أعيدت نكرة كانت غير الأول .

وقوله (ولهم عذاب أليم) :

أى مؤلم — بفتح اللام — على طريق الاسناد المجازى حيث أسند الألم للعذاب وهو فى الحقيقة انما يسند الى الشخص المعذب ، يقال ألم — من باب طرب — فهو أليم ، كوجع فهو وجيع أى متألم متوجع ، وفى هذا مبالغة فى شدة العذاب حيث ان العذاب لشدة ايلامه للمعذبين صار هو كأنه مؤلم أى معذب فهو على حد قولهم : جد جده ، فان الألم فى الحقيقة للمؤلم والمضروب ، كما أن الجد للجاد .

وقوله (بما كانوا يكذبون) :

الباء للسببية ، و (ما) مصدرية أو موصولة أى بسبب كذبهم أو بالذى كانوا يكذبونه .

والكذب هو الاخبار عن الشىء بخلاف الواقع ، ولقد كان المنافقون كاذبين فى قولهم (آمنا بالله وباليوم الآخر) وهم غير مؤمنين .

---

(١) تفسير الالوسى جـ ١ ص ١٤٩ .

ورتبت الآية الكريمة العذاب الأليم على كذبهم دون سائر موجباته القوية الأخرى ، فهم كفرة والكفر أكبر معصية من الكذب اما لتخصيص هذا العذاب الأليم بهم بعد أن لحقهم العذاب العظيم ضمن طائفة الكافرين فى الآيات السابقة ، فقد أعد الله لهم نوعين من العذاب عظيم وأليم .

واما للايذان بأن لهم عذابا أليما بسبب كذبهم ، ولهم عذاب آخر لا يوصف ولا يعرف مقداره ، جزاء جناياتهم العظيمة الأخرى .

واما أن يكون خص الكذب للاشارة الى شناعته وقبحه والتنفير منه وبيان فظاعته ، وعظم جرمه ، ولبيان أن الكفر من مشتملاته وينتهى اليه فى حدوده وغاياته ، ومن ثم حذر القرآن منه أشد التحذير ، وتوعد عليه أسوء الوعيد ، وما فشا الكذب فى أمة الا كثرت فيها الجرائم ، وشاعت فيها الرذائل ، فهو مصدر كل رذيلة ومنشأ كل كبيرة .

ولأن الكذب آية وعلامة من علامات النفاق كما قال صلى الله عليه وسلم (آية المنافق ثلاث : اذا حدث كذب واذا وعد أخلف واذا اؤتمن خان) .

وفى الآية تحريض للمؤمنين على ما هم عليه من الصدق والتصديق ، فان المؤمن اذا سمع ترتب العذاب على الكذب دون النفاق يتصور قبحه وشناعته فينزجر عنه ولا يقع فيه .

وعبر سبحانه بقوله (بما كانوا يكذبون) فقد اشتملت هذه الجملة على فعل ماض ومضارع ، للدلالة على دوام كذبهم واستمراره وتجدده وحدوثه منهم حينا بعد حين ، وأن هذه الصفة هى أخص صفاتهم ، وأبرز جرائمهم[1] .

---

(١) دراسات فى التفسير للدكتور أمين عطية باشا ص ١٠٠ ، ١٠١ .

فى صفات المنافقين :

قال الله تعالى : (واذا قيــل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا : انما نحن مصلحون ، ألا انهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون ، واذا قيل لهم آمنــوا كما آمن الناس ، قالوا : أنؤمن كما آمن السفهــاء ؟ ألا انهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون) •

معانى المفردات :

قوله تعالى : (لا تفسدوا) •

أى بالكفر والنميمة وايقاع الشر وغير ذلك •

قوله تعالى : (انما نحن مصلحون) •

يحتمل أن يكون جحود الكفر لقولهم آمنا ، أو اعتقادهم أنهم على اصلاح •

قوله تعالى : (كما آمن الناس) •

أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، والكاف يحتمل أن تكون للتشبيه أو التعليل ومايحتمل أن تكون كافة كما هى فى ربما ، وأن تكون مصدرية •

قوله تعالى : (أنؤمن) :

انكار منهم وتقبيح •

قوله تعالى : (هم السفهاء) •

رد عليهم واناطة السفه بهم ، وكذلك هم المفسدون ، وجاء بالألف واللام ليفيد حصر السفه والفســاد فيهم ، وأكده بان وبألا التى تقتضى الاستئناف وتنبيه المخاطب[1] •

---

(١) راجع التسهيل لعلوم التنزيل ج ١ ص ٦٥ •

التفسير التحليلى

مناسبة الآيات لما قبلها :

معطوف على قوله يكذبون باعتبار تضمن (انما نحن مصلحون) الكذب أو معطوف على قوله (ومن الناس من يقول آمنا بالله) وتكون هذه الجملة بيانا لجريمة أخرى من جرائمهم وهى انهماكهم فى الفساد فى الأرض •

قوله تعالى (اذا) :

اسم شرط بمعنى وقت خافض لشرطه منصوب بجوابه والتقدير :

قال المنافقون انما نحن مصلحون وقت نصح الناصحين لهم بترك الفساد فى الأرض •

وبنى فعل (قيل) للمفعول بالنظر الى تعدد الناصحين لهم كأنه قيل :

واذا قال لهم القائلون (لا تفسدوا فى الأرض) تبجحوا بادعاء انهم مصلحون مع أن نهى القائلين لهم عن الفساد فى الأرض مع تعددهم يدل على شيوع الفساد منهم وكذبهم فى نسبة الاصلاح اليهم •

والفساد : خروج الشىء عن حالة استقامته وكونه منتفعا به ونقيضه الصلاح •

ومعنى (لا تفسدوا فى الأرض) : لا تفعلوا ما يؤدى الى الفساد وهو الكفر ، كما قاله ابن عباس •

أو المعاصى كما قاله أبو العالية أو النفاق •

والنهى شامل لذلك كله وفى ذلك يقول الامام النسفى :

(الفساد هيج الحروب والفتن لأن فى ذلك فساد ما فى الأرض ،

وانتفاء الاستقامة عن أحوال الناس والزروع والمنافع الدينية والدنيوية ، وكان فساد المنافقين فى الأرض أنهم كانوا يمالؤن الكفار ويتآمرون معهم على المسلمين بافشاء أسرارهم اليهم واغرائهم عليهم وذلك مما يؤدى الى هيج الفتن بينهم •

والمراد من (الأرض) : جنسها أو أرض المدينة المنورة وفى نهيهم عن الفساد فى عموم الأرض مع أنهم فى بقعة منها لبيان أن الفساد اذا لم يحاصر فى مكانه ويستأصل عم وانتشر وهذا يوجب على أهل الصلاح أن يقفوا للمفسدين بالمرصاد وأن يتكتلوا لدفعه كما قال تعالى :

(ولتكن منكم أمة يدعون الي الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) •

وقوله تعالى : (انما نحن مصلحون) جواب اذا ، وانما أداة حصر • وقد أراد المنافقون بهذا الجواب قصر أنفسهم على الاصلاح الذى لم يشبه شيئا من وجوه الفساد ، وأنهم معروفون به بحيث لا يرتاب فيه أحد وهذا منهم امعان فى التبجح وتزييف الحقائق ، وهذا القول جار منهم على عادتهم فى الكذب وأنهم يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم •

وقوله تعالى (ألا انهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون) :

رد عليهم فى غرورهم وحصرهم أنفسهم فى الصلاح فرد عليهم بطريق من طرق القصر هو أبلغ فيه لأن تعريف المسند يفيد قصر المسند على المسند اليه فيفيد قوله ألا انهم هم المفسدون قصر الافساد عليهم بحيث لايوجد فى غيرهم وذلك ينفى حصرهم أنفسهم فى الاصلاح وينقضه وهو جار على قانون النقض وعلى أسلوب القصر الحاصل بتعريف الجنس، وان كان الرد قد يكفى فيه أن يقال انهم مفسدون بدون صيغة قصر ، الا أنه قصر ليفيد ادعاء نفى الافساد عن غيرهم •

وقد يفيد ذلك أن المنافقين ليسوا ممن ينتظم في عداد المصلحين لأن شأن المفسد عرفا ألا يكون مصلحا اذ الافساد هين الحصول وانما يصد عنه الوازع فاذا خلع المرء عنه الوازع وأخذ في الافساد هان عليه الافساد ثم تكرر حتى يصبح سجية ودأبا لا يكاد يفارق موصوفه •

وحرف (ألا) للتنبيه اعلانا لوصفهم بالافساد •

وقد أكد قصر الفساد عليهم بضمير الفصل أيضا — كما أكد به القصر في قوله (وأولئك هم المفلحون) •

ودخول ان على الجملة وقرنها بألا المفيدة للتنبية وذلك من الاهتمام بالخبر وتقويته دلالة على سخط الله تعالى عليهم فان أدوات الاستفتاح مثل ألا وأما لما كان شأنها أن ينبه بها السامعون دلت على الاهتمام بالخبر ، واشاعته واعلانه ، فلا جرم أن تدل على أبلغية ما تضمنه الخبر من مدح أو ذم أو غيرهما ، ويدل ذلك أيضا على كمال ظهور مضمون الجملة للعيان لأن أدوات التنبيه شاركت أسماء الاشارة في تنبيه المخاطب •

وقوله (ولكن لا يشعرون) : محمله محمل قوله تعالى قبله (وما يخادعون الا أنفسهم وما يشعرون) فان أفعالهم التى يبتهجون بها ويزعمونها منتهى الحذق والفطنة وخدمة المصلحة الخالصة ، آيلة الى فساد عام لا محالة الا أنهم لم يهتدوا الى ذلك لخفائه وللغشاوة التى ألقيت على قلوبهم من أثر انفاق ومخالطة عظماء أهله ، فان حال القرين وسخافة المذهب تطمس على العقول النيرة وتحف بالأحلام الراجحة حتى ترى حسنا ما ليس بالحسن • وموقع حرف الاستدراك هنا لأن الكلام دفع لما أثبتوه لأنفسهم من الخلوص للاصلاح ، فرفع ذلك التوهم بحرف الاستدراك •

قوله تعالى : (واذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس ، قالوا : أنؤمن كما آمن السفهاء ، ألا انهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون) •

هو من تمام المقول قبله فحكمه حكمه بالعطف والقائل ، ويجوز هنا أن يكون القائل أيضا طائفة من المنافقين يشيرون عليهم بالاقلاع عن النفاق لأنهم ضجروه وسئموا كلفه ومتاعبه ، وكلت أذهانهم عن ابتكار الحيل •

والحق الذى نراه أنه بعد أن بين الله تعالى فى الآية السابقة أن المؤمنين نصحوا المنافقين ونهوهم عن المنكر والتخلى عن الرذائل فى قوله تعالى (واذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض ••• الآية) بين بعد ذلك أنهم أمروهم بالمعروف والتحلى بالفضائل فقال تعالى (واذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس ••• الآية) والقائل هذا القول هم المؤمنون على سبيل النصح والارشاد •

وتقديم النهى عن الفساد على الأمر بالايمان ، أو تقديم النهى عن المنكر على الأمر بالمعروف من باب تقديم التخلية على التحلية ، فقد نصح المؤمنون المنافقين من وجهين :

أحدهما : النهى عن الافساد وهو عبارة عن التخلى عن الرذائل •

ثانيهما : الأمر بالايمان وهو عبارة عن التحلى بالفضائل •

وحذف مفعول (آمنوا) لظهوره لأنه معلوم للسامعين ، أو أن الفعل منزل منزلة الفعل اللازم ، أى افعلوا الايمان •

والكاف فى قوله (كما آمن الناس) فى محل نصب صفة لمصدر محذوف ، والتقدير :

آمنوا ايمانا كما آمن الناس • أو على أنها حال أى آمنوا الايمان كما آمن الناس •

والمراد من الناس : الرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين مطلقا كما أخرجه ابن جرير عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما •

أو من آمن من بنى جنسهم وأهل جلدتهم كعبد الله بن سلام وأضرابه وعلى هذين القولين فأل فى (الناس) للعهد •

أو المراد بالناس الكاملون فى الانسانية العاملون بقضية العقل الذين يعد من عداهم فى عداد البهائم فى فقد التمييز بين الحق والباطل ، وعلى هذا فأل فى الناس اما للجنس أو للاستغراق(١) •

والمعنى : آمنوا ايمانا مقرونا بالاخلاص خاليا من شوائب الكفر والنفاق مماثلا لايمانهم •

وقوله (قالوا : أنؤمن كما آمن السفهاء) •

استفهام للانكار ، قصدوا منه التبرؤ من الايمان على أبلغ وجه وجعلوا الايمان المتبرأ منه شبيها بايمان السفهاء تشنيعا له وتعريضا بالمسلمين بأنهم حملهم على الايمان سفاهة عقولهم ، ودلوا على أنهم علموا مراد من يقول لهم كما آمن الناس أنه يعنى بالناس المسلمين •

والسفهاء جمع سفيه وهو المتصف بالسفاهة ، والسفاهة خفة العقل وقلة ضبطه للأمور قال السموأل :

نخاف أن تسفه أحلامنا فتحمل الدهر مع الخامل

والعرب تطلق السفاهة على أفن الرأى وضعفه ، وتطلقها على سوء التدبير للمال • قال تعالى (ولا تؤتوا السفهاء أموالكم) وقال (فان كان الذى عليه الحق سفيها أو ضعيفا) الآية ، لأن ذلك انما يجىء من ضعف الرأى ، ووصفهم المؤمنين بالسفاهة بهتان لزعمهم أن مخالفتهم لا تكون الا لخفة فى عقولهم ، وليس ذلك لتحقيرهم ، كيف وفى المسلمين سادة العرب من المهاجرين والأنصار ، وهذه شنشنة أهل الفساد والسفه لأن

---

(١) انظر تفسير الألوسى جـ ١ ص ١٥٥ وراجع دراسات فى التفسير ص ١١١ والتحرير والتنوير جـ ١ ص ٢٨٧ .

يرموا المصلحين بالمذمات بهتانا ووقاحة ليلهوهم عن تتبع مفاسدهم ولذلك قال أبو الطيب :

واذا أتتك مذمتى من ناقص　　فهى الشهادة لى بأنى كامل

أو أنهم نسبوا السفه اليهم تحقيرا لشأنهم فان كثيرا من المؤمنين كانوا فقراء ومنهم موال كصهيب وبلال وغيرهم •

وقوله تعالى : (ألا انهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون) :

أتى بما يقابل جفاء طبعهم انتصارا للمؤمنين ولولا جفاء قولهم (أنؤمن كما آمن السفهاء) لما تصدى القرآن لفضحهم مع أن عادته الاعراض عن الجاهلين ولكنهم كانوا مضرب المثل (قلت فأوجبت) ولأنه مقام بيان الحق من الباطل فتحسن فيه الصراحة والصرامة كما تقرر فى آداب الخطابة •

وأعان ذلك بكلمة ألا المؤذنة بالتنبيه للخبر •

وجاء بصيغة القصر على نحو ما تقرر فى (ألا انهم هم المفسدون) ليدل على أن السفاهة مقصورة عليهم دون المؤمنين فهو اضافى لا محالة •

واذا ثبت لهم السفاهة انتفى عنهم الحلم لا محالة لأنهما ضدان فى صفات العقول •

(ان) هنا لتوكيد الخبر وهو مضمون القصر وضمير الفصل لتأكيد القصر كما تقدم آنفا[1] •

و (لا) النافية التى أصبح معناها بعد هذا التركيب التنبيه وكأنه يقول تعالى : تنبهوا لحكمى على هؤلاء الكذبة وأحرصوا عليه فانهم لا ينفكون عن الفساد ثم ذكر ضمير الفصل (هم) بين اسم ان وخبرها ليؤكد فى النفس قصرهم على الفساد • ولزومه فى كل أحوالهم[2] •

---

(١) التحرير والتنوير جـ ١ ص ٢٨٩
(٢) المنتخب فى التفسير ص ٧١ •

وقوله (ولكن لا يعلمون) :

نفى عنهم العلم بكونهم سفهاء بكلمة يعلمون دون يشعرون خلافا للآيتين السابقتين لأن اتصافهم بالسفه ليس من شأنه الخفاء حتى يكون العلم به شعورا ويكون الجهل به نفى شعور ، بل هو وصف ظاهر لايخفى لأن لقاءهم كل فريق بوجه واضطرابهم فى الاعتماد على احدى الخلتين وعدم ثباتهم على دينهم ثباتا كاملا ، ولا على الاسلام كذلك كاف فى النداء بسفاهة أحلامهم فان السفاهة صفـة لا تكاد تخفى وقد قالت العرب : السفاهة كاسمها •

فظنهم أن ما هم عليـه من الكفر رشد وأن ما تقلده المسـلمون من الايمان سفه يدل على انتفاء العلم عنهم •

فموقع حرف الاسـتدراك لدفع تعجب من يتعجب من رضـاهم بالاختصاص بوصف السفاهة •

صورة من فضائح المنافقين :

قال الله تعالى :

(واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم انما نحن مسـتهزئون الله يستهزىء بهم ويمدهم فى طغيانهـم يعمهون • أولئـك الذين اشتروا الضـلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين) •

معانى المفردات :

قوله تعالى : (قالوا آمنا) •

كذبوا خوفا من المؤمنين •

قوله تعالى : (خلوا الى شياطينهم) •

هم رؤساء الكفر ، وقيـل شياطين الجن ، وتعدى خلا بالى ضمن معنى مشوا وذهبوا أو ركنوا ، وقيل : الى بمعنى مع ، أو بمعنى انباء .

قوله تعالى : (انا معكم انما نحن مستهزؤن) .

فيه قولان : أحدهما : أنهم أرادوا : انا معكم على دينكم .

والثانى : انا معكم على النصرة والمعاضدة .

والهزء : السخرية .

قوله تعالى : (الله يستهزىء بهم) .

فيه من الأقوال : تسمية للعقوبة باسـم الذنب : كقوله (ومكروا ومكر الله) ، وقيل : يملى لهم بدليل قوله (ويمدهم) وقيل يفعل بهم فى الآخرة ما يظهر لهم أنه استهزأ بهم كما جاء فى سـورة الحديد (ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا ... الآية) .

قوله تعالى : (ويمدهم فى طغيانهم يعمهون) .

فيه من الأقوال :

١ — يمكن لهم ، قاله ابن مسعود .

٢ — يملى لهم . قاله ابن عباس .

٣ — يزيدهم ، قاله مجاهد .

٤ — يمهلهم . قاله الزجاج .

والطغيـان : الزيادة على القدر ، والخروج عن حيز الاعتدال فى الكثرة ، يقال : طغى البحر : اذا هاجت أمواجه ، وطغى السيل : اذا جاء بماء كثير . وفى المراد بطغيانهم اما : كفرهم ، قاله الجمهور . والثانى : أنه عتوهم وتكبرهم ، قاله ابن قتيبة .

و (يعمهون) بمعنى : يتحيرون ، يقـال : رجل عمه وعامه ، أى : متحير •

وقال ابن قتيبة : يعمهون : يركبون رؤوسهم ، فلا يبصرون •

قوله تعالى : (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى) •

اشتروا : بمعنى : استبدلوا ، والعرب تجعل من آثر شيئا على شىء مشتريا له ، وبائعا للآخر • والضـلالة والضلال بمعنى واحد ، واما أن يراد بها هنا الكفر والمراد بالهدى الايمان •

أو يراد بها الشك والهدى اليقين •

أو : أنها الجهل ، والهدى : العلم •

قوله تعالى : (فما ربحت تجارتهم) •

من مجاز الكلام ، لأن التجارة لا تربح ، وانما يربح فيها •

قوله تعالى : (وما كانوا مهتدين) •

فيه خمسة أقوال :

أحدها : وما كانوا فى العلم مهتدين •

الثانى : وما كانوا مهتدين من الضلالة •

الثالث : وما كانوا مهتدين الى تجارة المؤمنين •

الرابع : وما كانوا مهتدين فى اشتراء الضلالة •

الخامس : أنه قد لا يربح التـاجر ، ويكون على هدى من تجارته غير مستحق للذم فيما اعتمد ، فنفى الله عز وجل عنهم الأمرين ، مبالغة فى ذمهم[١] •

---

(١) راجع زاد المسير فى علم التفسير لابن الجوزى جـ ١ ص ٣٩ والتسهيل لعلوم التنزيل لابن جزى جـ ١ ص ٦٦ •

التفسير التحليلي للآيات

مناسبة الآيات لما قبلها :

بيان لدأب المنافقين وأنهم اذا استقبلوا المؤمنين دفعوهم عن أنفسهم بقولهم : آمنا استهزاء فلا يتوهم أنه مكرر مع أول القصة لأنه ابداء لخبثهم ومكرهم وكشف عن افراطهم فى الدعارة ، وادعاء أنهم مثل المؤمنين فى الايمان الحقيقى وأنهم أحاطوه من جانبيه على أنه لو لم يكن هذا لا ينبغى أن يتوهم تكرار أيضا لأن المعنى — ومن الناس من يتفوه بالايمان نفاقا للخداع — وذلك التفوه عند لقاء المؤمنين وليس هذا من التكرار بشىء لما فيه من التقييد وزيادة البيان وأنهم ضموا الى الخداع الاستهزاء ، وأنهم لا يتفوهون بذلك الا عند الحاجة[١] .

ما ذكره المفسرون فى سبب نزول الآية الأولى والتعليق عليه :

ذكر المفسرون[٢] فى سبب نزول هذه الآية ، ما روى أن ابن أبى وأصحابه جاءهم نفر من الصحابة لينصحوهم ، فقال لقومه : انظروا كيف أرد هؤلاء السفهاء عنكم ، فأخذ بيد أبى بكر الصديق وقال : مرحبا بالصديق سيد بنى تميم وشيخ الاسلام ، وثانى رسول الله صلى الله عليه وسلم الباذل نفسه وماله لرسول الله .

ثم أخذ بيد عمر ، فقال : مرحبا بسيد بنى عدى بن كعب ، الفاروق القوى فى دين الله ، الباذل نفسه وماله لرسول الله .

ثم أخذ بيد على ، فقال: مرحبا بابن عم رسول الله وختنه وسيد بنى هاشم ، ما خلا رسول الله .

---

(١) راجع تفسير الالوسى جـ ١ ص ١٥٦ .

(٢) انظر تفسير الخازن والكشاف وابو السعود والبيضاوى فى تفسير الآية .

فقال له على : اتق الله ولاتنافق ، فان المنافقين شر خليقة الله تعالى ، فقال : مهلا يا أبا الحسن انى لا أقول هذا نفاقا ، والله ان ايماننا كايمانكم وتصديقنا كتصديقكم ، ثم تفرقوا •

فقال عبد الله بن أبى لأصحابه : كيف رأيتمونى فعلت ؟ فاذا رأيتموهم فافعلوا مثلما فعلت ، وأثنوا عليه خيرا ، وقالوا : لا نزال بخير ما عشت فينا •

فرجع المسلمون الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبروه بذلك فأنزل الله هذه الآية •

يقول د/أمين باشا : والنظر فى هذه الرواية التى ذكرها المفسرون سببا لنزول هذه الآية تجد أن الصنعة بارزة قوية عليها والوضع ظاهر فيها ، لأن هذه الأوصاف التى وصف بها الثلاثة رضوان الله تعالى عليهم ، انما صاروا يوصفون بها بعد مدة طويلة من الهجرة ، ان لم تقل بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم ، بل وبعد وفاتهم ، ويبدوا أن هذه الرواية حيكت لابراز الامام على بن أبى طالب رضى الله عنه واظهار أنه هو وحده الذى فطن لنفاق المنافق ابن أبى ، والرواية بعد ذلك تقتضى أن تكون الآية نزلت وحدها منفصلة عما قبلها وما بعدها ، مع أن الناظر فيها يرى أنها منسجمة نسجاما قويا ومتصلة بما قبلها وما بعدها من الآيات التى تتحدث عن المنافقين ، مما يدل على أنها نزلت فى جملة الآيات التى تتحدث عن المنافقين دفعة واحدة[1] •

ويقول الامام الألوسى :

هذا ولم يصح عندى فى سبب نزول هذه الآية شىء ، وأما ما ذكره الزمخشرى والبيضاوى وأبو السعود وغيرهم ، فهو من طريق السدى

---

(١) دراسات فى التفسير ص ١١٨ •

الصغير ، وهو كذاب ، وتلك سلسلة الكذب ، لا سلسلة الذهب ، وآثار الوضع لائحة • على ما ذكروه فلا يعول عليه ولا يلتفت بوجه اليه[١] •

قولهتعالى (واذا لقوا الذين آمنوا) يقال لقيته ولاقيته اذا استقبلته وصادفته وكان قريبا منك • والمصدر اللقاء واللقى واللقية والمقصود استقبلوهم وكانوا فى مواجهتهم وقريبا منهم •

ومعنى قولهم (آمنا) أى كنا مؤمنين فالمراد من الايمان فى قولهم آمنا الايمان الشرعى الذى هو مجموع الأوصاف الاعتقادية والعلمية التى تلقب بها المؤمنون وعرفوا بها على حد قوله تعالى (انا هدنا اليك) ، أى كنا على دين اليهودية فلا متعلق بقوله آمنا حتى يحتاج لتوجيه حذفه أو تقديره ، أو أريد آمنا بما آمنتم به •

ولقاؤهم الذين آمنوا هو حضورهم مجلس النبى صلى الله عليه وسلم ومجالس المؤمنين •

ومعنى (قالوا آمنا) أظهروا أنهم مؤمنون بمجرد القول لا بعقد القلب ، أى نطقوا بكلمة الاسلام وغيرها مما يترجم عن الايمان •

قوله تعالى (واذا خلوا الى شياطينهم) : معناه : انفردوا مع رؤسائهم وقادتهم المشبهين للشياطين فى تمردهم وعتوهم وصدهم عن الحق •

وخلا من الخلوة بمعنى الانفراد ، ويعدى الى مفعوله بالباء وبالى وتعدى هنا بالى لتضمنه معنى الانتهاء •

ويجوز أن يكون خلوا بمعنى مضوا وذهبوا والمعنى عليه :

واذا مضوا وذهبوا الى شياطينهم قالوا ما قالوا فى حق المؤمنين •

---

(١) تفسير الالوسى جـ ١ ص ١٥٦ •

والشياطين جمع شيطان — جمع تكسير — وحقيقة الشيطان أنه نوع من المخلوقات المجردة طبيعتها الحرارة النـارية ، وهم من جنس الجن ، قال تعالى فى ابليس (كان من الجن) وقد اشتهر ذكره فى كلام الأنبياء والحكماء ، ويطلق الشيطان على المفسد ومثير الشر ، تقول العرب فلان من الشياطين ومن شياطين العرب ذلك استعارة ، وكذلك أطلق هنا على قادة المنافقين فى النفاق[1] ، قال تعالى :

(وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين) .

وعبـر عن حالهم مع المؤمنين بالملاقاة ، وعن حالهم مع الشـياطين بالخلوة ايذانا بأن هؤلاء المنافقين لا أنس لهم بالمؤمنين ، ولا طمأنينة منهم اليهم فهم لا يجالسونهم ولا يسامرونهم ، وانما كل ما هنالك أن يلقوهم فى عرض طريق .

أما شـأنهم مع شياطينهم فهم اليهـم يركنون واليهم يتسـامرون ويتحادثون ولذلك هم بهم يخلون .

والمعية فى قولهم (انا معكم) المراد بها موافقتهم فى دينهم .

وأكدوا ما خاطبوا به شياطينهم بحرف التأكيد اذ قالوا (انا معكم) ليزيلوا ما قد يجرى فى خواطرهم من أنهم فارقوا دينهم وانقلبوا الى دين الاسلام بقلوبهم .

ولم يؤكدوا ما خاطبوا به المؤمنين اذ قالوا لهم (آمنا) ولم يقولوا انا آمنا ليوهموهم أنهم بمرتبـة لا ينبغى أن يترددوا فى ايمانهـم حتى يحتاجوا الى تأكيد .

قوله تعالى : (انما نحن مستهزئون) :

---

(١) راجع التحرير والتنوير ج ١ ص ٢٩٠ .

وارد مورد الجواب عما قد يعترض به عليهم شياطينهم اذا يقولون لهم :

كيف تدعون أنكم معنا مع أنكم توافقون المؤمنين فى عقيدتهم وتشاركونهم فى مظاهر دينهم ؟ •

فكان جوابهم عليهم (انما نحن مستهزئون) • والاستهزاء : السخرية والاستخفاف بالغير ، يقال : هزأ منه وبه — كمنع وسمع — واستهزأ به ، اى : سخر ، كعجب واستعجب •

والمعنى : اننا نظهر للمؤمنين الموافقة على دينهم استخفافا بهم وسخرية منهم ، لا على أن ذلك صادر منا عن صدق واخلاص •

وفى قصرهم أنفسهم على الاستهزاء والاستعلان بذلك دليل على سوء أخلاقهم ، وأنهم متبجحون لأن الهزؤ والاستهزاء مما ينفر منه أولوا العقول السليمة ، ويرون انتسابهم اليه نوعا من المهانة مما يجعل التبجح به دليلا على تجردهم من الخير وتغلغل السوء فى قلوبهم •

قوله تعالى : (الله يستهزىء بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون) •

لم تعطف هاته الجملة على ما قبلها لأنها جملة مستأنفة استئنافا بيانيا جوابا لسؤال مقدر ، وذلك أن السامع لحكاية قولهم للمؤمنين آمنا ، وقولهم لشياطينهم انا معكم الخ •

يقول : لقد راجت حيلتهم على المسلمين الغافلين عن كيدهم وهل يتفطن متفطن فى المسلمين لأحوالهم فيجازيهم على استهزائهم ، أو هل يرد لهم ما راموا من المسلمين ، ومن الذى يتولى مقابلة صنعهم فكان للاستئناف بقوله (الله يستهزىء بهم) غاية الفخامة والجزالة •

وهو أيضا واقع موقع الاعتراض والأكثر فى الاعتراض ترك العاطف•

وفعل (يستهزىء) المسند الى الله ليس مستعملا فى حقيقته لأن

المراد هنا أنه يفعل بهم فى الدنيا ما يسمى بالاستهزاء بدليل قوله (ويمدهم فى طغيانهم يعمهون) ولم يقع استهزاء حقيقى فى الدنيا •

فهو ما تمثيل لمعاملة الله اياهم فى مقابلة استهزائهم بالمؤمنين ، بما يشبه فعل المستهزىء بهم وذلك بالاملاء لهم حتى يظنوا أنهم سلموا من المؤاخذة على استهزائهم فيظنوا أن الله راض عنهم •

أو ظنهم أن أصنامهم نفعوهم حتى اذا نزل بهم عذاب الدنيا من القتل والفضح علموا خلاف ما توهموا فكان ذلك كهيئة الاستهزاء بهم والمضارع فى قوله (يستهزىء) لزمن الحال •

ولا يحمل على اتصاف الله بالاستهزاء حقيقة عند الأشاعرة لأنه لم يقع من الله معنى الاستهزاء فى الدنيا ، ويحسن هذا التمثيل ما فيه من المشاكلة •

ويجوز أن يكون يستهزىء بهم حقيقة يوم القيامة بأن يأمر بالاستهزاء بهم فى الموقف ، وهو نوع من العقاب فيكون المضارع فى يستهزىء للاستقبال ، والى هذا المعنى نحا ابن عباس والحسن فى نقل ابن عطية •

ويجوز أن يكون مرادا به جزاء استهزائهم من العذاب أو نحوه من الاذلال والتحقير والمعنى يذلهم وعبر عنه بالاستهزاء مجازا ومشاكلة •

أو مرادا به مآل الاستهزاء من رجوع الوبال عليهم •

وهذا كله وان جاز فقد عينه جمهور العلماء من المفسرين كما نقل ابن عطية والقرطبى وعينه الفخر الرازى والبيضاوى وعينه المعتزلة أيضا لأن الاستهزاء لا يليق اسناده الى الله حقيقة لأنه فعل قبيح ينزه الله تعالى عنه كما فى الكشاف وهو مبنى على المتعارف بين الناس وجىء فى حكاية كلامهم بالمسند الاسمى فى قولهم (انما نحن مستهزئون) لافادة

كلامهم معنى دوام صدور الاستهزاء منهم وثباته بحيث لا يحولون عنه •

وجىء فى قوله (الله يستهزىء بهم) بافادة التجدد من الفعل المضارع أى تجدد املاء الله لهم زمانا الى أن يأخذهم العذاب ، ليعلم المسلمون أن ما عليه أهل النفاق من النعمة انما هو املاء وان طال كما قال تعالى (لا يغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد متاع قليل) •

قوله تعالى : (ويمدهم فى طغيانهم يعمهون) •

معطوف على (الله يستهزىء بهم) •

ويمد فعل مشتق من المد وهو الزيادة ، يقال مده اذا زاده وهو الأصل فى الاشتقاق من غير حاجة الى الهمزة لأنه متعد ، ودليله أنهم ضموا العين فى المضارع على قياس المضاعف المتعدى ، وقد يقولون أمده بهمزة التعدية على تقدير جعله ذا مدد ثم غلب استعمال مد فى الزيادة فى ذات المفعول نحو مد له فى عمره ومد الأرض أى مطها وأطالها •

وغلب استعمال أمد المهموز فى الزيادة للمفعول من أشياء يحتاجها نحو أمده بجيش (أمدكم بأنعام وبنين) •

فاستعمال المد بالمعانى التالية :

الامهال والمطاولة والزيادة ، من المد بمعنى الامهال يقال : مده فى غيه — من باب رد — أمهله وطول له ، ويقال : مد الجيش وأمده اذا ألحق به ما يقويه ويكثره ويزيده ، وقيل : أكثر ما يستعمل المد فى المكروه ، والامداد فى المحبوب •

و (الطغيان) : مصدر بوزن الغفران والشكران وهو مبالغة فى الطغى وهو الافراط فى الشر والكبر •

والعمه : انطماس البصرة وتحير الرأى وفعله عمه فهو عامه وأعمه •

فيكون المعنى : يعمهون عن الرشـــد ، أو يتحيرون ويترددون بين الاظهار والاخفاء • أو بين البقاء على الكفر وتركه الى الايمان يقال فى هذه الحال : ان الله تعالى يجازى هؤلاء المنافقين على استهزائهم وخداعهم ، ويمكنهم من المعاصى أو يملى لهم ليزدادوا اثما ، حال كونهم يعمون عن الرشد ، فلا يبصرون الحق حقا ولا الباطل باطلا(١) •

وقوله تعالى : (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ••• الآية) •

اسم الاشارة (أولئـــك) يعود على المنـــافقين المذكورين من أول قوله تعالى (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر •• الآيات) ، وما فيـــه من معنى البعد فالاشـــارة الى بعد منزلتهم فى الشر وســـوء الحال •

والسر فى الاشارة اليهم والتعبير عنهم (بأولئك) تمييزهم وتوضيحهم بأكمل صـــورة وأجلى بيان ، اذ من المعروف عند علماء البلاغة أن اسم الاشارة اذا أشـــير به الى أشخاص وصفوا بصفات يلاحظ فيـــه ، تلك الصفات ، فهو بمنزلة اعادة ذكرها واحضـــارها فى أذهان المخاطبين ، فتكون تلك الصفات وهى هنـــا الكذب والمخادعة وما عطف عليها ، كأنها ذكرت فى هذه الآية مرة أخرى ليعرف بها علة الحكم الوارد بعد اســـم الاشارة ، وهو هنا اشتراء الضلالة بالهدى(٢) •

والاشتراء : كالشراء ، استبدال السلعة بالثمن أى أخذها به ، والمراد أنهم استبدلوا ما كره الله من الضلالة بما أحبه من الهدى •

والضـــلالة : الجور عن القصد ، والعدول عن الطريق المستقيـــم ،

---

(١) راجع التحرير والتنوير جـ ١ ص ٢٩٦ والتفسير الوسيط ص ٧٢ .

(٢) التفسير الوسيط جـ ١ ص ٧٨ •

ويضادها الهداية ، قال تعالى : (من اهتدى فانما يهتدى لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها) •

والهدى : التوجه الى القصد ، وتطلق الضلالة على العدول عن القصد والصواب فى الدين ، كما يطلق الهدى على الاستقامة عليه •

والباء فى قوله (بالهدى) باء العوض والمقابلة وهى تدخل على المتروك أبدا كما هنا[١] •

ومعنى (اشتروا الضلالة بالهدى) أى استبدلوها به والاشتراء هنا مجاز عن الاستبدال بمعنى أنهم لما تركوا الهدى وآثروا الضلال جعلوا بمنزلة المشترين لها بالهدى ، ثم رشح هذا المجز وقوى بقوله : فما ربحت تجارتهم فأسند الربح الى التجارة والمعنى : فما ربحوا فى تجارتهم[٢] •

أو يكون الاشتراء مجاز عن الاختيار لأن المشترى للشىء مختار له ، فكأنما قال : اختاروا الضلالة على الهدى •

وقوله (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى) لا يقتضى أنهم كانوا على هدى من ربهم فتركوه ، بل يكفى فيه أن يجعل تمكنهم من الهدى لقيام أدلته بمنزلة الهدى الحاصل بالفعل ، قال الرازى : فان قلت : كيف اشتروا الضلالة بالهدى وما كانوا على هدى ؟ قلنا : جعلوا لتمكنهم منه كأنه فى أيديهم فاذا تركوه ومالوا الى الضلالة فقد استبدلوها به[٣] •

وقوله تعالى : (فما ربحت تجارتهم) •

تخييل آخر قصد به نسيان التشبيه وأنه بيع وشراء حقيقة • وأن المشترين منهمكون فى تحصيل سلعتهم ويؤملون من ورائها الربح الكثير ،

---

(١) حاشية الجمل ج ١ ص ٢١ •
(٢) المصدر السابق •
(٣) التفسير الكبير ج ٢ ص ٧٢ •

فاذا هى كاسدة ، وكذلك حال المنافقين فانهم خسروا الدنيا وفضحهم الله وذكر أوصافهم ونصبها أعلاما عليهم تصاحبهم فى كل واد وناد •

وخسر الآخرة بشـــدة غضبه تعالى عليهم فكان ذلك توطئـــة لنفى حصـــول الابتداء لهم أبدا فى أى وقت من الأوقات وفى جميع الأحوال ، ومهما بذلت من نصح ومهما بينت لهم من حجة •

والربح : الزيادة على رأس المال والتجارة : ما يتعاطاه التاجر من بيع وشراء • واسناد نفى الربح عن تجارتهم مجاز عن خسرانهم هم •

وحكمة هذا الاسناد : بيان أن تجارتهم فى نفسها مما لا ترغب فيه النفوس وتنفر منه القلوب •

يقول الألوسى : وفى الآية ترشـــيح : والمقصد الأصلى تصـــوير خسارتهم بفوت الفوائد المترتبـــة على الهدى التى هى كالربح واضاعة الهدى الذى هو كرأس المال بصـــورة خسارة التاجر لربحه المضيع لرأس ماله ، وهذا على سبيل الاستعارة التمثيلية مبالغة فى تحسيرهم ووقوعهم فى أشنع الخسار الذى يتحاشى عنه أولوا الأبصار[١] •

قوله تعـــالى : (وما كانوا مهتدين) معطوف على قوله فما ربحت تجارتهم وهذه الجملة زيادة فى الترشـــيح ان جعلت معناها : وما كانوا مهتدين الى طرق التجارة الصحيحة •

وفى ذلك يقول البيضاوى :فان المقصود منها ،بسلامة رأس المال والربح وهؤلاء قد أضاعوا الطلبتين لأن رأس مالهم كان الفطرة السليمة والعقل الصرف فلما اعتقدوا هذه الضـــلالات بطل استعدادهم واختل عقلهم ولم يبق لهم رأس مال يتوسلون به الى درك الحق ونيل الكمال فبقوا خاسرين آيســـين من الربح فاقدين للأصـــل ، فمن كان هذا حاله لا يهتدى لشىء أبدا[٢] •

---

(١) تفسير الألوسى ج ١ ص ١٦٢ •
(٢) حاشية الشهاب على البيضاوى ج ١ ص ٣٦٢،٣٦٣ •

فى بيان حال المنافقين بضرب المثل :

قال الله تعالى :

(مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون • صم بكم عمى فهم لا يرجعون • أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين • يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه واذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم ان الله على كل شىء قدير) •

معانى المفردات :

قوله تعالى : (مثلهم كمثل الذى استوقد نارا) •

المثل : بتحريك الثاء ، ما يضرب ويوضع لبيان النظائر فى الأحوال •

وفى قوله تعالى : استوقد فيها قولان : أحدهما : أن السين زائدة أراد فلم يجبه وهذا قول الجمهور منهم الأخفش وابن قتيبة •

والثانى : أن السين داخلة للطلب ، أراد : كمن طلب من غيره نارا •

وفى (أضاءت) قولان : أحدهما : أنه من الفعل المتعدى •

والثانى : أنه من الفعل اللازم قال أبو عبيد : يقال : أضاءت النار ، وأضاءها غيرها ، وقال الزجاج : يقال : ضاء القمر ، وأضاء •

وفى (ما) قولان : أحدهما : أنها زائدة تقديره : أضاءت حوله •

والثانى : أنها بمعنى الذى •

وحول الشىء : ما دار من جوانبه • والهاء عائد الى المستوقد[1] •

---

(١) زاد المسير فى علم التفسير ج ١ ص ٤٠ •

قوله تعالى : (ذهب الله بنورهم) أى أذهبه ، جواب لما محذوف تقديره طفيت النار ، وذهب الله بنورهم ، جملة مستأنفة والضمير عائد على المنافقين فعلى هذا يكون (الذى) على بابه من الافراد ، والأرجح أنه أعيد ضمير الجماعة لأنه لم يقصد بالذى واحد بعينه ، وانما المقصود التشبيه بمن استوقد نارا سواء كان واحدا أو جماعة .

قوله تعالى : (وتركهم فى ظلمات لا يبصرون) .

وفى المراد بالظلمات هنا أربعة أقوال :

١ ـ العذاب قاله ابن عباس .

٢ ـ ظلمة الكفر . قاله مجاهد .

٣ ـ ظلمة يلقيها الله عليهم بعد الموت قاله قتادة .

٤ ـ أنها نفاقهم . قاله السدى .

قوله تعالى : (صم بكم عمى) . الصمم انسداد منافذ السمع ، وهو أشد من الطرش . وفى البكم : ثلاثة أقوال : أحدها : أنه الخرس ، قاله مقاتل وأبو عبيد وابن فارس . والثانى : أنه عيب فى اللسان لا يتمكن معه من النطق ، وقيل ان الخرس يحدث عنه . والثالث : أنه عيب فى الفؤاد يمنعه أن يعى شيئا فيفهمه ، وهذه الأوصاف مجاز عبارة عن عدم انتفاعهم بحواسهم من السمع والبصر والكلام .

قوله تعـالى : (فهم لا يرجعـون) معناه لا يرجعون الى الهـدى ولا يهتدون الى الطريق .

قوله تعالى : (أو كصيب) . عطف على الذى استوقد ، والتقدير : أو كصاحب صيب أو للتنـويع لأن هذا مثـل آخر ضربه الله للمنافقين ، والصيب : المطر وأصله صيوب ، ووزنه فيعل ، وهو مشتق من قولك صاب يصوب .

قوله تعالى : (من السماء) • اشارة الى قوته وشدة انصبابه •

قال ابن مسعود : ان رجلين من المنافقين هربا الى المشركين فأصابهما هذا المطر وأيقنا الهلاك فعزما على الايمان فضرب الله ما أنزل فيهما مثــلا للمنافقين حيث حسن اسلامهما بعد ذلك •

وقيل المعنى : تشبيه المنــافقين فى حيرتهم فى الدين وفى خوفهم على أنفسهم بمن أصابه مطر فيه ظلمات ورعد وبرق ، فضل عن الطريق وخاف الهلاك على نفســه ، وهذا التشبيه على الجملة ، وقيل ان التشبيه على التفصيل ، فالمطر مثل للقرآن والاسلام والظلمات مثل لما فيه من الاشكال على المنافقين ، والرعد مثل لما فيه من الوعيد والزجر لهم ، والبرق مثل لما فيه من البراهين الواضحة •

قوله تعالى : (يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق) • أى : من أجل الصواعق ، قاله ابن مسعود : كانوا يجعلون أصابعهم فى آذانهم لألايسمعوا القرآن فى مجلس النبى صلى الله عليه وسلم ، فهو على هذا حقيقة فى المنافقين •

والصواعق على هذا ما يكرهون من القرآن والموت هو ما يتخوفونه فهما مجازان ، وقيل لأنه راجع لأصحاب المطر المشبه بهم فهو حقيقة فيهم والصواعق على هذا حقيقــة ، وهى التى تكون من المطر من شدة الرعد ونزول قطعة نار ، والموت أيضا حقيقة ، وقيل انه راجع للمنافقين على وجه التشبيه لهم فى خوفهم بمن جعل أصابعه فى آذانه من شدة الخوف من المطر والرعد •

قوله تعــالى : (والله محيط بالكافرين) • أى : لا يفوتونه بل هم تحت قهره وهو قادر على عقابهم •

قوله تعالى : (يخطف أبصارهم) • إن رجع الى أصحاب المطر وهم

الذين شبه بهم المنافقين : فهو بين فى المعنى ، وان رجع الى المنافقين : فهو تشبيه بما أصابه البرق ، على وجهين : أحدهما : تكاد براهين القرآن تلوح لهم كما يضىء البرق ، وهذا مناسب لتمثيل البراهين بالبرق حسبما تقدم ، والآخر : يكاد زجر القرآن ووعيده يأخذهم كما يكاد البرق يخطف أبصار أصحاب المطر المشبه بهم •

قوله تعالى : (كلما أضاء لهم مشوا فيه) ان رجع الى أصحاب المطر فالمعنى أنهم يمشون بضوء البرق اللامع اذا لاح لهم ، وان رجع الى المنافقين فالمعنى أنه يلوح لهم من الحق ما يقربون به من الايمان •

قوله تعالى : (واذا أظلم عليهم قاموا) • ان رجع الى أصحاب المطر فالمعنى أنهم اذا زال عنهم الضوء وقفوا متحيرين لا يعرفون الطريق ، وان رجع الى المنافقين : فالمعنى أنه اذا ذهب عنهم ما لاح لهم من الايمان ثبتوا على كفرهم ، وقيل : ان المعنى كلما صلحت أحوالهم فى الدنيا قالوا : هذا دين مبارك ، فهذا مثل الضوء ، واذا أصابتهم شدة أو مصيبة عابوا الدين وسخطوا : فهذا مثل الظلمة •

قوله تعالى : (ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم ان الله على كل شىء قدير) •

ان رجع الى أصحاب المطر : فالمعنى لو شاء الله لأذهب سمعهم بالرعد وأبصارهم بالبرق ، وان رجع الى المنافقين : فالمعنى لو شاء الله لأوقع بهم العذاب والفضيحة ، وجاءت العبارة عن ذلك باذهاب سمعهم وأبصارهم والباء المتعدية[1] •

---

(١) المصدر السابق والتسهيل لعلوم التنزيل جـ ١ ص ٦٨، ٦٩ •

التفسير التحليلى

مناسبة الآيات لما قبلها :

أعقبت تفاصيل صفاتهم بتصوير مجموعها فى صورة واحدة بتشبيه حالهم بهيئة محسوسة وهذه طريقة تشبيه التمثيل ، الحاقا لتلك الأحوال المعقولة بالأشياء المحسوسة لأن النفس الى المحسوس أميل •

واتماما للبيـان بجمع المتفرقات فى السـمع ، المطالة فى اللفظ ، فى صورة واحدة لأن للاجمال بعد التفصيل وقعا من نفوس السامعين •

وتقريرا لجميع ما تقدم فى الذهن بصورة تخالف ما صور سالفا لأن تجدد الصورة عند النفس أحب من تكررها •

قال فى الكشاف : ولضرب العرب الأمثال واستحضار العلماء المثل والنظائر شأن ليس بالخفى فى ابراز خبيات المعانى ورفع الأستار عن الحقائق حتى تريك المتخيل فى صـورة المحقق والمتوهم فى معرض المتيقن والغائب كالمشاهد[١] •

واستدلالا على ما يتضمنه مجموع تلك الصفات من سـوء الحالة وخيبة السعى وفساد العاقبة ، فمن فوائد التشبيه قصد تفظيع المشبه •

وتقريبا لما فى أحوالهم فى الدين من التضاد والتخالف بين ظاهر جميل وباطن مستقبح بصفة حال عجيبة من أحوال العالم فان من فائدة التشبيه اظهار امكان المشبه ، وتنظير غرائبه بمثلها فى المشبه به •

قال فى الكشاف : ولأمر ما أكثـر الله تعالى فى كتابه المبين أمثـاله

---

(١) الكشاف للزمخشرى جـ ١ ص ٢٤٨ •

وفشت فى كلام رسوله صلى الله عليه وسلم وكلام الأنبياء والحكماء قال تعالى (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون)[1] •

والتمثيل منــزع بديع من منازع البلغاء لا يبلغ الى محاسنه غــير خاصتهم •

والمراد : أنه بعــد ان وصف الله تعالى حال المنــافقين فى الآيات لسابقة وبين حقيقتهم عقب ذلك بضرب المثل زيادة فى التوضيح والتقرير والتشنيع عليهم ، فســاق فى هذه الآيات مثلين لتوضيح سوء تصرفهم ، وشدة حيرتهم واضطرابهم فقال تعالى (مثلهم كمثل الذى استوقد نارا) •• الآيات •

وأصل المثل بفتحتين هو النظير والمشــابه ، ويقال أيضا مثل بكسر الميــم وسكون الثاء ، ويقال مثيــل كما يقال شبه وشبه وشبيه ، وبدل وبديل ، ولا رابع لهذه الكلمات فى مجىء فعل وفعل وفعيل بمعنى واحد •

وقد اختص لفظ المثل (بفتحتين) باطلاقه على الحال الغريبة الشأن لأنها بحيث تمثل للناس وتوضح وتشبه ســواء شبهت كما هنا ، أم لم تشبه كما فى قوله تعالى (مثل الجنة) •

وباطلاقه على قول يصــدر فى حال غريبة فيحفظ ويشيع بين الناس لبلاغة وابداع فيه ، فلا يزال الناس يذكرون الحال التى قيل فيها ذلك القول تبعا لذكره وكم من حالة عجيبة حدثت ونسيت لأنها لم يصدر فيها من قول بليغ ما يجعلها مذكورة تبعا لذكره فيسمى مثلا وأمثال العرب باب من أبواب بلاغتهم وقد خصت بالتأليف ويعرفونه بأنه قول شبه مضربه بمورده •

وأمثال القرآن التى ضربها الله تعالى للناس كلها ليس لها مورد وردت فيه وقصــة ذكرت بسببها بل هى مجازات أو استعارات تمثيلية تنوعت

---

(١) المصدر السابق •

أساليبها تبعا لتنوع الأغراض التى ساقها الله لها والأحوال والصفات التى ضربها الله لتوضيحها •

ويستعار المثل للحال والصفة والقصة اذا كان لها شأن وفيها غرابة فكأنه قيل :

مثل حال هؤلاء المنافقين وصفتهم العجيبة الشأن كمثل الذى نارا والضمير فى قوله : (مثلهم) راجع الى المنافقين الذين ذكرت أحـ فى الآيات السابقة •

وقولـه : (الذى استوقد نارا) معناه : الذين لأن المراد تشبيه حالهم بحال المستوقدين والذى حمل على تفسير الذى بالذين أن الضمائر فى هـذه الآية ذكرت مفردة تارة كمـا فى قوله : (استوقد نارا) (ما حوله) وتارة بالجمع كما فى قوله (ذهب الله بنورهم) فهى مفردة باعتبار لفظ الذى ومجموعة باعتباره ومعناه •

وقوله (استوقد نارا) أى ضاعف وقودها وبالغ فيـه حتى زاد سطوعها فالسين والتاء أفادتا معنى المضاعفة ، واستوقد أصله وقد ووقودة النار سطوعها وقوة ضوئها •

والنار : جوهر لطيف مضىء حار محرق واشتقاقها من نار ينور اذا نفر لأن فيهـا حركة واضطرابا • ونون نارا لبيـان جهاد مستوقدها فى استيقادها ومبلغ تعبه فى ذلك حتى قوى سطوعها ولبيان خيبة أمله عند انطفاء ضوئها •

والفاء : فى قوله (فلما) لترتب الاضـاءة على الاستيقاد (ولما) ظرف زمان بمعنى حين وهى كاذا فى افادة معنى الظرفيـة وهى مخفوضة بشرطها منصوبة بجوابها •

والاضاءة : فرط الانارة ، قال تعالى : (هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا) سمى القمر نورا فى مقابلة ضياء الشمس •

والضمير فى قوله (أضاءت) راجع الى النار .

و (ما) اسم موصول بمعنى الذى أو نكرة موصوفة والتقدير فلما أضاء شيئا ثابتا حوله .

و (حوله) ظرف مكان وهو ملازم النصب ومعنـاه كما قال بعض أهل اللغة :

الطواف والاحاطة ومنه قيل للعام حولا لأنه يحيط بكل فصـوله ، كأنه قيل : فلما أضاءت النـار ما حول المستوقد من جهات واطمأن بذلك فوجىء بذهاب النور وبقى خابطا فى الظلمات لا يبصر ولا يهتدى وجواب (لما) ذهب الله بنورهم .

والنـور : ضوء النار وضوء كل نير ، وجمع الضمير فى (نورهم) نظرا لمعنى الذى .

وقولهم : ذهب فلان بفلان ، أى : استصحبه ومضى به .

واستصحاب النـور فى قوله تعالى (ذهب الله بنورهم) غير لائق بجنابه جل وعلا وانما المعنى أخذ الله بنورهم وأمسكه وما يمسـك فلا مرسل له من بعده .

وانما قال : (ذهب الله بنورهم) ولم يقل بنارهم لأن النور أعظم منافعها ولأنه المناسب للمقام سياقا ولحاقا ، ولم يقل ذهب الله بضوئهم لأن الضوء فرط الانارة ، فلو قصـد لكان المعنى : أن الذاهب هو زيادة النور مع بقاء أصله مع أن المقصود فى الآية ذهاب نورهم كلية .

وقوله تعالى : (وتركهم فى ظلمات لا يبصرون) .

يعنى طرحهم فى الظلمـات وأبقاهم فيها حيـارى لا يعرفون كيف يخرجون ، أو أنه صيرهم فى الظلمات فلا تألف قلوبهم غيرها .

وترك بمعنى : طرح وخلى اذا تعدى الى مفعول واحــد فاذا تعدى الى مفعولين كان مضمنا معنى صير •

والظلمــات : جمع ظلمة ، والظلمة عرض ينافى النور ، ونكر ظلمات وجمعها للدلالة على شدة كثافتها بحيث لا يتراءى فيها شبحان •

وأسند سبحانه وتعالى ذهاب النور عنهم اليه للدلالة على شدة غضبه عليهم وفرط انتقامه منهم •

وفى التعبير بقوله تعالى (وتركهم فى ظلمات) ايماء الى بعد رحمته لهــم وتوالى الآفات على قلوبهم ومشــاعرهم مما يحول بينهــم وبين الايمان •

وعدد (ظلماتهم) اشارة الى ظلمة الكفر وظلمة النفاق وظلمة يوم القيامة •

وشبهت حالهم بحال المستوقد الذى ذهب الله بنوره ولم يكن فيهم نورا أصــلا ايماء الى ما انتفعوا به بقولهم آمنا فانهم بذلك القول حقنوا دماءهم وأموالهم ، وشاركوا المسلمين فى بعض الغنائم وهو نفع قليل لم يدم تمتعهم به وانما فضحهم الله وكشف أمرهم تماما كحال المســتوقد الذى ما كاد ينتفع بالضوء حتى انطفأت ناره وبقى متحيرا لا يدرى ماذا يفعل وما كان لهؤلاء المنــافقين ايمان صحيح ولا اهتداء فى أى وقت من الأوقات •

فأنت ترى بعد ما تناولته من تفسير هذه الآية أنها مثل محســوس أبرز الله به حال المنافقين وما انتهى اليه أمرهم •

وقوله تعالى (لا يبصرون) فيــه مزيد توضيح لشدة الظلمات التى تركوا والمراد به نفى الابصار عنهم أصــلا وكيف أنه جعل بينهم وبين الهدى كالذى خلق بلا عينين أنه لا يدرى كيف يسير بين طريق معبد وطريق منحدر بل هو دائم التخبط •

فالآية اذا : تقرير لأحوالهم السابقة وابراز لها فى صورة محسوسة ولذا لم يذكر بينها وبين الآية السابقة عاطف لما بينهما من شدة الاتصال •

وقد ذكر الامام النسفى تفسيرا آخر :

قال : وللآية تفسير آخر وهو وهو أنهم لما وصفوا بأنهم اشتروا الضلالة بالهدى عقب ذلك بهذا التمثيل ليمثل هداهم الذى باعوه بالنار المضيئة ما حول المستوقد ، والضلالة التى اشتروها بذهاب الله بنورهم وتركه اياهم فى الظلمات[1] •

ولما ضرب المثل لحال المنافقين وما هم عليه من أوصاف تميزوا وتخصصوا بها وما انتهى اليه أمرهم ومآلهم جعلهم بمنزلة الصم الذين لا يسمعون والبكم الذين لا يتكلمون والعمى الذين لا يبصرون وأنهم عن الغى والضلالة لا يقلعون والى الهدى لا يرجعون فقال :

(صم بكم عمى فهم لا يرجعون) •

فقوله (صم) وأخويه أخبار لمبتدأ محذوف تقديره هم كالصم وكالبكم وكالعمى والضمير المقدر عائد على المنافقين المشبه حالهم بحال المستوقد ، وفى الآية تشبيه بليغ لحذف المشبه والأداة وهذه الآية كما يقول البيضاوى : (فذلكة التمثيل ونتيجته فان حالهم المضروب له المثل وسعيهم الخاسر أداهم الى فقد الحواس والقوى ووقوعهم فى قفار لا يرجع من ضل فيها •

و (صم) جمع أصم ، والصمم أصله الصلابة ، بمعنى اكتناز الأجزاء وشدة انضمام بعضها الى بعض وبهذا المعنى قيل حجر أصم ، وأطلق على فقدان حاسة السمع لاكتناز باطن صماخ الأذن وانسداده •

---

(١) تفسير النسفى جـ ١ ص ٢٤ •

و (البكم) : جمع أبكم وهو الأخرس الذى لا ينطق أصلا •

و (العمى) : عدم البصر بذهاب ضوء العين • و (عمى) جمع أعمى وهو الذى لا يبصر •

والفاء فى قوله (فهم لا يرجعون) لترتب عدم الرجوع على وصفهم بالصمم والبكم والعمى •

والمعنى : لا يرجعون الى الهدى الذى باعوه وضيعوه أو عن الضلالة التى اشتروها ، ورجع تتعدى بنفسها تارة وبعن اذا كان معناها الترك ، من قولهم رجع عن كذا : أى تركه وبالى بمعنى عاد من قولهم رجعت الى كذا أى : عدت اليه •

ويجوز أن يكون معنى (فهم لا يرجعون) أنهم متحيرون جامدون فى أماكنهم لا يبرحون ولا يدرون أيتقدمون أم يتأخرون •

ثم ثنى الله سبحانه وتعالى فى شأنهم بضرب مثل آخر لزيادة الكشف والايضاح[1] فقال جل ذكره :

(أو كصيب من السماء فيــه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصــواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين • يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه واذا أظلم عليهم قاموا ، ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم ان الله على كل شىء قدير) •

ثنى الله ســبحانه وتعالى فى شأنهم بتمثيــل آخر لزيادة الكشف والايضاح شبه المنافق فى التمثيل الأول بالمستوقد نارا ، واظهاره الايمان بالاضاءة ، وانقطاع انتفاعه بانطفاء النــار ، وهنا شبه دين الاســلام بالصيب لأن القلوب تحيا به حياة الأرض بالمطر ، وما يتعلق به من شبه الكفار بالظلمات وما فيــه من الوعد والوعيد بالبرق والرعد ، وما يصيبهم من الأفزاع والبلايا من جهة أهل الاسلام بالصواعق •

(١) راجع تفسير الالوسى جـ ١ ص ١٥٩ والمنتخب فى التفسير ص ٨٢ .

والمعنى : أو كمثل ذوى صيب فحذف مثل أى المشبه لدلالة العطف عليــه ، أى على هذا المحذوف لأن قوله : أو كصيب معطوف على قوله مثلهم كمثل الذى استوقد نارا وذوى لدلالة يجعلون عليه أى : يريد أن الشــبه به فى هذا التمثيل جماعة لا مفرد قدر ذلك بقوله أو كمثل صيب وكما استدل على حذف المشبه بدلالة العطف استدل على كون المشبه به جمعا بتقدير ذوى صيب بواو الجماعة ، فى قوله يجعلون أصابعهم اذ لو كان المشــبه به مفردا لقال يجعل أصابعه عودة الى النص والمراد كمثل قوم أخذتهم الســماء بهذه الصفة فلقوا منها ما لقوا فهذا تشــبيه أشياء بأشياء •

ثم لما وصف وقوع المنافقين فى ضلالتهم وما خبطوا فيــه من الحيرة والدهشــة : شبهت حيرتهم وشدة الأمر عليهم بما يكابد من طفئت ناره بعد ايقادها فى ظلمة الليل وكذلك من أخذته السماء فى الليلة المظلمة مع رعد وبرق وخوف من الصواعق •

والتمثيل الثانى أبلغ لأنه أدل على فرط الحيرة وشــدة الأمر واذا أخر ، وهم يتدرجون فى مثل هذا من الأهون الى الأغلظ •

وعطف التمثيل الثانى على الأول (بأو) لأنها فى أصلها لتســاوى شيئين فصاعدا فى الشك عند البعض ثم استعيرت لمجرد التساوى كقولك جالس الحسن أو ابن سيرين يريد أنهما سيان فى استصواب أن يجالسا ، وقوله تعالى (ولا تطع آثما أو كفورا) أى الآثم والكافر سيان فى وجوب العصــيان فكذا هنا معناه أن كيفية قصــة المنافقين مشبهة لكيفية هاتين القصــتين ، وأن الكيفيتين سواء فى اســتقلال كل منهما بوجه التمثيل فبأيتهما مثلتها فأنت مصيب وان مثلتها بهما جميعا فكذلك[1] •

---

(١) تفسير النسفى ج ١ ص ٢٦،٢٥ •

والصيب : المطر الذى يصوب أى ينزل ويقع •

وقد دل بناء هذه الصيغة مع تنكيرها على غزارة هذا المطر وشدة توالیه ، واستمراره ، وهذا رمز لتتابع الوحى على النبى صلى الله عليه وسلم مما أزعج المنافقين وأصاب قلوبهم بالهلع كاصابة هذا المطر الشديد من نزل عليه •

وقد يطلق الصيب على السحاب باعتبار أنه سبب فى المطر أو مؤذن به •

والسماء لغة : كل ما علاك والمراد بها هنا السماء المظلة أو الأفق وانما ذكر السماء معرفة بأل مع أن المطر لا يكون الا من جهتها لبيان هطول المطر من جميع أرجائها •

و (من) فى السماء للبيان ، وفى كون المطر من جميعها روعة فى الأسلوب لما فيه من التوطئة والتمهيد لقوله تعالى (فيه ظلمات ورعد وبرق) •

وليس معنى قوله (من السماء) أن المطر لا ينزل الا منها مع أن المشاهدة قاضية بنزول المطر من السحب بعد انعقادها من الأبخرة ، وانما المراد بيان أن المطر يأتى من جهتها •

و (فى) فى قوله (فيه ظلمات) بمعنى (مع) أى : كصيب مصاحب للظلمات •

ويجوز أن تكون للظرفية على معنى أن المطر سبب هذه الظلمات ، والمراد بالظلمات ظلمة تكاثفة بتتابعه وظلمة غمامة مع ظلمة الليل •

ونكر ظلمات لبيان أطباقها وشدة تكاثفها بحيث اذا أخرج المرء يده لم يكد يراها •

والرعد : الصوت الذى يسمع من السحاب لاصطكاك أجرامه •

والبرق : الذى يلمع من السحاب من برق الشىء بريقا اذا لمع •

ولم يجمع رعد وبرق كما جمع (ظلمات) لأنهما لا يتنوعان ولأنهما مصدر والمصادر لا تجمع ، ونكر (رعدا) لبيان أنه من فرط شدته يكاد يصم ، الآذان ، وكذلك نكر (برقا) لأنه لشدة توهجه يكاد يخطف الأبصار ، وعطفهما على ظلمات لبيان شدة الهول وفظاعة الخطب .

وجملة : (يجعلون أصابعهم) استئناف لا محل لها من الاعراب ، والضمائر عليه تقديره ، أو كمثل دوى صيب وهذه الجملة جواب لسؤال نشأ من الكلام كأنه قيل : وماذا فعل هؤلاء لوقاية أنفسهم من هذا الهول . فقال : يجعلون أصابعهم فى آذانهم[1] .

وفى قوله تعالى (يجعلون أصابعهم) بيان لاضطرابهم وفرط دهشتهم بنسبة الجعل الى كل الأصابع مع أن المقصود أناملها ، كما أن استعمالهم لكل أصابعهم دليل على الدهشة وعدم الدقة بسبب ما أصابهم لأن غلق الآذان لا يحسن بكل الأصابع .

و (من) تعليلية تغنى عن اللام فى المفعول لأجله ، وهى تدخل على الباعث المتقدم وهو هنا الصواعق والغرض المتأخر .

و (الصواعق) جمع صاعقة وهى جسم نارى ينطلق من ناحية السماء ونارها سريعة الخمود ولا تمر بشىء الا أتت عليه ولكنها تصيب بعض الأجسام دون بعض بسبب سرعة خمودها .

(حذر الموت) : أى خوف الموت ، والحذر شدة التوقى والاحتياط .

و (الموت) : انقضاء الحياة ، وهو أمر وجودى لا عدمى ، وهذا هو الأرجح وهو الموافق للأحاديث التى أخبرت بنعيم القبر وعذابه فلو كان الأمر عدميا ما اتصف الميت بنعيم أو بعذاب ، ومما يقوى أنه أمر

---

(١) راجع تفسير الالوسى جـ ١ ص ١٦٠ .

وجودى قوله تعالى (الذى خلق الموت والحياة) ، اذ العدم لا يتعلق به خلق ، وقد وردت السنة بالســـلام على الموتى وخطابهم وأنهم يسمعون وان كنا لا نشعر بهم •

وقوله تعالى (والله محيط بالكافرين) جملة اعتراضية زيلت بها هذه الآية لبيـــان احاطته الله تعالى بهم ، وأن احتياطهم لا يغنيهم ، وأنهم لا يفوتونه ، وذكر احاطته هنا للكافرين وخصصهم بوصف الكفر مع أنه بكل شيء محيط لبيان شدة انتقامه منهم وعظيم غضبه عليهم وأن كفرهم لا يفيدهم الا الخسران فى الدنيا والآخرة •

واحاطة الله تعالى بهم مجاز بالاستعارة تشبيها لحالة قدرته الكاملة التى لا يفوتها المقدور أصلا باحاطة المحيط بالمحاط بحيث لا تفوته[1] •

وقوله (يكاد البرق) استئناف بيانى جواب عن سؤال انقدح فى قلب من طالع ماأحاط بهؤلاء من الأهوال ، فكما سأل عن حالهم مع الظلمات والرعد والبرق سأل عن حالهم مع البرق خاصة باعتبار أن جواب السؤال المقدر فى قوله تعالى (يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق) بيان لمحاولة توقيهم أثر الرعد وفى هذا الجواب بيان لحالهم مع البرق •

و (يكاد) مضارع كاد وهو من أفعال المقاربة التى تدل على قرب وقوع الخبر ولما يقع وانما تدل أفعال المقاربة على وقوع الخبر لوجود أسبابه ولا تدل على وقوعه بالفعل لوجود مانع من هذا الوقوع أو لفقد شرط يمتنع بسببه الوقوع •

و (أل) فى البرق للعهد •

وجملة (يخطف أبصارهم) خبر (يكاد)

والخطف : الاستلاب والأخذ بسرعة ، وفيـــه استعارة تبعية حيث

---

(١) انظر المنتخب فى التفسير ص ٨٥ .

شبه أثر البرق وشدته فى هؤلاء بخطف الخاطف ، وتصوير البرق بشخص يخطف •

وخبر كاد يكون فعلا مضارعا دائما لافادة الفعل المضارع القرب •

وجملة (كلما أضاء لهم مشوا فيه واذا أظلم عليهم قاموا) استئناف ثالث كأنه لما قيل انهم مبتلون باستمرار تجدد خطف الأبصار فهم منه أنهم مشغولون بفعل ما يحتاج الى الأبصار ساعة فساعة والا لغطوها كما سدوا الآذان ، فسئل : وقيل ما يفعلون فى حالتى وميض البرق وعدمه ؟ فأجيب بأنهم حراص على المشى كلما أضاء لهم اغتنموه ومشوا واذا أظلم عليهم توقفوا مترصدين •

و (كلما) ظرف منصوب (يمشوا) الذى هو كالجواب له فى المعنى وهى تدخل على جملتين فعليتين ومعناها التكرار •

و (ما) بعدها مصدرية أو نكرة موصوفة والتقدير المعنيين (لما) كل اضاءة تحصل لهم مشوا فيها أو كل وقت يضىء لهم البرق مشوا فيه •

وهى هنا مستعملة فى لازم معناها وهو الحرص والمحبـة أى كلما أضاء لهم البرق حرصوا على اغتنام المشى فى هذا الضوء •

وقوله (مشوا فيـه) للاشارة الى ضعف قواهم لمزيد خوفهـم ودهشتهـم ، لأن من أحاط به الهول يسرع فى طلب النجـاة لكن هؤلاء لا يقدرون •

كما أن قولهم مشوا فيه ينبىء عن تخبطهم فى المشى ، لأن البرق قد يضىء مكانا لا يصلح للمشى •

ومعنى (أظلم عليهـم) اختفى عنهم ، و (قاموا) أى وقفـوا عن المشى •

وقوله (ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم) :

عطف على مجموع الجمل الاستئنافيـة ولم يعطفوها على أقـرب مذكور لأنها ليست داخلة فى التمثيل وانما هى اخبار بقدرة الله على اذهاب أسماع المنافقين وأبصارهم مع محاولتهم حمايتها •

وقد شـاع حذف المفعول مع (شاء) و (أراد) اذا وقعت شرطا وخصوصا بعد (لو) و (لو) من حروف الشرط وهى موضوعة لامتناع جوابها لامتناع شرطها ، أى هى لنفى الشرط والجواب مع تعليل الجواب بالشرط •

وفائدة هذه الجملة ابداء المانع لذهاب سمعهم وأبصارهم مع قيـام ما يقتضيه •

أى : أن الرعد والبـرق مع شدتهما لم يذهبا بأسـماع المنافقين وأبصارهم لأن مشيئة الله لم تتعلق بذلك •

وهذا يدل على أن تأثير الأسباب فى مسبباتها مرهون بمشيئته تعالى وأن وجود المسببات مرتبط بأسبابها واقع بقدرته تعالى •

ثم ختم الآية بقوله : (ان الله على كل شىء قدير) •

ليقرر بهذا الختام ما سـبق من امتناع ذهاب أسماعهم وأبصارهم لأن مشيئته تعالى لم تتعلق بذلك لأن قوله (ان الله على كل شىء قدير) عموم يتناول ذلك وغيره مما تعلقت به قدرة الله تعالى فيدخل فيه ما سبق دخولا أوليا[1] •

وكأن هـذا التذييل برهان ودليل على قدرته على ذهاب أسـماعهم وأبصارهم لأن القادر على الكل قادر على البعض •

والشىء مصدر شـاء بمعنى الموجود حقيقة أو حكما ، فان أطلق

(١) انظر تفسير الالوسى جـ ١ ص ١٦٢ •

وأريد به اسم الفاعل فهو متناول للبارى جل وعلا لأنه هو الذى شاء وأراد ولا تقوم المشيئة على الحقيقة الا به واذا أطلق بمعنى المشىء أى اسم المفعول أريد به ما وجد حقيقـــة وما تعلقت قدرة الله تعالى بايجاده وان تأخر زمن وجوده •

و (قدير) بمعنى قادر وهو الفعال لما يشـــاء على قدر ما تقتضيه الحكمة وقلما يطلق على غيره سبحانه وتعالى و (قدير) من القدرة وهى مشتقة من القدر بمعنى التحديد والتعيين[١] •

---

(١) راجع المنتخب فى التفسير ص ٨٨ .

فقـه الآيات[1]

رأينا القـرآن الكريم يتحدث فى المدنى خاصة عن طائفة ثالثة أطلق عليها اسم (المنافقين) وهم الذين فسد باطنهم كالكافرين ، ولكنهم ظهروا بين المسلمين كالمسلمين : قالوا كلمة التوحيد كما يقولون ، وصلوا كما يصلون وظنوا أنهم يخادعون الله ورسوله والمؤمنين •

ولم تظهر هذه الطائفة الا فى المدينـة حيث تكون المسلمون وقويت شوكتهم ، وأخافوا غيرهم ، فضعفت طائفة عن المجاهرة بالكفر والعناد فكتموه فى نفوسهم •

وعن هؤلاء ساقت سورة البقرة فى هذا المقام ثلاث عشرة آية بينت فيها حقيقتهم وخواصهم وخطتهم فى الحياة،وضربت لحيرتهم واضطرابهم بين ما يظهروا من ايمان وما يبطنون من كفر مثلين واضحين فى تصـوير حالهم[2] •

تبدأ الآيات بقوله تعالى :

(ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين) •

كما ذكرنا فان صفات المنافقين انما نزلت فى السـور المدنية • لأن مكة لم يكن فيها نفاق ، فلما هاجر رسـول الله صلى الله عليه وسلم الى المدينـة وكان بها الأنصـار من الأوس والخزرج ، وكانوا فى جاهليتهم يعبدون الأصنام على طريقة مشركى العرب ، وبها اليهود من أهل الكتـب وهم ثلاث قبائل : (بنو قينقاع حلفاء الخزرج ، وبنو النضير ، وبنو قريظة حلفاء الأوس) •

---

(١) رأينا أن تدرس الآيات التى تتحدث عن المنافقين دراسة متكاملة فى فقه الآيات ولذلك لم نفرد كل مجموعة منها بالحديث عنها .

(٢) تفسير القرآن الكريم للشيخ محمود شلتوت ص ٧٠ .

فلما قدم رســول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وأسلم من أسلم من الأنصار ، وقل من أسلم من اليهود ، ولم يكن اذ ذاك نفاق أيضا لأنه لم يكن للمسلمين بعد شوكة تخاف ، بل كان عليه الصلاة والسلام وادع اليهود وقبائل كثيرة فلما كانت وقعة بدر العظمى وأظهر الله كلمته وأعز الاسلام وأهله ، قال عبد الله بن أبى ابن سلول وكان رأسا فى المدينة وهو من الخزرج وكان ابن سيد الطائفتين فى الجاهلية ، وكانوا قد عزموا على أن يملكوه عليهم فجاءهم الخبر ، وأســلموا ، واشتغلوا عنه ، فبقى فى نفسه من الاسلام وأهله •

فلما كانت وقعة بدر ، قال : هذا أمر قد توجه •

فأظهر الدخول فى الاسلام ودخل معه طوائف ممن هو على طريقته ونحلته ، وآخرون من أهل الكتاب ، فمن ثم وجد النفاق فى المدينة ومن حولها من الأعراب •

ثم يوضح الله تعالى صفات المنافقين :

(يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون الا أنفسهم ومايشعرون) والمخادعة استعمــال الخدع من الجانبين وهو اظهار الخــير واستبطان الشر •

ومخادعة الله مخادعة رسوله لقوله (من يطع الرسول فقد أطاع الله) •

فخداعهم لله وللمؤمنين اظهار الايمان والمحبــة ، واستبطان الكفر والعداوة[1] •

وقد نبه الله سبحانه على صفات المنافقين ، لألايغتر بظاهر أمرهم المؤمنون ، فيقع بذلك فساد عريض من عدم الاحتراز منهم ، ومن اعتقاد

---

(١) راجع محاسن التأويل للقاسمى ج ١ ص ٤٢ .

ايمانهم ، وهم كفار في نفس الأمر وهذا من المحذورات : أن يظن بأهل الفجور خير • ثم ان قول من قال : كان عليه الصلاة والسلام يعلم أعيان بعض المنافقين — انما مستنده حديث حذيفة بن اليمان في تسمية أولئك الأربعة عشر منافقا في غزوة تبوك الذين هموا أن يفتكوا برسول الله صلى الله عليه وسلم في ظلماء الليل عند عقبة هناك ، عزموا على أن ينفروا به الناقة ليسقط عنها فأوحى الله اليه أمرهم ، فأطلع على ذلك حذيفة[1] •

فأما غير هؤلاء فقد قال الله تعالى :

(وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينـــة مردوا على النفاق لا تعلمهم[2] •

وقال تعـــالى (لئن لم ينته المنافقون ، والذين في قلوبهـــم مرض ، والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ، ثم لا يجاورونك فيها الا قليلا) •

ففيها دليـــل على أنه لم يغريهم ولم يدرك أعيانهم ، وانما تذكر له صفاتهم فيتوسمهـــا في بعضهم كما قال تعالى : (ولو نشـــاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ، ولتعرفنهم في لحن القول ، والله يعلم أعمالكم)[3] وقد كان من أشهرهم بالنفاق عبد الله بن أبى بن سلول •

واستند غير واحد من الأئمة في الحكمة عن كفه صلى الله عليه وسلم عن قتل المنافقين بما ثبت في الصحيحين أنه صلى الله عليه وسلم قال لعمر رضى الله عنه (أكره أن يتحدث العرب أن محمدا يقتل أصحابه) •

---

(١) يشير الى الحديث الذى رواه مسلم في صحيحه في : ٥٠ــ كتاب صفات المنافقين واحكامهم — حديث ١١،١٠،٩ .

(٢) سورة التوبة آية : ١٠١ .

(٣) سورة محمد آية : ٣٠ .

ومعناه خشية أن يقع بسبب ذلك تنفير لكثير من الأعراب عن الدخول فى الاسلام ، ولا يعلمون حكمة قتلهم — بأنه لأجل كفرهم — فانهم انما يأخذونه بمجرد ما يظهر لهم ، فيقولون : ان محمدا يقتل أصحابه[1] •

وبصفة عامة فهؤلاء الناس ما يخدعون الا أنفسهم ، بازدياد الظلمة والكفر والنفاق واجتماع أسباب الهلكة والبعد والشقاء •

وهم من غاية تعمقهم فى جهلهم لا يحسون بذلك الأمر الظاهر •

ثم يذكر الله تعالى عن المنافقين أيضا :

(فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون) •

والمرض : السقم ، وهو نقيض الصحة بسبب ما يعرض للبدن ، فيخرجه عن الاعتدال اللائق به ، ويوجب الخلل فى أفاعيله • استعير هنا لعدم صحة يقينهم ، وضعف دينهم — وكذا توصف — قلوب المؤمنين بالسلامة التى هى صحة اليقين ، وعدم ضعفه ، كما قال تعالى (الا من أتى الله بقلب سليم)[2] •

أو استعير لشكهم ، لأن الشك تردد بين الأمرين وكذلك حال المنافق كما فى الحديث : (مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين)[3] ، والمريض متردد بين الحياة والموت •

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٨٨ •

(٢) سورة الشعراء آية : ٨٩ •

(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه فى : ٥٠ــ كتاب صفات المنافقين وأحكامهم حديث ١٧ •

والعائرة : المترددة والحائرة •

فكانت النتيجة : أن زادهم الله مرضا آخر — حقدا وحسدا وغلا — بإعلاء كلمة الدين ، ونصرة الرسول والمؤمنين .

والرذائل كلهـا أمراض القلوب ، لأنها أسـباب ضعفها وآفتها فى أفعالها الخاصة ، وهلاكها فى العاقبة .

قال فى المحكم : وكان لهم عذاب أليم مما يبـلغ ايجاعه غاية البلوغ ومنه يعلم وجه ايثاره فى عذاب المنافقين — على العظم المتقدم فى وصف الكافرين ويؤيده (ان المنافقين فى الدرك الأسفل من النـار ولن تجد لهم نصيرا)(١) .

وذلك بسبب كذبهم وهو قولهم : آمنا بالله وباليوم الآخر وهم غير مؤمنين ، وفيه رمز الى قبح الكذب ، وسماجته ، وتخييل أن العذاب الأليم لاحق بهم من أجل كذبهم مع احاطة علم السامع بأن لحوق العذاب بهم من جهات شتى .

ثم شرع الله بعد ذلك فى تعديد بعض من فساد المنافقين :

(واذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا انما نحن مصلحون) .

(ألا انهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون) .

فهذا شروع فى بيان مساوئهم المتفرعة — على ما حكى عنهم من الكفر والنفاق — .

وكان افســاد المنافقين فى الأرض أنهم كانوا يمالئـون الكفار على المسلمين بافشاء أسرارهم اليهم ، واغرائهم عليهم ، واتخاذهم أولياء ، مع ما يدعون فى السر الى : تكذيب النبى صلى الله عليه وسلم وجحد الاسلام والقاء الشبه .

وذلك مما يجرىء الكفار على اظهار عداوة النبى صلى الله عليه وسلم ونصب الحرب له وطمعهم فى الغلبة .

(١) سورة النساء آية : ١٤٥ .

فلما كان ذلك من صنيعهم مؤديا الى الفساد بتهييج الفتن بينهم قيل لهم لاتفسدوا كما تقول للرجل : لاتقتل نفسك بيدك ولاتلق نفسك فى النار اذا أقدم على ما هذه عاقبته وقد قال تعالى :

(والذين كفروا بعضهم أوليـــاء بعض ، الا تفعلوه تكن فتنـــة فى الأرض وفساد كبير)[١] ٠

فأخبر بأن موالاة الكافرين تؤدى الى الفتنة والفساد لما تقدم ٠

فكان رد أهل النفاق دائما على هذا الاتهام ادعاء الاصــلاح ، أى : بين المؤمنــين وأهل الكتاب وأنهم يدارون الفريقين ولا يريدون ســوى الاصلاح بينهما ، كما حكى الله عنهم أنهم قالوا :

(ان أردنا الا احسانا وتوفيقا)[٢] ٠

أو معناه : انما نحن مصلحون فى الأرض بالطاعة والانقياد[٣] ٠

قال الراغب : تصوروا افسادهم بصورة الاصلاح — لما فى قلوبهم من المرض — كما قال :

(أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا)[٤] ٠

وقوله : (وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون)[٥] ٠

وقوله : (وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا)[٦] ٠

ثم قال الله تعالى :

---

(١) سورة الأنفال آية : ٧٣ ٠
(٢) سورة فاطر آية : ٨ ٠
(٣) راجع محاسن التأويل للقاسمى ج ١ ص ٤٨ ٠
(٤) سورة فاطر آية : ٨ ٠
(٥) سورة الأنعام آية : ٤٣ ٠
(٦) سورة الكهف آية : ١٠٤ ٠

(واذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ، ألا انهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون) .

(واذا قيل لهم) بطريق الأمر بالمعروف ، اثر نهيهم عن المنكر اتماما للنصح ، واكمالا للارشاد (آمنوا كما آمن الناس) أى : الكاملون فى الانسانية ، فان المؤمنين هم الناس فى الحقيقة لجمعهم ما يعد من خواص الانسان وفضائله (قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء) وهو استفهام فى معنى الانكار و (السفه) خفة وسخافة يورثهما قصور العقل وقلة المعرفة بمواضع المصالح والمضار قال تعالى :

(ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما)[1] .

وانما سفهوهم مع أنهم العقلاء المراجيح لأنهم : لجهلهم ، واخلالهم بالنظر وانصاف أنفسهم ، اعتقدوا أن ما هم فيه هو الحق ، وأن ما عداه باطل — ومن ركب متن الباطل كان سفيها — ولأنهم كانوا فى رياسة فى قومهم ، ويسار ، وكان أكثر المؤمنين فقراء ، ومنهم موال كصهيب وبلال وخباب فدعوهم سفهاء تحقيرا لشأنهم ! (ألا انهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون) .

ثم يقول الله تعالى :

(واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم انما نحن مستهزئون) .

(واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا) أى : أظهروا لهم الايمان ، والموالاة والمصافاة نفاقا ومصانعة ، وتقية وليشركوهم فيما أصابوا من خير ومغنم .

---

(١) سورة النساء آية : ٥ .

واعلم أن مساق هذه الآية بخلاف ما سيقت له أول قصة المنافقين ، فليس بتكرير لأن تلك فى بيـــان مذهبهم ، والترجمة عن ثقافتهم ، وهذه لبيـــان تباين أحوالهم ، وتناقض أقوالهم — فى أثناء المعاملة والمخاطبة — حسب تباين المخاطبين •

(وإذا خلوا الى شـــياطينهم قالوا انا معكم انما نحن مستهزئون) يقال : خلوت بفلان واليـــه أى : انفردت معه ، ويجوز أن يكون خلا بمعنى : مضى ومنه القرون الخالية •

والمراد (بشياطينهم) : أصحابهم أولو التمرد والعناد ، والشيطان يكون من الانس والجن ، كما قال تعالى : (وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الانس والجن يوحى بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا)[١] واضافتهم اليهم للمشاركة فى الكفر •

ومعنى (انا معكم) أى فى الاعتقاد على مثل ما أنتم عليه ، انما نحن فى اظهار الايمان عند المؤمنين مستهزئون ساخرون بهم •والاستهزاء بالشىء السخرية منه يقال : هزأت واستهزأت •

ومن هنا كان رد الله عليهم :

(الله يستهزىء بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون) •

يسخر بهم للنقمة منهم ويزيدهم على وجه الاملاء والتـــرك لهم فى عتوهم وتمردهم •

كما قال تعالى : (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون)[٢] •

---

(١) سورة الانعام آية : ١١٢ •

(٢) سورة الانعام آية : ١١٠ •

ثم يوضح الله تعالى فساد ما حاولوا الربح من ورائه :

(أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين) •

اشارة الى المذكورين باعتبار اتصافهم بما ذكر من الصفات الشنيعة المميزة لهم عمن عداهم أكمل تمييز بحيث صاروا كأنهم حضار مشاهدون على ما هم عليه •

وما فيــه من معنى البعد للايذان ببعد منزلتهم فى الشر وسوء الحال والجملة مسوقة لتقرير ما قبلها وبيان لكمال جهالتهم — فيما حكى عنهم من الأقوال والأفعال باظهار مدى سماجتها ، وتصويرها بصورة ما لا يكاد يتعاطاه من له أدنى تمييز فضلا عن العقلاء •

واشتراء الضــلالة بالهدى مستعار لأخذها بدلا منــه أخذا منوطا بالرغبة فيها والاعراض عنه •

فان قيل : كيف اشتروا الضلالة بالهدى ، وما كانوا على هدى ؟ •

قلت : جعلوا لتمكنهم منه بتيسير أسبابه كأنه فى أيديهم ، فاذا تركوه الى الضــلالة فقد عطلوه واستبدلوها به ، فاستعير ثبوته لتمكنهم بجامع المشاركة فى استتباع الجدوى ، ولا مرية فى أن هذه المرتبة من التمكن ، كانت حاصلة لهم بما شاهدوه من الآيات الباهرة والمعجزات القاهرة من جهة النبى صلى الله عليه وسلم •

قوله تعــالى (فما ربحت تجارتهم) عطف على الصــلة داخل فى حيزها • والفاء للدلالة على ترتب مضمونه عليها والتجارة صناعة التجار ، وهو التصدى للبيع والشراء ، لتحصيل الربح وهو الفضل على رأس المال ، واسناد عدمه الذى هو عبارة عن الخسران اليها وهو لأصحابها من الاسناد المجازى وهو : أن يسند الفعل الى شيء يتلبس بالذى هو فى الحقيقة له

كما تلبست التجارة بالمشترين وفائدته : المبالغة فى تخسيرهم ، لما فيه من الاشعار بكثرة الخسار ، وعمومه المستتبع ، لسريانه الى ما يلابسهم .

فان قلت : هب أن شراء الضلالة بالهدى وقع مجاز فى معنى الاستبدال ، فما معنى ذكر الربح والتجارة كأن ثم مبايعة على الحقيقة ؟ .

قلت : هذا من الصنعة البديعة التى تبلغ بالمجاز الذروة العليا وهو أن تساق كلمة مساق المجاز ثم تقفى بأشكال لها وأخوات اذا تلاحقن لم تر كلاما أحسن منه ديباجة وأكثر ماء ورونقا وهو المجاز المرشح فايرادهما اثر الاشتراء تصوير لما فاتهم من فوائد الهدى بصورة خسار التجارة — الذى يتحاشى عنه كل أحد للاشباع فى التخسير والتحسير وهذا النوع قريب من التتميم الذى يمثله أهل صناعة البديع بقول الخنساء :

وان صخر التأتم الهداة به   كأنه علم فى رأسه نار

لما شبهته فى الاهتداء به بالعلم المرتفع ، أتبعت ذلك ما يناسبه ويحققه فلم تقنع بظهور الارتفاع حتى أضافت الى ذلك ظهور آخر باشتعال النار فى رأسه .

وقوله : (وما كانوا مهتدين) أى : لزوال استعدادهم ، وتكدير قلوبهم بالريب الموجب للحجاب والحرمان الأبدى .

قال الزمخشرى : فان قيل : لم عطف بالواو عدم اهتدائهم على انتفاء ربح تجارتهم ورتبا معا بالفاء على اشتراء الضلالة بالهدى ؟ وما وجه الجمع بينهما مع ذلك الترتيب على أن عدم الاهتداء قد فهم من استبدال الضلالة بالهدى ، فيكون تكرارا لما مضى ؟ .

فالجواب : أن رأس مالهم هو الهدى ، فلما استبدلوا به ما يضاده ولا يجامعه أصلا انتفى رأس المال بالكلية وحين لم يبق فى أيديهم الا ذلك الضد أعنى الضلالة ، وصفوا بانتفاء الربح والخسارة ، لأن الضال فى

دينه خاسر هالك وان أصاب فوائد دنيوية ولأن من لم يسلم له رأس ماله لم يوصف بالربح ، بل بانتفائه،فقد أضاعوا سلامة رأس المال بالاستبدال وترتب على ذلك اضاعة الربح[١] •

وأما قولـــه : (وما كانوا مهتدين) فليس معناه عدم اهتدائهم فى الدين — فيكون تكرارا لما سبق — بل لما وصفوا بالخسارة فى هذه التجارة أشير الى عدم اهتدائهم لطرق التجارة كما يهتدى اليـــه التجار البصراء بالأمور التى يربح فيها ويخسر فهذا راجع الى الترشيح •

ولما جاء الله تعالى بحقيقة وصف المنافقين عقبها بضرب المثل زيادة فى الكشف والايضاح :

(مثلهم كمثل الذى اســـتوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون) •

فقال تعالى : (مثلهم) أى : مثالهم فى تعلقهم ، وحالهم فيه (كمثل الذى استوقد) أى أوقد نارا فى ظلمة والتنكير للتعظيم (فلما أضاءت) أى : أنارت النار (ما حوله) فأبصر واستدفأ ، وأمن مما يخافه (ذهب الله بنورهم) أى : أطفأ الله نارهم التى هى مدار نورهم فبقوا فى ظلمة وخوف وجمع الضمير مراعاة لمعنى الذى كقوله :

(وخضتم كالذى خاضوا)[٢] •

(وتركهم فى ظلمات لا يبصرون) ما حولهم متحيرين عن الطريق خائفين فكذلك هؤلاء استضاؤوا قليـــلا بالانتفاع بالكلمة المجـــراه على ألسنتهم حيث أمنوا على أنفسهم وما يتبعها ، ثم وراء استضاءتهم بنور

---

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٢٠٠ •

(٢) سورة التوبة آية : ٦٩ •

هذه الكلمة ظلمة النفاق التى ترمى بهم الى ظلمة سخط الله ، وظلمة العقاب السرمدى ومحصوله :

أنهم انتفعوا بهذه الكلمــة مدة حياتهم القليلة ثم قطعه الله تعــالى بالموت •

ونقل عن كثير من السلف تفسير آخر ، وهو : تمثيل ايمانهم أولا ، ثم كفرهم ثانيا ، فيكون اذهاب النور فى الدنيا كما قال تعالى :

(ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا)[1] •

فلما آمنوا أضاء الايمان فى قلوبهم — كما أضاء النار لهؤلاء الذين استوقدوا نار — ثم لما كفروا ، ذهب الله بنورهم : انتزعه — كما ذهب بضوء هذا النار — وعلى هذا فالتمثيل مرتبط بما قبله • فانهم لما وصفوا بأنهم اشتروا الضــلالة بالهدى مثل هداهم الذى باعوه بالنار المضيئة ما حول المستوقد والضلالة التى اشتروها وطبع بها على قلوبهم بذهاب الله بنورهم وتركه اياهم فى الظلمات[2] •

وكان أن وصفهم الله تعالى بقوله :

(صم بكم عمى فهم لا يرجعون) •

وصفوا بذلك مع ســلامة حواسهم المذكورة لما أنهم ســدوا عن الاصاغة الى الحق مســامعهم وأبوا أن ينطقوا به ألسنتهم وأن ينظروا ويتبصروا بعيوبهم فجعلوا كأنما أصيب بآفة مشاعرهم — كقوله — :

صم اذا سمعوا خيــرا ذكرت به
وان ذكرت بســوء عندهم أذنوا

وكقوله :

أصــم عن الشىء الذى لا أريده
وأســمع خلق الله حين أريد

---

(١) سورة المنافقون آية : ٣ .
(٢) راجع محاسن التاويل ج ٢ ص ٥٤ .

(فهم لا يرجعــون) أى : بسبب اتصافهم بالصفــات المذكورة لا يعودون الى الهدى بعد أن باعوه أو عن الضلالة بعد أن اشتروها فالآية الكريمة تتمة للتمثيل بأن ما أصابهم ، ليس مجرد انطفاء نارهم ، وبقائهم فى ظلمات كثيفة هائلة ، مع بقاء حاسة البصر بحالها ، بل اختلت مشاعرهم جميعا ، واتصفوا بتلك الصفــات فبتوا جامدين فى مكانهم لا يرجعون ، ولا يدرون أيتقدمون أم يتــأخرون ؟ وكيف يرجعون الى ما ابتــدأوا منه[1] .

وهنا جاء الله تعالى بتمثيل لحالهم اثر تمثيل فقال تعالى :

(أو كصيب من السماء فيــه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين) .

جاء هذا التمثيل لهذه الآية اثر تمثيل ليعم البيان منها كل دقيــق وجليل ويوفى حقها من التفظيع والتهويل . فان تفننهم فى فنــون الكفر والضلال حقيق بأن يضرب فى شأنه الأمثال ، وكما يجب على البليغ فى مظان الاجمال والايجاز أن يجمل ويوجز فكذلك الواجب عليه فى موارد التفصيل والاشباع أن يفصل ويشبع .

وختام الآية بقوله (والله محيط بالكافرين) دليل قوى على أن علم الله وقدرته لا يفوتها شىء فالجملة اعتراضية منبهة على أن ما صنعوا من سد الآذان بالأصــابع لا يغنى عنهم شيئا فان القدر لا يدافعه الحذر ، والحيل لا ترد بأس الله عز وجل .

وفائدة وضــع الكافرين موضع الضمير الراجع الى — أصحــاب الصيب — الايذان بأن ما دهمهم من الأمور الهائلة المحكية بسبب كفرهم فيظهر استحقاقهم شدة الأمر عليهم ، على طريقة قوله تعالى :

---

(١) راجع محاسن التأويل جـ ١ ص ٥٦ .

(أصابت حرث قوم ظلموا)[1] .

فان الاهلاك الناشيء عن السخط أشد .

ثم قال تعالى :

(يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه واذا أظلم عليهم قاموا ، ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم ان الله على كل شيء قدير) .

استئناف آخر وقع جوابا عن سؤال مقدر — كأنه قيل :

فكيف حالهم مع ذلك البرق ؟ .

فقيل : يكاد يخطف أبصارهم .

وهاهنا فى ختام الآيات التى ذكرت فيها الأمثال تنبيهات :

الأول : محصول التمثيلين ، الأول هو أنه شبه فى الأول حيرتهم وشدة الأمر عليهم بما يكابد من طفئت ناره بعد ايقادها فى ظلمة الليل .

الثانى : شبه حالهم بحال من أخذتهم السماء فى ليلة تكاثف ظلماتها — بتراكم السحب ، وانتساج قطراتها ، وتواتر فيها الرعود الهائلة ، والبروق المخيفة ، والصواعق المختلفة المهلكة ، وهم فى أثناء ذلك يزاولون غمرات الموت.وبذلك يعلم أن التمثيلين جميعا من جملة التمثيلات المركبة ، وهو الذى تقتضيه جزالة المعانى لأنه يحصل فى النفس من تشبيه الهيئات المركبة ما لا يحصل من تشبيه مفرداتها .

فانك اذا تصورت حال من طفئت ناره بعد ايقادها .. الخ ، وحال من أخذتهم السماء .. الخ ، حصل فى نفسك هيئة عجيبة توصلك الى معرفة حال المنافقين ، على وجه يتقاصر عنه تشبيه المنافق — فى التمثيل

---

(١) سورة آل عمران آية : ١١٧ .

الأول بالمستوقد نارا ، واظهاره الايمان بالاضـاءة ، وانقطاع انتفاعه بانتفاء النار •

وتشبيه دين الاسلام فى الثانى بالصيب وما يتعلق به من شبه الكفار بالظلمات ، وما فيـه من الوعد والوعيد بالرعد والبرق وما يصيب الكفرة من الافزاع والبلايا والفتن من جهة أهل الاسلام بالصواعق •

وأيضا فى تشبيه المفردات ، وطى ذكر المشبهات تكلف ظاهر •

وأيضا فى لفظ (المثـل) نوع انباء عن التركيب ، اذ المتبـادر منه القصة التى هى فى غرابتها كالمثل السائر وهى فى الهيئة المركبة دون كل واحد من مفرداتها •

وأيضا فى التمثيل المركب اشـتمال على التشبيه فى المفردات اجمالا مع أمر زائد : هو تشبيه الهيئة بالهيئة ، وايذانه بأن اجتماع تلك المفردات مستتبع لهيئة عجيبة حقيقة بأن تكون مثلا فى الغرابة •

التنبيه الثانى :

قال العلامة ابن القيم : فى هذه الآية شـبه سبحانه أعداءه المنافقين بقوم أوقدوا نارا لتضىء لهم ، فلما أضاءت لهم النار ، فأبصروا فى ضوئها ما ينفعهم ويضرهم وأبصروا الطريق بعد أن كانوا حيـارى تائهين فهم كقوم سفر ضـلوا عن الطريق ، فأوقدوا النار لتضىء لهم الطريق فلما أضـاءت لهم فأبصروا وعرفوا طفئت تلك الأنوار وبقوا فى الظلمـات لا يبصرون ، قد سدت عليهم أبواب الهدى الثلاث •

فان الهدى يدخل الى العبد من ثلاثة أبواب :

مما يسمعه بأذنه ويراه بعينه ويعقل بقلبه •

وهؤلاء قد سدت عليهم أبواب الهدى : فلا تسمع قلوبهم شيئا ، ولا تبصره ، ولا تعقل ما ينفعها •

وقيل : لما لم ينتفعوا بأسماعهم وأبصارهم وقلوبهم نزلوا بمنزلة من لا سمع له ، ولا بصر ، ولا عقل .

والقولان متلازمان .

وقال فى صفتهم (فهم لا يرجعون) لأنهم قد رأوا فى ضوء النار وأبصروا الهدى ، فلما طفئت عنهم لم يرجعوا الى ما رأوا وأبصروا .

وقال سبحانه وتعالى (ذهب الله بنورهم) ولم يقل ذهب نورهم وفيه سر بديع :

وهو انقطاع سر تلك المعية الخاصة التى هى للمؤمنين من الله تعالى ، فان الله تعالى مع المؤمنين ، وان الله مع الصابرين و (ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون)[1] .

فذهاب الله بذلك النور :

انقطاع المعية التى خص بها أولياءه فقطعها بينه وبين المنافقين ، فلم يبق عندهم بعد ذهاب نورهم ولا معهم ، فليس لهم نصيب من قوله (لا تحزن ان الله معنا)[2] . ولا من (كلا ان معى ربى سيهدين)[3] .

وتأمل قوله تعالى (أضاء ما حوله) كيف جعل ضوءها خارجا عنه ، منفصلا ، ولو اتصل ضوؤها به ، ولابسه ، لم يذهب ولكنه كان ضوء مجاورة لا ملابسة ومخالطة ، وكان الضوء عارضا والظلمة أصلية ، فرجع الضوء الى معدنه ، وبقيت الظلمة فى معدنها ، فرجع كل منهما الى أصله اللائق به : حجة من الله قائمة وحكمة بالغة ، تعرف بها الى أولى الألباب من عباده .

---

(١) سورة النحل آية : ١٢٨ .

(٢) سورة التوبة آية : ٤٠ .

(٣) سورة الشعراء آية : ٦٢ .

التنبيه الثالث :

قال القاشـــانى : انما بولغ فى ذكر فريق المنافقين وذمهم وتعييرهم وتقبيح صورة حالهم ، وتهديدهم ، وابعادهم ، وتهجين سيرهم وعاداتهم: لامكان قبولهم للهداية ، وزوال مرضهم العارض •

عسى التقريع يكسر أعواد شكائمهم ، والتوبيخ يقلع أصول رذائلهم ، فتتزكى بواطنهم ، وتتنور قلوبهم ، فيسلكوا طريق الحق ، ولعل موادعة المؤمنين ، وملاطفتهم اياهم ، ومجالستهم معهم تستميل طباعهم فتهيج فيهم محبة ما وشوقا تلين به قلوبهم الى ذكر الله وتنقاد به نفوسهم لأمر الله فيتوبوا ويصلحوا كما قال تعالى :

(ان المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا • الا الذين تابوا وأصـلحوا واعتصموا بالله وأخلصـوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين ، وسوف يؤت الله المؤمنين أجرا عظيما)[١] •

هذا ويرى المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز :

أن المثـلين لطائفتى الكافرين والمنافقين : فالمثـل الأول وهو قوله تعالى : (مثلهم كمثل الذى اسـتوقد نارا) ، ينطبق تمام الانطباق على الأوصـــاف ، التى ذكرها الله للكافرين ، وأن الذى ينطبق على صفات المنـــافقين انما هو المثل الثانى وحده وهو قوله تعالى (أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق •••) فقد ضرب الله لكلتا الطائفتين مثلا يناسبها •

قال الدكتور دراز :

فضرب مثـــلا للمصرين المختوم على قلوبهم ، بقوم كانوا يسيرون فى ظلام الليل فقام فيهم رجل استوقد لهم نارا يهتدون بضوئها ، فلما

---

(١) سورة النساء آية : ١٤٥، ١٤٦ •

أضاءت ما حوله لم يفتح بعض القوم أعينهم لهذا الضوء الباهر ، بل لأمر ما سلبوا نور أبصارهم ، وتعطلت سائر حواسهم عند هذه المفاجأة ، فذلك مثل النور الذى طلع به محمد صلى الله عليه وسلم فى تلك الأمة الأمية على فترة من الرسل ، فتفتحت لهم البصائر المستنيرة هنا وهناك ، لكنه لم يوافق أهواء المستكبرين الذين ألفوا العيش فى ظلام الجاهلية ، فلم يرفعوا له رأسا بل نكسوا على رؤوسهم ولم يفتحوا له عينا بل خروا عليه صما وعميانا •

وضرب مثلا للمترددين المخادعين بقوم جاءتهم السماء بغيث منهمر فى ليلة ذات رعد وبرق ، فأما الغيث فلم يلقوا له بالا ولم ينالوا منه نيلا ، فلا شربوا منه قطرة ، ولا استنبتوا به ثمرة •••

وأما تلك التقلبات الجوية من الظلمات والرعد والبرق فكانت هى مثار اهتمامهم ، ومناط تفكيرهم ولذلك جعلوا يترصدونها ، ويدبرون أمورهم على وفقها ، لابسين لكل حال لبوسها : سيرا تارة ووقوفا تارة واختفاء تارة أخرى •

فكانوا اذا رأوا عرضا قريبا وسفرا قاصدا وبرقت لهم (بروق) الأمل فى الغنيمة ساروا مع المؤمنين جنبا الى جنب •

واذا دارت رحا الحرب وانقضت (صواعقها) منذرة بالموت والهزيمة أخذوا حذرهم وفروا من وجه العدو قائلين (ان بيوتنا عورة) •

حتى اذا كانت الثالثة فلم يلمحوا أن الآمال بارقة ولم يتوقعوا من الآلام صاعقة ، بل اشتبهت عليهم الأمور فهنالك يقفون متربصين لا يتقدمون ولا يتأخرون ، ولكن يلزمون شقة الحياد ريثما تنقشع سحابة الشك ، فان كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم ، وان كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين •

ذلك دأب المنافقين فى كل أمرهم ، ان توقعوا ربحا عاجلا التمسوه فى أى صف وجدوه ، وان توقعوا أذى كذلك تنكروا للفئة التى ينالهم فى سبيلها شىء مكروه ، واذا أظلم عليهم الأمر قاموا بعيـدا لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء ، أما الذى يؤمن بالله واليوم الآخر فان له قبلة واحدة يولى وجهه شطرها ، هى قبلة الحق لا يخشى فيها لومة لائم :

وليس يبالى حين يقتل مسلما
على أى جنب كان فى الله مصرعه[1]

---

(١) النبأ العظيم د/محمد عبد دراز ص ١٦٤ .

بين الألوهية والعبـــودية :

يقول الله تعالى :

(يا أيها الناس اعبـــدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون) •

معانى المفـــردات :

قوله تعالى : (يا أيها الناس اعبدوا ربكم) •

(يا) حرف وضع لنداء البعيد ثم استعمله القرآن فى مناداة من غفل وسها وان دنى وقرب باعتبار أن المنادى قد أبعد نفسه بغفلته ومعصيته •

(أى) وصلة لنداء ما فيه الألف واللام وهو المقصود بالنداء لكن لما كانت الألف واللام لا تجامع (ياء) توصـــلوا الى نداء ما فيه (آل) بذكر (أى) وجعلوه مبنيا على الضم فى محل نصب وما بعده نعت له موضح لابهامه لأن (أى) اسم مبهم يوضحه ما بعده •

و (يا أيها الناس) خطاب يعم جميع المكلفين •

(اعبدوا ربكم) يراد به اما توحيده أو يراد به أداء التكاليف الشرعية وقوله ربكم أى الذى يتعهدكم بالتربية ويصنع فيكم الصنع الجميل •

قوله تعالى : (الذى خلقكم) •

أى : الذى أوجدكم وأبدعكم واخترعكم من العـــدم ، أو هو الذى قدركم على هيئات مخصوصة •

وقد جاء الخلق فى اللغة بمعنى : التقديروبمعنى : الانشاءوالإختراع والابداع •

و (قبـــل) ظرف زمان فى الأغلب ويتجوز بهـــا عن التقدم بالشرف والرتبة وحينئذ يلاحظ فيها المكان والمكانة فتستعمل للمكان على حله .

قوله تعالى : (لعلكم تتقون) .

والمعنى : اعبدوا ربكم راجين بعبادتكم حصول التقوى لكم .

قوله تعالى : (الذى جعل لكم الأرض فراشا) .

بيان لما صنعه معهم من معايش واستقرار على هذه الأرض ليعلموا بما يحسونه ويجدونه من تهيئـــة الأرض لهم وانزال الماء من السماء ، وما أخـــرج به من أنواع الثمرات التى هى أقوات لأبدانهم وأســـباب لاستمرار حياتهم أنه تعالى الحقيق بالعبادة والحقيق بأنه يتوجه اليه ، لأنه تعالى دائم التعرف اليهم بنعمه التى لها صفة الاســـتمرار والتى لم يمنعها عنهم بكفرهم .

قوله تعالى : (والسماء بناء) .

عطف على الأرض و (أل) فى السماء للجنس ، و (بناء) مصدر أريد به المبنى سمى به مبالغة .

ومعنى قوله (بنـــاء) أى قويا محكما وسقفا محفوظا فلا يســـقط عليكم .

قوله تعالى : (وأنزل من السماء ماء) .

شروع فى بيـــان نعمة جديدة لها بالانسان أقوى صـــلة لأن حاجة الانسان الى الماء لنفسه وما يخرج الله به من الأقوات والأرزاق أمر غير خفى ، وهو عطف على جعل .

و (من) للبيان اذا قدرت الجار والمجرور متعلقا بأنزل ، ويجوز أن يتعلق بمحذوف وقع حالا من (ماء) لأنه فى الأصل صفته قدم لبيان الجهة .

قوله تعالى : (فأخرج به من الثمرات رزقا لكم) •

الفاء فيه عاطفة على جملة (وأنزل) ، والفاء بمعنى الترتيب من غير ملاحظة تعقيب ، لأن الزمن بين نزول الماء واخراج الثمر غير ملاحظ ، اذ المقصود ترتب الاخراج على نزول الماء •

و (من) اما للتبعيض على معنى أنه تعالى أخرج بالماء بعض الثمار رزقا لنا و (رزقا) مفعول لأجله والتقدير : رزقا لأجلنا •

واما للبيان : ورزقا حينئذ مفعول به لأخرج ، (ومن الثمرات) حال منه وأصل الجملة على هذا التقدير : فأخرج به رزقا من الثمرات •

و (رزقا) بمعنى المرزوق على هذا التقدير أيضا •

و (لكم) الجار والمجرور صفة على هذا التقدير لرزقا •

و (الثمرات) جمع ثمرة وهى ما تخرجه الأشجار سواء كان قوتا لنا أم لغيرنا ، أم ليس بقوت أصلا •

قوله تعالى : (فلا تجعلوا لله أندادا) •

نهى معطوف على اعبدوا مترتب عليه فكأنه قيل : اذا وجب عليكم عبادة ربكم فلا تجعلوا لله أندادا وأفردوه بالعبادة اذ لا رب لكم سواه •

و (الأنداد) جمع ند كعدل أو نديد كشريف ومعناه لغة :

مثل الشيء الذي يضاده ويخالفه في أموره وينافره ويتباعد عنه •

وفي تسمية ما يعبده الكفار بالأنداد من باب التهكم واستعمال الشيء في ضده مثل قوله تعالى (فبشرهم بعذاب أليم) والحقيقة أنذرهم ولكنه عدل الى ذلك تهكما بهم هذا اذا جعل الند بمعنى المثل •

فاذا جعلته بمعنى النظير لم يكن تضاد وانما هو من استعارة أحد المتشابهين للآخر في زعم المشركين فانهم خصوا أصنامهم بالعبادة والتذلل

واعتقاد النفع والضر بل مات كثير منهم فى سبيل اعتقادهم فى أصنامهم الألوهية .

قوله تعالى : (وأنتم تعلمون) .

حال من الواو فى (لا تجعلوا) ومفعول (تعلمون) متروك . أى :

وأنتم ذوى العلم والنظر فلو تأملتم أدنى تأمل لحكمتم على أنفسكم بخطئكم فى اعتقاد الشريك لله تعالى بله الشركاء[1] .

التفسير التحليلى

مناسبة الآيات لما قبلها :

ثنت هذه الآية العنان سائقة نداءا عاما الى موعظة كل فريق من الفرق المتقدم ذكرها ، موعظة تليق بحاله بعد أن قضى حق وصف كل فريق منهم بخلاله ، ومثلت كل فريق وضربت له أمثاله .

فانه لما استوفى أحوالا للمؤمنين وأضدادهم من المشركين والمنافقين ، لا جرم تهيأ المقام لخطاب عمومهم بما ينفعهم ارشادا لهم ورحمة بهم لأنه لا يرضى لهم الضلال ولم يكن ما ذكر آنفا من سوء صنعهم حائلا دون اعادة ارشادهم والاقبال عليهم بالخطاب ففيه تأنيس لأنفسهم بعد أن هددهم ولامهم وذم صنعهم ليعلموا أن الاغلاظ عليهم ليس الا حرصا على صلاحهم وأنه غنى عنهم ، كما يفعله المربى الناصح حين يزجر أو يوبخ فيرى انكسار نفس مرباه فيجبر خاطره بكلمة نصيحة ليريه أنه انما أساء اليه استصلاحا وحبا لخيره فلم يترك من رحمته لخلقه حتى فى حال عتوهم وضلالهم وفى حال حملهم الى مصالحهم[1] .

---

(١) راجع تفسير الالوسى جـ ١ ص ١٧٣ والمنتخب فى التفسير ص ٨٩ وزاد المسير فى علم التفسير جـ ١ ص ٤٨ .

(٢) راجع التحرير والتنوير جـ ١ ص ٣٢٤ .

ففى هاتين الآيتين توجيــه للناس الى الأمر الذى خلقوا من أجله ، وهو عبادة الله دون ما ســواه ، وبيان للبراهين الساطعة التى تدل على وحدانية الله وعظيم قدرته •

و (يا) حرف نداء وهو أكثر حروف النداء استعمالا فهو أصــل حروف النداء •

و (أى) اسم مبهم لكن يزول ابهامه بالاسم المقصود بالنداء الذى يأتى بعده •

و (ها) المتصلة به مؤكدة للتنبيه المستفاد من النداء •

والمراد (بالناس) : كافة المكلفين الموجودين فى زمن الوحى ، ومن سيأتى بعد ذلك الى أن يرث الله الأرض ومن عليها •

و (العبادة) : الخضوع والتذلل البالغ الغاية •

وقد كثر النــداء فى القرآن الكريم بهذه الطريقة لما فيها من التأكيد الذى كثيرا ما يقتضيه المقام •

وفى ذكره تعالى باسم الرب ، واضافته الى المخاطبين تقوية لداعية اقبالهم على عبادته •

فان الانسان اذا اتجه بفكره الى معنى كون الله مالكا له ، أو مربيا له وتذكر ما يحفه به من رفق ، وما يجود به عليه من انعام ، لم يلبث أن يخصه بأقصى ما يستطيع من الخضوع والخشوع والاجلال •

وافراد اسم الرب : دل على أن المراد رب جميع الخلق وهو الله تعالى ، اذ ليس ثمة رب يستحق هذا الاسم بالافراد والاضافة الى جميع الناس الا الله •

ثم بين سبحانه الموجبات التى من شأنها أن تحملهم على عبادته وحده فقال :

(الذي خلقكم والذين من قبلكم) •

و (الخلق) : أطلق فى القرآن وكلام الشريعة على ايجاد الأشياء المعدومة ، فهو اخراج الأشياء من العدم الى الوجود اخراجا لا صنعة فيه للبشر ، فان ايجاد البشر بصنعتهم أشياء انما هو تصويرها بتركيب متفرق أجزاءها وتقدير مقادير مطلوبة منها كصانع الخزف •

فالخلق وايجاد العوالم وأجناس الموجودات وأنواعها وتولد بعضها عن بعض بما أودعت الخلقة الالاهية فيها من نظام الايجاد مثل تكوين الأجنة فى الحيوان فى بطونه وبيضة وتكوين الزرع فى حبوب الزريعة وتكوين الماء فى الأسحبة فذلك كله خلق وهو من تكوين الله تعالى ، ولاعبرة بما قد يقارن بعض ذلك الايجاد من علاج الناس كالتزوج والقاء الحب والنوى فى الأرض للانبات ، فالايجاد الذى هو الاخراج من العدم الى الوجود بدون عمل بشرى خص باسم الخلق فى اصطلاح الشرع ، لأن لفظ الخلق هو أقرب الألفاظ فى اللغة العربية دلالة على معنى الايجاد من العدم الذى هو صفة الله تعالى • وصــار ذلك مدلول مادة خلق فى اصطلاح أهل الاسلام فلذلك خص اطلاقه فى لسان الاسلام بالله تعالى :

(أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون) •

وقال : (هل من خالق غير الله) •

وخص اسم الخالق به تعالى فلا يطلق على غيره ولو أطلقه أحد على غير الله تعالى بناء على الحقيقة اللغوية لكان اطلاقه عجرفة فيجب أن ينبه على تركه[1] •

قال الامام الغزالى فى المقصد الأسنى :

لا حظ للعبد فى اسمه تعالى الخالق الا بوجه من المجاز بعيد فاذا بلغ فى سياسة نفسه وسياسة الخلق مبلغا ينفرد فيه باستنباط أمور لم يسبق

---

(١) راجع التحرير والتنوير جـ ١ ص ٢٣٨ •

اليها ويقدر مع ذلك على فعلها كان كالمخترع لما لم يكن له وجود من قبل فيجوز اطلاق الاسم . اه .

فجعل جواز اطلاق فعل الخلق على اختراع بعض العباد مشروطا بهذه الحالة النادرة ومع ذلك جعله مجازا بعيدا فما حكاه القرآن من قول سيدنا عيسى عليه السلام :

(انى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه ... الخ) .

وقوله تعالى : (واذ تخلق من الطين كهيئة الطير باذنى) .

فان ذلك مراعى فيه أصل الاطلاق اللغوى قبل غلبة استعمال مادة خلق فى الخلق الذى لا يقدر عليه الا الله تعالى . ثم تخصيص تلك المادة بتكوين الله تعالى فى الموجودات[1] ومن أجل ذلك قال :

(فتبارك الله أحسن الخالقين) .

وقوله تعالى : (والذين من قبلكم) . فيه رد على الدهريين من المخاطبين الذين يزعمون أنهم انما خلقهم آباؤهم ، فقالوا :

(ما هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر) .

فكان قوله : (والذين من قبلكم) تذكيرا لهم بأن آباءهم الأولين لابد أن ينتهوا الى أب أول قد خلقه الله تعالى .

وجملة (لعلكم تتقون) تعليل للأمر بالعبادة ، ولذلك فصلت .

و (لعل) حرف موضوع ليدل على الترجى ، وهو توقع حصول الشىء عندما يحصل سببه وتنتفى موانعه ، والشىء المتوقع حصوله فى الآية هو التقوى وسببه العبادة ، اذ بالعبادة يستعد الانسان لأن يبلغ درجة التقوى ، وهى الفوز بالهدى والفلاح .

---

(١) المرجع السابق .

والترجى قد يكون من جهة المتكلم وهو الشائع ، وقد تستعمل لعل فى الكلام على أن يكون الترجى مصروفا للمخاطب ، فيكون المترجى هو المخاطب لا المتكلم .

وعلى هذا الوجه يحمل الترجى فى هذه الآية ، لاستحالة توقع حصول الشىء من عالم الغيب والشهادة ، لأن توقع الانسان لحصول الشىء هو أن يكون مترددا بين الوقوع وعدمه مع رجحان الوقوع ، وعليه فيكون المعنى :

اعبدوا ربكم راجين أن تكونوا من المتقين ، الذين بلغوا الغاية فى الهدى والفلاح .

ثم أضاف سبحانه أسبابا أخرى تحمل الناس على عبادته وطاعته فقال :

(الذى جعل لكم الأرض فراشا) .

الفراش : ما يفترشه الانسان ليستقر عليه بنحو الجلوس أو المنام . أى : اجعلوا عبادتكم لله الذى صير الأرض لأجلكم مهادا كالبساط المفروش ، فذللها لكم ولم يجعلها صعبة غليظة ، لكى يتهيأ لكم الاستقرار عليها ، والتقلب فى مناكبها ، والانتفاع بما أودع الله فى باطنها من خيرات .

وتصوير الأرض بصورة الفراش لا ينافى كونها كروية ، لأن الكرة اذا عظمت جدا كانت القطعة منها كالسطح فى امكان الانتفاع بها .

(والسماء بناء) يقال لسقف البيت بناء أى : جعل السماء كالسقف للأرض لأنها تظهر كالقبة المضروبة فوقها كما قال — تعالى — (وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون) .

وقدم خلق الأرض على خلق السماء لأن الأرض أقرب الى المخاطبين، وانتفاعهم بها أظهر وأكثر من انتفاعهم بالسماء .

قال بعض الأدباء (اذا تأملت هذا العالم وجدته كالبيت المعد فيه كل ما يحتاج اليه ، فالسماء مرفوعة كالسقف ، والأرض ممدودة كالبساط ، والنجوم منورة كالمصابيح ، والانسان كمالك البيت المتصرف فيه وضروب النبات مهيأة لمنافعه ، وضروب الحياة مصرفة لمصالحه ، فهذه جملة واضحة دالة على أن العالم مخلوق بتدبير كامل ، وتقدير شامل ، وحكمة بالغة ، وقدرة غير متناهية) •

ثم قال — تعالى — (وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم) •

السماء : السحاب • والثمرات : ماينتجه الشجر • والرزق : مايصلح لأن ينتفع به • والباء فى (به) للسببية •

أى : أنه جعل الماء سببا فى خروج الثمرة ، وهو القادر على أن ينشئها بلا سبب كما أنشأ الأسباب •

وأورد (ماء) و (رزقا) فى صيغة التنكير التى تستعمل عند ارادة بعض أفراد المعنى الذى وضع له اللفظ لغة ، وذلك لأن من الماء ما لم ينزل من السماء ، ومن الرزق ما لا يكون من الثمرات • فمعنى الجمله الكريمة : أنزل من السماء بعض الماء ، فأخرج به من الثمرات بعض ما يكون رزقا لكم •

ثم قال — تعالى — (فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون) •

الأنداد : جمع ند ، وهو مثل الشىء الذى يضاده وينافره ويتباعد عنه •

وأصله من : ند البعير يند ندا ونِدادا ونَدا ، اذا انفرد وذهب على وجهه شاردا •

والمعنى : فلا تجعلوا لله أمثالا ونظراء تعبدونها وتسمونها آلهة ،

وتعتقدون فيها النفع والضر ، وتجعلون لها ما لله تعـالى وحده ، وأنتم تعلمون أنها أشياء لا يصح جعلها أندادا مساوية له تعالى • أو وأنتم من ذوى العلم والنظر ، فلو تأملتم أدنى تأمل لانصرفتم بقوة الى عبادة الله وحده • ولتركتم الاشراك به •

وصدرت الجملة الكريمة بالفاء لترتبها على الكلام السابق ، المترتب على الأمر بعبادة الله وحده •

وسمى القرآن الشركاء المزعومين أندادا تهكما بالعابدين لها ، ولأن المشركين لما تركوا عبادة الله الى عبادة الأوثان ، وسموها آلهة ، شابهت حالهم حال من يعتقد أنها آلهة مثله ، قادرة على مخالفته ومضادته ، وذلك معنى جعلها أندادا الذى هو مصب النهى فى الآية •

وجملة (وأنتم تعلمون) • حاليـة ، ومفعول تعلمون متروك ، لأن الفعل لم يقصد تعليقه بمفعول ، بل قصد اثباته لفاعله فقط فنزل الفعل منزلة اللازم ، وفى هذه الجملة مبالغة فى زجرهم عن عبـادة الأوثان من دون الله ، لأن ارتكاب الباطل من الجاهل قبيح ، وهو من العالم ببطلانه أشد قبحا ، وأدعى الى أن يقابل بأغلظ ألوان الانكار • كما أن فيها اثارة لهممهم ليقلعوا عن عبادة غير الله ، فان من كان من ذوى العلم لا يصح منه أن يفعل أفعال من لا عقل له ، وهذا لون جليـل من ألوان التربية ، فان من سمات المربى الناجح أن يجمع بين القسوة فى النهى عن القبيح ، وبين اثارة همة الموعوظ حتى لا يقتل همته باليـأس ، لأن الانسان اذا ساءت ظنونه بنفسه خارت عزيمته ، وفترت همته[1] •

هذا ، وقد استفاضت الأحاديث النبوية التى تدعو الى توحيد الله ، وتنهى عن الاشراك ومن ذلك ما جاء فى الصحيحين عن سيدنا عبـد الله

---

(١) راجع التفسير الوسيط ص ٩١،٩٠ •

ابن مسعود رضى الله عنه قال : (قلت يا رسـول الله أى الذنب أعظم عند الله ؟ قال : أن تجعل لله ندا وهو خلقك) .

قال الامام ابن كثير : وهذه الآية دالة على توحيـده — تعالى — بالعبـادة وحده لا شريك له ، فان من تأمل هذه الموجودات السفليـة والعلوية واختلاف أشكالها وألوانها وطباعها ومنافعها ، علم قدرة خالقها وحكمته وعلمه واتقانه وعظيم سلطانه ، كما قال بعض الأعراب وقد سئل ما الدليل على وجود الله — تعالى — ؟ فقال : يا سبحان الله !! ان البعر ليدل على البعير ، وان أثر القدم ليدل على المسير ، فسماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج ، ألا يدل هذا على وجود اللطيف الخبير[1] .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٥٨ .

فقــه الآيات

اعتمدنا هذا النص فى فقه الآيات للمرحوم الشهيد سـيد قطب رغم أنه لا يتحدث عن الآيات بطريقة مباشرة وانما يتحدث عن مضمونها بين الألوهية والربوبية والعبودية وهو يمثل نوع من التفسير الموضوعى الذى يتفق مع عالمية الآية فى دعوتها للناس كافة •

يقول : لقد كان تجريد الشركاء — على اختلافهم — من كل سلطان فى نظام الكون • وكل تأثير فى حياة الناس ، ورد الفعل كله ، والتأثير كله الى الله وحده ، واعلان عبودية كل شىء وكل حى فى هذا الوجود لله وحده بلا شريك — كما هو الأمر فى الواقع — وسخافة كل تصور يقوم على أساس أن لشىء أو لحى شفاعة عند الله لا ترد •• الى آخر ما تولى القرآن تفنيده ودحضه من الأوهام والأساطير والخرافات فى كل عقائد الجاهلية بما فيها عقائد أهل الكتاب المنحرفة ، وعقائد الأمم الضالة فى الجاهليات كلها ، على عهود الرسالات جميعا ، وعلى عهد الاسلام أيضا •• لقد كان هذا كله • هو المقدمة ، أو القاعدة ، التى أقام عليها الاسلام تجريد « الشركاء » — بمــا فى ذلك الشركاء من البشر من الحكام والكهــان — من حق القوامة والحاكمية والسلطان فى شئون الحياة الدنيا ، وفى تنظيم حياة البشر جملة وتفصيلا ، ورد هذا الحق لله وحــده بلا شريك ولا منازع ، بما أنه هو الخالق • الرازق • المالك • الكافل • المهيمن • الفعال لما يريد • فى نظام الكون وفى حياة الناس على السواء ، بلا معقب ولا شريك •

ومع أن قراءة النصوص القرآنية فيها الكفاية لبيان المنهج القرآنى فى تناول هذه القضـية ولتقرير وجه الحق فيها ، فاننا نؤثر أن نذكر بعض النصوص ، وبعض التفصيل :

ان تدبير معاش جماعة من البشر ، بل معاش فرد واحد ، بل جانب واحد من حياة فرد واحد ، كالطعام والشراب والكساء — فضلا على الخلق والانشــاء — هو أمر هائل جدا .. أمر يقتضى تحــريك قوى وطاقات وأجرام وأفلاك . وعوامل كونية متشابكة . لا قبل لواحد من البشر — بل لا قبل للبشر جميعا — بتحريكها ، فضلا على خلقها وانشائها . ولا قبل للعبيد أجمعين — لا البشر وحدهم — بمحاولة شيء من ذلك .. ولا يقدر على تحريكها وتنسيقها — فضلا على خلقها وانشائها — بحيث ينشأ من تلك الحركة المتناسقة تدبير أمر طعام أو شراب أو كساء لمجموعة من البشر، بل لفرد واحد من البشر ، بل لحى واحد من الأحياء الدنيا فى هذه الأرض! الا الله القادر القاهر ، خالق هذه القوى والطاقات ، والأجرام والأفلاك ، الذى تدين له بالعبودية ، وتخضع لنواميسه وأوامره ، وتتحرك بارادته وتعمل بقدره ..

انها تتطلب خلق هذا الكون بطبيعته هذه،وبموافقاته التى لاتحصى ، والتى تسمح — بتجمعها على هذا النحو — بنشأة الحياة ونموها — على النحو الذى نمت فيــه دون سواه — وتتطلب تحريك الشمس والقمــر والأرض والرياح ، ومئات العوامل الأخرى ، وفق خطة معينة ، تتوافر فيهــا آلاف الموافقات ، التى يستحيل أن تنشئها المصــادفات — اذ أن للمصــادفة كما يسمونها قانونا كذلك لا يســمح قطعا بأن تتجمع هذه الموافقات كلها تلقائيا — وليست هنالك مصادفات فى الواقع ولا فى التصور الاسلامى ، انما هو « القدر » المرسوم ، والتدبير المعلوم ، سواء عرفه البشر أم لم يعرفوه .

فان نحن تجاوزنا هذه الأرزاق الأوليــة الضرورية لحياة الانسان فى أبسط مظاهرها الأولية ، ونظرنا فى سائر مقومات حياته من زواج ونسل ،

ونوم وصحو ، وملكات وطاقات ، وقوى واستعدادات ، يواجه بها هذا الكون ، ويتعامل معه ، يسخر قواه وطاقاته ومدخراته وأقواته لمصلحته ، وللنهوض بوظيفة الخلافة فى هذا الملك العريض ، والتعامل مع شتى العوالم ، ثم التعامل مع الله — سبحانه — خالق هذه العوالم •• اتضح ألا سبيل الى شيء من هذا كله ، الا بقدر الله وارادته وتدبيره ، والا بعلمه وحكمته ، والا بفضله ورحمته •

والقرآن الكريم يواجه الكينونة البشرية بهذه الحقائق ، ويوجه اليها بصيرة الانسان وبصره ، وشعوره وفكره ، على النحو الفريد الذى يتميز به الأسلوب القرآنى الفريد •• فلنصمت نحن ولندع القرآن يقول :

* « أمن خلق السموات والأرض ، وأنزل لكم من السماء ماء ، فأنبتنا به حدائق ذات بهجة • ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ؟ أاله مع الله؟ بل هم قوم يعدلون • أم من جعل الأرض قرارا ، وجعل خلالها أنهارا ، وجعل لها رواسى ، وجعل بين البحرين حاجزا ؟ أاله مع الله ؟ بل أكثرهم لا يعلمون • أم من يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء ، ويجعلكم خلفاء الأرض ؟ أاله مع الله ؟ قليلا ما تذكرون • أمن يهديكم فى ظلمات البر والبحر ؟ ومن يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته ؟ أاله مع الله ؟ تعالى الله عما يشركون • أم من يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض ؟ أاله مع الله ؟ قل : هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين • قل : لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب الا الله[1] • وما يشعرون أيان يبعثون » •

(النمل : ٦٠ — ٦٥)

---

(١) يلاحظ أن كثيرا من هذه العوامل والظواهر ترجع الى الغيب الذى لا يعلم أحد كيف تتم فيه هذه الأحداث . فخلق السموات والأرض غيب لا يعلم أحد كيف تم . وبدء الخلق غيب لا يعلم أحد كيف كان . وكل ما يقال عنه فروض تقوم عليها نظريات هى مجرد ظنون . وتعارضها نظريات هى مجرد ظنون .. وكذلك بقية علامات الاستفهام .

✻ « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا ؟ وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون • ألم يروا الى الطير مسخرات فى جو السماء ما يمسكهن الا الله ؟ ان فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون • والله جعل لكم من بيوتكم سكنا ، وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم اقامتكم ، ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا الى حين • والله جعل لكم مما خلق ظلالا ، وجعل لكم من الجبال أكنانا ، وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر ، وسرابيل تقيكم بأسكم • كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون • فان تولوا فانما عليك البلاغ المبين • يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها ، وأكثرهم الكافرون » ••

(النحل : ٧٨ — ٨٣)

✻ « ألم نجعل الأرض مهادا ؟ والجبال أوتادا ؟ وخلقناكم أزواجا ؟ وجعلنا نومكم سباتا ؟ وجعلنا الليل لباسا ؟ وجعلنا النهار معاشا ؟ وبنينا فوقكم سبعا شدادا ؟ وجعلنا سراجا وهاجا ؟ وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا ؟ لنخرج به حبا ونباتا ، وجنات ألفافا ؟ » ••

(النبأ : ٦ — ١٦)

✻ « قل : من يرزقكم من السماء والأرض ؟ أمن يملك السمع والأبصار ؟ ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ؟ ومن يدبر الأمر ؟ فسيقولون الله • قل : أفلا تتقون ؟ فذلكم الله ربكم الحق ، فماذا بعد الحق الا الضلال ؟ فأنى تصرفون ؟ » •

(يونس : ٣١ — ٣٢)

✻ « يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم ، هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض ؟ لا اله الا هو ، فأنى تؤفكون ؟ » •

(فاطر : ٣)

ثم ان الله — سبحانه — كما أنه هو وحده المسيطر على نظام الكون ،

الخالق الأسباب والعوامل ، المانح الأرزاق والمواهب ، فهو وحده القاهر فوق عباده ، المتصرف فى أمرهم كله — فى عالم الواقع — وهم ، أرادوا أم لم يريدوا ، آمنوا أم كفروا ، خاضعين لسلطان الله المتمثل فى النواميس التى تحكم حياتهم ، وتعمل فى خلاياهم الحية وفى آجهزة تفكيرهم وارادتهم ، كما أنها تحكم حركات الكون وتصرفاته من حولهم . وهم فى قبضته — سبحانه — فى كل حال ، وفى كل حين . لا قبل لهم بالفكاك من هذه القبضة ، ولا فى خلجة عين ، ولا فى لمحة ذهن ! ولندع القرآن يتحدث عن هذا كله بأسلوبه الفريد :

❋ « قل : أرأيتم ان أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم، من اله غير الله يأتيكم به ؟ انظر كيف نصرف الآيات ثم هم يصدفون . قل : أرأيتكم ان أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة ؟ هل يهلك الا القوم الظالمون ؟ .. » .

(الأنعام : ٤٦ — ٤٧)

❋ « قل : أرأيتم أن جعل الله عليكم سرمدا الى يوم القيامة ؟ من اله غير الله يأتيكم بضياء ؟ أفلا تسمعون ، قل : أرأيتم ان جعل الله عليكم النهار سرمدا الى يوم القيامة ؟ من اله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه ؟ أفلا تبصرون ؟ » ..

(القصص : ٧١ — ٧٢)

❋ « أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون ؟ أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون ؟ أفأمنوا مكر الله؟ فلا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون » ..

(الأعراف : ٩٧ — ٩٩)

﴿ « لله ملك السموات والأرض ، يخلق ما يشـاء ، يهب لمن يشاء اناثا ويهب لمن يشاء الذكور • أو يزوجهم ذكرانا واناثا ، ويجعل من يشاء عقيما • انه عليم قدير » ••

(الشورى : ٤٩ — ٥٠)

﴿ « الله يتوفى الأنفس حين موتها ، والتى لم تمت فى منـامها ، فيمسك التى قضى عليها الموت ، ويرسل الأخرى الى أجل مسمى ، ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » ••

(الزمر : ٤٢)

﴿ « واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ، وأنه اليه تحشرون » ••

(الأنفال : ٢٤)

ومن أجـل أن تدبير أمر حياة البشر ومعاشهـم يقتضى تحريك تلك القوى والطاقات والأجرام والأفلاك ، التى لا يقدر على تحريكها هكذا فى تناسق وتوافق الا الله ، والتى لا يزعم أحد من البشر — حتى فى أركان الالحاد المطلق — أنه يحركها ، أو أن له يدا فى تحريكها — فضـلا على خلقها وانشائها — ومن أجل أن حياة البشر بجملتها فى قبضة الله وسلطانه — شأنها شأن هذا الكون كله — فانه يكون من التبجح الذى لا يقبله عقل ، أن يأتى واحد من البشر — عبد من العبيد فيزعم أن له حق «فرض قوامته» على جماعة من الناس • أى حق تصريف حياتهم فى الأرض وفق ارادته هو • فى حين أن حياتهم فى الأرض مرهونة بتلك الظروف والملابسات كلها •• وهذا الذى يدعى هذا الحق — وهو حق الله وحده — غير قادر على خلق هؤلاء الناس وانشائهم • ولا على أن يرزقهم الذكور والاناث • ولا على أن يهبهم السمع والبصر والادراك • ولا على أن يودعهم الطاقات والقوى والاستعدادات التى يتعاملون بها مع هذ الكون ، ولا على أن يردها عليهم ان هى سلبت منهم • كما أنه غير قادر على تسخير قوى الكون وطاقاته

وأجرامه وأفلاكه ، ليوفر لهم ضروريات حياتهم ، الا بالقدر الذى شاءه الله وعرفه للبشر •• فما ادعاء مدع حق تصريف حيـــاة الناس فى جانب من جوانبها ، وهو لا يملك من أمرهم ولا من أمر الكون كله شيئا ؟ ! •

انه التبجح المتوقح • وانه الاعتداء على اختصاص الله • وانه ادعاء شأن من شئون الألوهية—وهو الربوبية والقوامة والسلطان فى حياة البشر — ثم هو الفساد فى الأرض ، والافساد لحياة الناس • ثم هو النشاز فى نظام الكون ، والخروج عن قاعدة الاسلام — بمعنى الاستسلام — لله • أو الخروج عن « دين الله » باعتبـــار أن الدين هو النظام المتحكم الذى يدين له العبـــاد •• وهذا ما يعبر عنه القرآن الكريم فى مثل هذه الآية ، استنكارا لأمر من يريدون من الناس أن يتحاكموا لغير شريعة الله :

« أفغير دين الله يبغون ؟ وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها ، واليه يرجعون » ••

(آل عمران : ٨٣)

على أساس هذه الحقيقة قرر الاســـلام أن السلطان والتشريع — ابتداء — فى حياة البشر ، لا تكون الا لله • وأن هذه من خصائص الألوهية التى يتفرد بها الله • وأن من يدعى لنفســـه هذه الحقوق ويزاولها فانما يدعى أولى خصائص الألوهيـــة • وأن من يقره على ادعاء هذه الحقوق ومزاولتها ، ويتحاكم الى ما يســـنه له من شرائع وأنظمة وأوضاع وقيم وموازين — بغير سلطان من الله — فقد أقره على ادعاء أولى خصـــائص الألوهيـــة • وأن المدعى والمقر كلاهما لا يشهد أن لا اله الا الله • لأن الأول لو شهد أن لا اله الا الله لما ادعى الحق فى أولى خصائص الألوهية ولا زاوله ، ولأن الثانى لو شهد أن لا اله الا الله • ما أقر المدعى بالحق فى أولى خصائص الله ولا أقره على مزاولته • فضلا على أن يتحاكم الى ما يســـنه له من شرائع وأنظمة وأوضـــاع وقيم وموازين بغير سلطان من الله •

وليس هذا « رأيا » لنا نبـديه ، كما أنه ليس « رأيا » لغيرنا من البشر • بل انه ليس موضعا للرأى لعالم أو مفسر أو مجتهد من الفقهاء •• انما هو النص الذى لا مجال فيـه للتأويل • والحكم المعلوم من الدين بالضرورة • الذى لا مجال فيـه للرأى والاجتهاد فلا رأى مع النص •• ولكننا نحب فقط أن نبين أصل هذا الحكم فى العقيدة الاسلامية والمنهج القرآنى • وموضع هذا الحكم فى النصوص التى وردت به :

ان « الألوهية » و « الربوبية » و « العبادة » و « الدين » تذكر فى القرآن فى معرض « الاعتقاد » وفى معرض « الشـعائر » • وفى معرض « الحاكمية » على السواء[1] :

وتوحيد الله • وبالتعبير الاصطلاحى الفقهى •• شهادة أن لا اله لا الله — وهى التى يدخل بها الانسان فى الاسلام ، ويكتسب بها هذه الصفة، ويعصم بها دمه وماله فى الاسـلام — تعنى هذه المعانى والمدلولات كلها مجتمعة ، ولا توجد شرعا الا بعد توافر هذه المعانى والمدلولات مجتمعة•• تعنى افراد الله — سـبحانه — بالألوهية • وذلك بالاعتقاد فى ألوهيته وحده • وبالتوجه اليـه بالشعائر التعبدية وحده • وبالاعتراف له بحق السـلطان فى تنظيم الحياة البشرية بشريعته وحده •• وهـذه المعانى والمدلولات كل منها كالآخر فى انشاء شـهادة أن لا اله الا الله ، وجعلها قائمة ابتداء ، تدخل قائلها فى الاسلام ، وتعطيه صفة المسلم ، وتعصم دمه وماله بالاسـلام • فلا توجد هذه الشهادة ابتداء ، ولا تعتبر قائمة شرعا ، الا حين يشهد الشاهد بهذه المدلولات والمعانى مجتمعة • فان شهد ببعضها دون بعض ، أو تصور أن شهادة أن لا اله الا الله تعنى بعضها دون بعض ، فان شهادة أن لا اله الا الله الصادرة منه ، لا تعتبر قائمة ،

---

(١) يراجع بتوسع دقيق كتاب : «المصطلحات الأربعة فى القرآن» للسيد ابو الأعلى المودودى ، أمير الجماعة الاسلامية فى باكستان •

لأنها لا تقوم أصلا الا باجتماع هذه المدلولات وقصدها من القائل فى شهادته ، والاقرار بها ، والتعامل على أساسها .. وحتى المنافقون الذين كانوا يشهدون ان لا اله الا الله بألسنتهم — ويبطنون غير ما يظهرون — كانوا يفهمونه جيدا ويدركون ادراكا لا شبهة فيه ، أن لا اله الا الله تعنى هذه المدلولات كلها ، وكان الذين يسمعونهم يقولونها من المسلمين يفهمون أنهم يعنون الاقرار بها كلها ، وكانوا يتعاملون مع الجماعة المسلمة وحاكمها سواء كان هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أم الخلفاء بعده — على أســاس هذه الشهادة ومدلولاتها ، فيتحاكمون الى شريعة الله وحدها ، ولا يطلبون التحاكم الى غيرها — والا اعتبروا مرتدين لا منافقين ، ولم يسمح لهم بالبقاء فى ذلك المجتمع المسلم الا أن يتوبوا ويعودوا الى الاقرار بحاكمية الله وحده ، متمثلا هذا الاقرار فى التحاكم الى شريعة الله وحدها — أما نيتهم الباطنة فلا شأن للناس بها ، انما يحاسبهم بها الله ، ما دام اقرارهم بشهادة أن لا اله الا الله يعنى مدلولات هذه الشهادة ، وما دام سلوكهم الواقعى مطابقا لمدلولات هذه الشهادة ..

وضرورة اجتماع هذه المدلولات لشهادة أن لا اله الا الله فى وعى من يقر بهذه الشهادة ناشىء من أن الألوهية — التى يشهد الشاهد أن الله متفرد بها ، وأن ليس لغيره شىء من خصائصها — تعنى السلطان على اطلاقه . ولا تخص هذا السلطان بنظام الكون وحده دون حياة البشر . والربوبية تعنى القوامة على اطلاقها كذلك .. وسلطان الله وقوامته على البشر هما مقتضى ألوهيته وربوبيته على الكون كله ، وحياة البشر قطاع من نظام الكون ، وقائم على نظام الكون — كما أسلفنا — فالذى يعترف — أو يشهد — بربوبية الله وقوامته وسلطانه فى نظام الكون ، ثم يرفضها — أو لا يعرف حتميتها — فى حياة الناس ، فيعترف بها لغير الله من حاكم أو كاهن ، ويدع هذا الحاكم أو الكاهن يزاول هــذا الحق — وهو راض

متابع أو وهو غير مدرك أصلا — لا يمكن أن يقال عنه : انه يشهد أن لا اله الا الله ، وأنه أدى هذه الشهادة متى قالها بلسانه ، وهو لا يقصد منها مدلولاتها مجتمعة — كما لو قال أية عبارة أخرى وهو لا يقصد مدلولها أو يقصـد بها مدلولا آخر — ولا يقال عنه : انه مسـلم لله — ومسلم أى مستسلم — بينما هو رافض لألوهية الله وربوبيته وقوامته وسلطانه ، فى مجال من مجالات الوجود • أو لا يعرف أن لله وحده هذه الخصائص •• فكيف اذا كان يدعى لنفسه هذا الحق ويزاوله ؟ ! سواء كان هذا الادعاء وهذه المزاولة ناشئين من رفضه الاعتراف بهذا الحق لله وحده ، أو ناشئين من جهله بأن هذا الحق لله وحده ؟ ان النـاس فى الجاهلية التى واجهها الاسلام أول مرة — كانوا فريقين أيضا •• فريقا يعرف أن هذا الحق لله وحده ، ولكنه يرفضه ، لأنه لا يريد أن يتخلى عن سلطانه ومركزه ومنافعه وفريقا يجهل أن هذا الحق لا ينبغى أن يكون الا لله •• وكلاهما لم يعتبره الاسلام مسلما ••وقد بين القرآن لهؤلاء وهؤلاء ماهو الحق فى هذه القضية وردهم الى اصطلاحات لغتهم التى يتكلمون بها كما ردهم الى اصطلاحه الشرعى •• فكلاهما كان يعلم من اصطلاح لغتـه التى نزل بها القرآن ما مدلولات كلمة (اله) فمن شـهد منهم أن لا اله الا الله ، شهدها وهو يعلم تماما كامل مدلولها • وجعل يتعامل مع الجماعة المسلمة وقائدها • ويتعامل مع معسكر المشركين الآخر ، على أساس هذا المدلول الواضح • ومن رفضها منهم رفضهـا كذلك وهو يعلم ماذا يرفض منها • وما كان يرفض منها — فى الحقيقـة — الا رد الربوبوية والقوامة والسـلطان والتشريع والحكم فى حياة الناس الى الله وحده ، وكف كل البشر عن ادعاء هذا الحق ومزاولته ! ••

والاصطلاح اللغوى ، والاصطلاح الشرعى ، كلاهما متفقـان فى استعمال كلمـات : « الرب » و « العبادة » و « الدين » فى مواضـع

« الاعتقاد بالألوهية » • و « التوجه بالشعائر » • و « الاقرار بسلطان الله » على السواء • كما توضح النماذج االقرآنية :

* فيوسف — عليه السلام — يقول للساقى :

« ارجع الى **ربك** فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن • ان ربى بكيدهن عليم » •

(يوسف : ٥٠)

فيعنى بكلمة رب الأولى : الحاكم الذى يعبـد الناس لشرعه ونظامه وحاكميته وسـلطانه •• ويعنى بكلمة رب الثانية الهه هو الذى يدين له بالاعتقاد ، ويتوجه اليه بالعبادة ، ويعترف له وحده بالحاكمية •

* ويحكى القرآن عن فرعون وملئه ، وهم يرفضـون الاستجابة لموسى وهارون — عليهما السلام — :

« فقالوا : أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا **عابدون** » •

(المؤمنون : ٤٧)

وهم يعنون أنهم خاضعون لنظام حكمنا ، وشرائع مجتمعنا ، لا أنهم يدينون لنا بالألوهية ، ويتقدمون الينا بالشعائر •• ولا مجال للشك فيما كانوا يعنونه بكلمة « عابدون » بسبب ادعاء فرعون للألوهية • فقد سبق بيان معنى الألوهية التى كان يدعيها فرعون ، وهى الحاكمية المطلقة فى هذا القطر وفى حياة سكانه ، فضلا على أنه اذا كان فرعون قد ادعى الألوهية — على أى معنى — فان الملأ من قومه — وهم الكبراء والحكام — ما كانوا يدعونها قطعا ، والا قطع فرعون رقابهم لمشاركته فى الحاكمية ! — وماكان بنو اسرائيل يعبدونهم بهذا المعنى ! •

ويأمر الله نبيه — صلى الله عليه وسلم — أن يعلن عبادته له وحده :

« قل : الله أعبد مخلصا له دينى ، فاعبدوا ما شئتم من دونه » ••

(الزمر : ١٤ — ١٥)

بمعنى الاعتقاد بألوهيتــه وحده ، والتوجه بالشــعائر له وحده ، والدينونة بالحاكمية له وحده ..

كذلك يرد استعمال كلمة « الدين » فى معنى الاعتقاد بألوهية الله — سبحانه — وعبادته والخضــوع لحاكميته وبشرعه ونظامه كما هو فى النص السابق . على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ويرد فى موضع آخر بمعنى نظام الحكم وشريعته اطلاقا ، سواء كانت من عنــد الله أم من عند المتألهة من عبــاد الله ، وذلك قول الله — سبحانه — :

« كذلك كدنا ليوسف . ما كان ليأخذ أخاه فى **دين الملك** » ..

(يوسف : ٧٦)

يعنى .. كذلك دبرنا الأمر ليوسف فى مسألة احتجاز أخيه . فلو أنه حكم شريعة الملك ونظامه ما قضى له بأخذ أخيــه فى مقابل صواع الملك الذى وجد فى رحله — وهو كأسه — انما أخذه بدين قومه العبرانين — أى شريعتهم ونظامهم — الذى كان يقضى بأخذ من توجد عنده سريقة رقيقا فيما سرقه ! .

وهكذا يتبين أن الاعتراف بالربوبية لله وحده ، والعبادة لله وحده ، والدينونة له وحــده . تعنى فى مجموعها افراده بالألوهيــة ، أو تعنى بالمدلول الاصطلاحى : شهادة أن لا اله الا الله . وأن الاعتقاد بألوهيته وربوبيته هى كالتوجه اليه وحده بالشعائر التعبدية ، كالاعتراف بحاكميته وحده والتحاكم الى شريعته وحدها ... كلها سواء فى تكوين مدلول : أن لا اله الا الله . وأن الذى يعتــرف بحاكمية غير الله وشرعه ونظامه انما يعترف لهذا الغير بالربوبية ، وبالعبادة وبالدين . فلا يقال حينئذ : أنه يشهد أن لا اله الا الله . ومن باب أولى أن الذى يدعى ويزاول الحاكمية

والتشريع والتنظيم — بغير سلطان من الله — لا يجوز أن يقال عنه : انه يشهد أن لا اله الا الله ! •

وهذا هو الأصل العام — المعلوم من الدين بالضرورة — الذى يقوم عليه الحكم بكفر من لا يفرد الله سبحانه بخصائص الألوهية كلها مجتمعة — لا ببعضها دون بعض — وهى : الاعتقاد القلبى بألوهية الله وحده • والتوجه اليه بالشعائر التعبـدية وحده • والدينونة له بالحاكمية وحده ممثلة فى التحاكم الى شريعته وحدها ••

ولكن الله — سـبحانه — لا يدع هذا الحكم — المعروف من الدين بالضرورة — الى وضوح هذا الأصل وحده •

فقد يمارى فيـه بعض الناس ! فهو ينص على هذه الحكم نصا ، المماحكة فيـه وفى تطبيقه على أى مجموعة من الناس فى الحالات التى ينطبق فيها ، لا تمثل الا عدم الجد فى أخذ كلام الله — سبحانه — مأخذ الجد ••• وهذا أخف ما يقال فى مثل هذه المماحكات[1] •

فى اثبات الرسالة باعجاز القرآن :

يقول الله تعالى :

(وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين) •

معانى المفردات :

لفظ (ان) موضوع للشك فى وقوع ما بعده وأتى به هنا مع أنهم مرتابون فعلا لتوبيخهم على ارتيابهم فى هذا اليقين ولتصوير أن الارتياب فى هذا الكتاب العزيز لا يكون الا على سبيل الفرض •

---

(١) راجع مقومات التصور الاسلامى من ص ١٤٢ — ١٥٠ •

و (ما) اما موصولة أو موصوفة والمعنى :

ان شككتم فى أن ما نزلناه على عبـــدنا محمد صلى الله عليه وسلم كلامنا ووحينا وأن أحدا يستطيـــع أن يأتى بما يشبهه أو بعضه فأتوا بسورة من مثله •

وعدى (نزل) (بعلى) دون الى اشـــارة الى استعلاء المنزل على المنزل عليه وتمكنه منه فصار كاللابس له •

وفى ذكره صلى الله عليه وسلم بعنوان (العبـــودية) مع الاضافة الى ضمير الجلالة تنبيه على عظم قدره واختصاصه به •

وقوله تعالى : (فأتوا بسورة من مثله) •

جواب الشرط والفاء واقعة فى جوابه وفيها معنى السببية والبـــاعث على طلب هذا الفعل منهم ان كان ممكنا وقولـــه (فأتوا) أمر ليس على بابه وانما المراد اظهار عجزهم •

و (السورة) : القطعة من القرآن التى أقلها ثلاث آيات •

وقوله تعالى : (من مثله) جار ومجرور صفة لسورة والضمير فيه راجع الى القرآن المستفاد من قوله مما نزلنا على عبدنا • و (من) معناها: البيان ويجوز أن تكون للتبعيض •

والدعاء فى قوله تعالى : (وادعوا شهداءكم) معناه الاحضار والنداء والاستعانة •

و (الشهداء) : جمع شهيد أو شاهد •

والشهيـــد كما قال الراغب : كل من يعتد بحضـــوره ممن له الحل والعقد ، أو هو القائم بالشهادة أو هو الناصر لغيره •

و (دون) ظرف مكان لا ينصرف ومعناه غاية القرب من الشىء ثم شاع استعماله فى كل تجاوز حد الى حد ولو من غير تفاوت •

و (من) فى قوله : (من دون الله) : لابتداء الغاية متعلقة بادعوا •

قوله تعالى : (ان كنتم صادقين) الصدق معناه مطابقة الخبر الواقع وجواب (ان كنتم صـــادقين) محذوف وكذا متعلق الصدق وتقديره ان كنتم صادقين فى زعمكم أنه كلام البشر أو فى أنكم تقدروا على معارضته فأتوا بمثله وادعوا من شـــئتم من غير الله ممن تظنون أو تتوهمون أنه يعينكم •

وقوله تعالى : (فان لم تفعلوا ولن تفعلوا) نتيجة لما تقدم وقوله : (ولن تفعلوا) جملة اعتراضية بين الشرط وجوابه والمراد به قطع التردد واثبات عجزهم على الدوام •

قوله تعالى : (فاتقوا النـــار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين) •

والمعنى : فخافوا العذاب الذى أعده الله للجاحدين وهو النار التى وقودها الناس والحجارة •

و (الوقود) : ما يلقى فى النار لاضرامها كالحطب ونحوه •

و (الحجارة) : يمكن أن تكون الأصـــنام التى كانوا يعبدونها من دون الله كما قال تعالى :

(انكم وما تعبدون حطب جهنم أنتم لها واردون) •

ومعنى (أعدت للكافرين) :

هيئت لهم ، لأنهم هم الذين يخلدون فيها ، أو أنهم خصوا بها ، وان كانت معدة للفاسقين — أيضا — لأنه يريد بذلك نارا مخصوصة لا يدخلها غيرهم[1] كما قال تعالى :

(ان المنافقين فى الدرك الأسفل من النار) •

---

(١) راجع تفســير الفخر الرازى وتفســير الالوسى والتسهيل لعلوم التنزيل والراغب والمنتخب فى تفسير القرآن كلهم فى معنى الآيات •

التفسير التحليـلى

مناسبة الآيات لما قبلها :

انتقال لاثبات الجزء الثـانى من جزىء الايمان بعد أن تم اثبات الجزء الأول من ذلك بما قدمه من قوله تعالى : (يا أيها الناس اعبـدوا ربكم .. الخ) .

فتلك هى المناسبة التى اقتضت عطف هذه الجملة على جملة (يا أيها الناس اعبدوا ربكم) .

ولأن النهى عن أن يجعلوا لله أندادا جاء من عند الله فهم بمظنة أن ينكروا أن الله نهى عن عبـادة شفعائه ومقربيه لأنهم من ضلالهم كانوا يدعون أن الله أمرهم بذلك قال تعالى :

(وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم) .

فقـد اعتلوا لعبادة الأصنام بأن الله أقامها وسائط بينه وبينهم ، فزادت بهذا مناسـبة عطف قوله : (وان كنتم فى ريب) عقب قوله : (فلا تجعلوا لله أندادا)[1] .

و (ان) : شرطية وتستعمل فى المشكوك والموهوم والنادر بخلاف (اذا) فانها تختص بدخولها على المتيقن والمظنـون وكثير الوقوع قال تعـالى :

(يا أيها الذين آمنـوا اذا قمتم الى الصلاة فاغسـلوا وجوهكم وأيديكم الى المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم الى الكعبين وان كنتم جنبا فاطهروا)[2] .

---

(١) التحرير والتنوير ج ١ ص ٣٣١ .
(٢) سورة المائدة آية : ٦ .

فأتى باذن فى الوضوء لتكرره وكثرة أسبابه وبان فى الجنابة لندرة وقوعها بالنسبة الى الحدث •

وقال تعالى : (فاذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه ، وان تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم اذا هم يقنطون)[١] •

أتى فى جانب الحسنة باذا لأن نعم الله على العباد كثيرة ومقطوع بها ، وبان فى جانب السيئة لأنها نادرة الوقوع ومشكوك فيها[٢] •

وأتى بان المفيدة للشك فى هذه الآية والمقام مقام اذا لأن كونهم فى ريب مما نزل على النبى صلى الله عليه وسلم أمر محقق وذلك :

اما للتوبيخ على الارتياب وتصوير أنه مما لا ينبغى أن يثبت الا على سبيل الفرض لاشتمال المقام على ما يزيله ، واما لتغليب جانب من لا قطع بارتيابهم على من سواهم ، أو لأن البعض لما كان مرتابا والبعض غير مرتاب ، جعل الجميع كأنه لا قطع بارتيابهم ولا بعدمه[٣] •

وعبر بقوله (وان كنتم فى ريب) ولم يقل : وان ارتبتم فيما نزلنا ، للاشارة الى أن ذات القرآن لا يتطرق اليها ريب ، ولا يطير الى أفقها شرارة من شك ، وأنه وان أثير حوله أى شك فمرجعه الى انطماس بصيرتهم ، وضعف تفكيرهم ، واستيلاء الحقد والعناد على نفوسهم[٤] •

وتنكير (الريب) للتحقير ، وأن من حقه ان كان موجودا — على سبيل الفرض — أن يكون ضعيفا قليلا ، لسطوع ما يدفعه وقوة ما يزيله •

---

(١) سورة الروم آية : ٣٦ •
(٢) انظر الاتقان فى علوم القرآن جـ ١ ص ١٠٥ •
(٣) تفسير الالوسى جـ ١ ص ١٩٣ •
(٤) التفسير الوسيط جـ ١ ص ٩٣ •

ووجه الاتيان (بفى) الدالة على الظرفيـــة للاشارة الى أنهم قد امتلكهم الريب وأحاط بهم احاطة الظرف بالمظروف •

وجعل الريب ظرفا بتنزيل المعـــانى منزلة الأجرام ، واستقرارهم فيه واحاطته بهم لا ينافى اعتبار ضعفه وقلته ، لما أن ما يقتضيه ذلك هو دوام ملابستهم به ، لا قوته وكثرته •

ومعنى كونهم فى ريب منـــه أى ارتيابهم فى كونه وحيـــا من الله عز وجل •

و (من) فى قوله (مما نزلنا) ابتدائية ، و (ما) موصولة أو نكرة موصوفة وهى عبارة عن الكتاب •

وقال تعالى : (نزلنا) دون أنزلنـــا لأن المراد النزول على سبيل التدرج ومن المعروف أن القرآن قد نزل منجما فى مدة تزيد على عشرين سنة •

قال الزمخشرى :

فان قلت : لم قيل : (مما نزلنا) لفظ التنزيل دون الانزال ؟ •

قلت : لأن المراد النزول على ســـبيل التدرج والتنجيم وذلك أنهم كانوا يقولون : لو كان هذا القـــرآن من عند الله ، لم ينزل هكذا نجوما سورة بعد ســـورة ، وآيات غب آيات ، على حسب النوازل وعلى سنن ما نرى ، عليه أهل الخطابة والشعر من وجود ما يوجد منهم مفرقا حينا فحينا ، حسب ما يعن لهم من الأحوال المتجددة •••

فقيـــل لهم : ان ارتبتم فى هذا الذى وقع انزاله هكذا على مهل وتدرج ، فهاتوا أنتم نوبة واحدة من نوبه ، وهلموا نجما فردا من نجومه :

سورة من أصغر السـور ، أو آيات شتى مفتريات ، وهذا غاية التبكيت ومنتهى ازاحة العلل[١] •

وفى تعدى (نزلنـا) بعلى ، اشارة الى استعلاء المنزل على المنزل عليه وتمكنه منه ، وأنه صار كالملابس له بخلاف (الى) اذ لا دلالة لها على أكثر من الانتهاء والوصول •

والمراد بالعبد فى قوله تعالى (على عبدنا) سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم •

وفى اضافته الى الله تعالى ، تنبيه على عظيم قدره صلى الله عليه وسلم ، وشرف منزلته عنده تعالى ، واختصاصه به ، وانقياده لأوامره ، وفى ذلك غاية التشريف والتنويه بقدره صلى الله عليه وسلم •

وفى ذكره صلوات الله عليه باسم العبودية تذكير لأمته بهذا المعنى ، حتى لا يغالوا فى تعظيمه فيدعوا ألوهيته كما غالت بعض الفرق فى تعظيم أنبيائها أو زعمائهم فادعت ألوهيتهم •

والسـورة : الطائفة من القرآن المسماة باسم خاص والتى أقلها ثلاث آيات والضمير فى قوله (من مثله) يعود على المنزل وهو القرآن •

والمراد من مثل القرآن : ما يشابهه فى حسن النظم وبراعة الأسلوب وحكمة المعنى ، وهذا الوجه من الاعجاز يتحقق فى كل سورة[٢] •

وقيل أن الضمير فى قوله (من مثله) يعود على المنزل عليه القرآن وهو النبى صلى الله عليه وسلم ولكن الرأى الأول أرجح •

وقد ذكر الفخر الرازى الأدلة على ترجيح القول الأول قال :

---

(١) الكشاف جـ ١ ص ٩٧ •

(٢) راجـع التفسير الوسـيط ص ٩٢ ودراسات فى التفسـير ص ١٧١ — ١٧٢ •

وعود الضمير الى القرآن أرجح لوجوه :

أحدها : أن ذلك مطابق لسائر الآيات الواردة فى باب التحدى لاسيما، ما جاء فى سورة يونس (فأتوا بسورة من مثله) •

ثانيهما : أن البحث انما وقع فى المنزل لأنه قال : (وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا) فوجب صرف الضمير اليه ، ألا ترى أن المعنى :

وان ارتبتم فى أن القرآن منزل من عند الله فهاتوا شيئا مما يماثله ، وقضـية الترتيب ، لو كان الضمير عائدا الى رســول الله صلى الله عليه وسلم أن يقال : وان ارتبتم فى أن محمدا صلى الله عليه وسلم منزل عليه فهاتوا قرآنا من مثله •

ثالثها : أن الضمير لو كان عائدا على القرآن لاقتضى كونهم عاجزين عن الاتيان بمثله سواء اجتمعوا أو انفردوا ، وسواء كانوا أميين أو كانوا عالمين محصلين ، أو لو كان عائدا على محمد صلى الله عليه وسلم فذلك لا يقتضى الا كون أحدهم من الأميين عاجزين عنـه ، لأنه لا يكون مثل محمد صلى الله عليه وسلم الا الشخص الواحد الأمى ، فأما لو اجتمعوا وكانوا قارئين لم يكونوا مثــل محمد ، لأن الجماعة لا تماثل الواحـد ، والقارىء لا يكون مثل الأمى ولاشك أن الاعجاز على الوجه الأول أولى •

رابعها : أنا لو صرفنا الضمير الى القرآن ، فكونه معجزا انما يحصل لكمال حاله فى الفصـاحة أما لو صرفناه الى محمد صلى الله عليه وسلم فكونه معجزا انما يكمل بتقرير كمال حاله فى كونه أميا بعيدا عن العلم ، وهذا وان كان معجزا أيضا الا أنه لما كان لا يتم الا بتقرير نوع النقصان فى حق محمدا صلى الله عليه وسلم كان الأول أولى •

خامسها : أنا لو صرفنا الضمير الى محمد صلى الله عليه وسلم لكان ذلك يوهم أن صــدور مثل القرآن ممن لم يكن مثل محمد فى كونه أميا

ممكن ، ولو صرفناه الى القرآن لدل ذلك على أن صدور مثل القرآن من الأمى ممتنع فكان هذا أولى[١] •

وقوله : (وادعوا شهداءكم من دون الله) •

هذه الجملة معطوفة على قوله تعالى (فأتوا بسورة من مثله) أى ائتوا بها وادعوا شهداءكم •

والدعاء : النداء والاستعانة ، ولعل الثانى مجاز أو كناية مبنية على النداء لأن الشخص انما ينادى ليستعان به ومنه قوله تعالى :

(أغير الله تدعون)[٢] •

والشهداء جمع شهيد أو شاهد والشهيد كما قال الراغب :

كل من يعتد بحضوره ممن له الحل والعقد ، وجاء بمعنى الحاضر ، والقائم بالشهادة ، والناصر والامام أيضا ، وكأنه سمى به لأنه يحضر المجالس وتبرم بمحضره الأمور •

والمراد من الشهداء هنا : الأوثان والأصنام التى ادعوا أنها آلهة وعبدوها من دون الله ، فقد كانوا يزعمون أن آلهتهم تشهد لهم يوم القيامة بأنهم على حق ، وكأن الله تعالى يقول لهم : اذا كان الأمر كما تدعون من أنها تستحق العبادة ، وأنها تنفع وتضر ، فقد دفعتم فى منازعة محمد صلى الله عليه وسلم الى فاقة شديدة وحاجة عظيمة فى التخلص منها فتعجلوا الاستعانة بها ، والا فاعلموا أنكم مبطلون فى ادعاء كونها آلهة ، وأنها تنفع وتضر ، وفى هذا ابطال كونها آلهة ، وأنها تنفع وتضر ، وابطال ما أنكروه من اعجاز القرآن وكونه من عند الله •

---

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٢ ص ١١٨ .
(٢) سورة الأنعام آية : ٤٠ .

أو يكون المراد من الشهداء : أكابرهم أو من يوافقهم فى انكار أمر محمد صلى الله عليه وسلم ، والمعنى : ادعوا أكابرهم ورؤساءكم ليعينوكم على المعارضة وليحكموا لكم وعليكم فيما يمكن ويتعذر[1] .

و (دون) : بمعنى غير ، وتطلق فى أصل اللغة على أدنى مكان من الشىء ومنه تدين الكتب لأنه ادناء البعض من البعض ، ودونك هذا أى : خذه من أدنى مكان منك . ثم استعير للتفاوت فى الرتب فقيل : زيد دون عمرو أى : فى الشرف ، ومنه الشىء الدون ، ثم اتسع فيه فاستعمل فى كل تجاوز حد الى حد ، وتخطى أمر الى أمر .

قال الجمل : والمعنى : وادعوا الى المعارضة من حضركم أو رجوتم معونته ، من انسكم وجنكم وآلهتكم غير الله فانه لا يقدر على أن يأتى بمثله الا الله .. ، أو ادعوا من دون الله شهداء يشهدون لكم بأن ما أتيتم به مثله ، ولاتستشهدوا بالله ، فان الاستشهاد به من عادة المبهوت العاجز عن اقامة الحجة ، أو شهداءكم الذين اتخذتموهم من دون الله آلهة وزعمتم أنها تشهد لكم يوم القيامة[2] .

وفى أمرهم بدعوة أصنامهم وهى جماد ، وفى تسميتها شهداء مع اضافتها اليهم مع أنها لا تعقل ولا تنطق ، فى كل ذلك أقوى ألوان التهكم ، لكى يثير فى نفوسهم من الألم ما قد يكون سببا لتنبيههم الى جهلهم ، وانصرافهم عن ضلالهم[3] .

وقوله (ان كنتم صادقين) : جملة معترضة وقعت فى آخر الكلام وتذييل .

---

(١) تفسير الفخر الرازي جـ ٢ ص ١١٨ .
(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ١ ص ٢٨ .
(٣) راجع التفسير الوسيط ص ٩٤ .

وجواب ان محـــذوف لدلالة الكلام الســـابق عليه ، وكذا متعلق الصدق •

والمعنى : ان كنتم صادقين بزعمكم فى أنه كلام البشر ، أو فى أنكم تقدرون على معارضته فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا آلهتكم ورؤساءكم وبلغاءكم وجميع البشر ليعينوكم أو ليشهدوا لكم أنكم أتيتم بما يماثله فى حسن فصاحته وروعة بلاغته وحكمة معانيه •

وجملة (ان كنتم صـــادقين) تكرير للتحدى وتأكيد له ، ولذا ترك العاطف •

وفى هذه الآية اثارة لحماستهم • اذ عرض بعدم صدقهم ، فتتوفر دواعيهم على المعارضة التى زعموا أنهم أهل لها •

قوله تعالى : (فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة) •

هذه الجملة فذلكة لما تقدم فلذا أتى بالفاء أى : اذا بذلتم فى السعى غاية المجهود ، وجاوزتم فى الحد كل حد معهود متشبثين بالذيول راكبين متن كل صعب وذلول وعجزتم عن الاتيان بمثله وما يدانيه فى أسلوبه ظهر أنه معجز والتصديق به لازم ، فآمنوا واتقوا النار •

وأتى (بان) والمقام لاذا لاستمرار العجز تهكما بهم كما يقول الواثق بالغلبة لخصمه ان غلبتك لم أبق عليك •

ففى الآية استعارة تهكمية تبعية حرفيـــة أو حقيقة وكناية كسائر ما جاء على خـــلاف مقتضى الظاهـــر ، وقد يقال غـــير ذلك نظرا لحال المخاطبين فان العجز كان قبـــل التأمل كالمشكوك فيه لديهم لاتكالهم على فصاحتهم[1] •

---

(١) تفسير الألوسى جـ ١ ص ١٩٦ •

وقوله (ولن تفعلوا) : جملة معترضة بين الشرط والجزاء ، جيء بها لتأكيد عجزهم عن معارضته •

و (لن) لنفى المستقبل مثل (لا) الا أن فى (لن) توكيدا وتشديدا لذا حسن موقع لن الدالة على نفى المستقبـل ، فالنفى بها آكد من النفى بلا ولهذا قال سيبويه :

(لا) لنفى يفعل ، و (لن) لنفى سيفعل ، واذا كانت (لن) لنفى المستقبل ، فانها تدل على النفى المؤيد غالبـا ، لأنه لما لم يوقت بحد من حدود المستقبل دل على استغراق أزمنته اذ ليس بعضها أولى من بعض ، ومن أجل ذلك قال الزمخشرى بافادتها التأبيد حقيقة أو مجازا وهو التأكيد• وحيث جاءت لن فى القرآن الكريم وفى كلام العرب ، فانها تجىء فى مقام ارادة النفى المؤكد أو المؤيد[١] •

وقال سبحانه (فان لم تفعلوا) ولم يقل : فان لم تأتوا بسورة من مثله ، لأن قوله (فان لم تفعلوا) جار مجرى الكناية التى تعطى اختصارا وايجازا تغنى من طول المكنى عنه ولأن الاتيان فعل من الأفعال تقول : أتيت فلانا فيقال لك : نعم ما فعلت •

وفى قوله (فان لم تفعلوا ولن تفعلوا) : اخبار بالغيب ، فقد أخبر القرآن الكريم بأنهم لن يأتوا بسورة من مثله فى أى وقت من الأوقات ، وفى أى زمان من الأزمان الى أن تقوم الساعة ، وقد شهد التاريخ أنهم ما أتوا بمثله أو بمثل سورة منه من نزوله الى الآن ، فلو وقع أنهم جاؤوا بمثل سـورة منه لنقل الينا ، ولكنه لم ينقل الينا • لاسيما والطاعنون فيه أكثر من الذابين عنه ، ولهذا كان من الاخبار بالغيب واعجاز القرآن الكريم •

وقد اشـترط سبحانه وتعالى فى اتقاء النار ، انتفاء اتيانهم بسورة

---

(١) انظر التحرير والتنوير جـ ١ ص ٣٤٢ •

من مثله لأنه اذا ظهر عجزهم عن المعارضة ولم يأتوا بسورة من مثله صح عندهم صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واذا صح عندهم صدقه ثم لزموا العناد ولم ينقادوا ولم يتبعوا النبى ، استوجبوا العذاب بالنار ، فاتقاء النار يوجب ترك العنـــاد ، فأقيم المؤثر مكان الأثر ، وجعل قوله (فاتقوا النار) قائما مقام قواه فاتركوا العناد ، وهذا هو الايجاز الذى هو أحد أبواب البلاغة ، وفيه تهويل لشأن العناد لانابة اتقاء النار منابه ، متبعا ذلك بتهويل النار وتفظيع أمرها •

وهو ايجاز بديع وذلك أن اتقاء النار لم يكن مما يؤمنون به من قبل تكذيبهم بالبعث ، فاذا تبين صـــدق الرسول لزمهم الايمـــان بالبعث والجزاء •

و (الوقود) : بفتح الواو اسم لما يوقد به النار وبضم الواو مصدر ، وقياس فعول بفتح الفاء أنه اسم لما يفعل به كالوضوء والحنوط ، والفتح هنا هو المتعين لأن المراد الاسم •

والمراد (بالناس) : صنف منهم وهم الكافرون ، فتعريفه تعريف الاستغراق العرفى ، ويجوز أن يكون تعريف العهـــد لأن كونهم المشركين قد علم من آيات أخرى كثيرة[1] •

ومعنى قوله (وقودها الناس والحجارة) :

أى أنها نار ممتازة عن غيرها من النيران ، بأنها لا توقد الا بالناس والحجارة ، وأن غيرها ان أريد احراق الناس أو احماء الحجارة ، أوقدت أولا بوقود ثم طرح فيهـــا ما يراد احراقه و احماءه وتلك توقد بنفس ما يحرق ويحمى فى النار وبأنها لافراط حرها وشـــدتها ، أنها اذا اتصلت بما لا تشتعل به نار اشتعلت وارتفع لهيبها •

---

(١) انظر التحرير والتنوير ج ١ ص ٢٤٢ .

وقرن سبحانه وتعالى الناس بالحجارة ، وجعل الحجارة معهم وقودا ، لأنهم قرنوا بها أنفسهم فى الدنيا حيث نحتوها أصناما ، وجعلوها لله أندادا ، وعبدوها من دونه قال تعالى :

(انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) •

فهذه الآية مفسرة لما نحن فيه فقوله (انكم وما تعبدون من دون الله) فى معنى (النـــاس والحجارة) وقوله (حصب جهنـــم) فى معنى (وقودها) •

والاقتصار على ذكر الناس والحجارة لا يؤخذ منه أن ليس فى النار غيرهما ، بدليـــل ما ذكر فى مواضع أخرى من القـــرآن الكريم أن الجن والشياطين يدخلونها •

والحكمة من جعل الحجـــارة معهم وقودا أن ذلك تحقيرا لهـــا وزيادة اظهار خطأ عبادتها فيما عبدوا • فانهم لما اعتقدوا فى حجارتهم المعبودة من دون الله أنها الشفعاء والشـــهداء الذين يستغنون بهم ويدفعون عن أنفسهم الضر بها ، جعلها الله عذابهم ، فقرنهم بهـــا محماة فى نار جهنم ايغالا فى ايلامهم ، واغراقا فى تحســـيرهم ، فان ما أعدوه سببا لعزهم وفخرهم أصبح سببا لعذابهم ، وما أعدوه لنجاتهم كان سببا لعذابهم •

وقد قيل ان الحجارة ، هى حجارة الكبريت ، وهو تخصيص بغير دليل بل فيه ما يدل على فساده ، وذلك لأن الغرض ههنا تعظيم صفة هذه النار ، والايقاد بحجارة الكبريت أمر معتاد ، فلايدل الايقاد بها على قوة النار ، أما لو حملناه على سائر الأحجار ، دل هذا على عظم أمر النار ، فان ســـائر الأحجار تطفأ بها النيران ، فكأنه قال : تلك النيران قد بلغت لقوتها أن تتعلق فى أول أمرها بالحجارة التى هى مطفأة لنيران الدنيا •

وقوله : (أعدت للكافرين) أى : هيئت لهم ، وفى هذا ما يدل على أن هذه النار الموصوفة بما ذكر معدة ومهيئة للكافرين ••

وهـذه الجملة مستأنفة مقررة لمضمون ما قبلهـا ، ومبينة لمن أريد الناس دافعة لاحتمال العموم •

والمراد بالكافرين : اما جنس الكافرين ، والمخاطبون داخلون فيه دخولا أوليا ، أو هم خاصة ، فهى نار مخصوصة بهم لا يدخلها غيرهم ، ووضع الظاهر موضع المضـمر حينئذ لذمهم بالكفر وللاشعار بعلة الحكم بكفرهم •

والآية تدل على أن النار مخلوقة الآن ، والله تعالى أعلم بمكانها فى واسع ملكه ، وهذا خلافا للمعتزلة الذى يقولون بأن (أعدت) أى ستعد وعبر بالماضى عن المستقبل لتحقق وقوعه ، وهذا خلاف الظاهر[1] •

فقـه الآيات

هذه لمحة فى اعجاز القرآن رأينا أن تكون هى الأسـاس والدراسة لفقه الآيات السابق تفسيرها وقد اعتمدنا فيها على كتاب التحرير والتنوير لفضيلة الشـيخ محمد الطاهر بن عاشور المقدمة العاشرة مع توضـيح وتصرف •

أولا : فى عـلاقة الاعجاز بالتفسير هى أن مفسر القـرآن لا يعد تفسيره لمعانى القرآن بالغا حد الكمال فى عرضه ما لم يكن مشتملا على بيان دقائق من وجوه البـلاغة فى آيه المفسرة بمقدار ما تسمو اليه الهمة من تطويل واختصار ، فالمفسر بحاجة الى بيان ما فى آى القرآن من طرق الاستعمال العربى وخصائص بلاغته وما فاقت به آى القرآن فى ذلك لئلا يكون المفسر حين يعرض عن ذلك بمنزلة المترجم لا بمنزلة المفسر •

ثانيـا : وبلاغة القرآن ولطائف أدبه ، التى هى فتح لفنون رائعة من أدب لغة العرب حتى نرى كيف كان هذا القرآن فتح بصائر وفتح عقول

(١) راجع دراسات فى التفسير ص ١٨٢ •

وفتح ممالك ، وفتح أدب غض ارتقى به الأدب العربى مرتقى لم يبلغه أدب أمة من قبل •

ومع ذلك فمن أعجب ما نراه خلو معظـــم التفاسير عن الاهتمـــام بالوصول الى هذا الغرض الأسمى الا عيون التفاســـير ، فمن مثل مثل معانى القرآن لأبى اسحاق الزجاج ، والمحرر الوجيز للشـــيخ عبد الحق ابن عطية الأندلسى ومن يكثر مثل الكشاف • ولا يعذر فى الخلو عن ذلك الا التفاسير التى نحت ناحية خاصة من معانى القرآن مثل أحكام القرآن ، على أن بعض أصحاب هذه الهمم العلية من أصحاب هذه التفاسير لم يهمل هذا الأمر النفيس كما يصف بعض العلماء كتاب أحكام القرآن لاسماعيل ابن اسحاق بن حماد المالكى البغدادى ، وكما نراه فى مواضع من أحكام القرآن لأبى بكر بن العربى •

ثالثـا : ثم ان العناية بما نحن بصدده من بيان وجوه اعجاز القرآن انما نبعت من مختزن أصل كبير من أصول الاســـلام وهو كونه المعجزة الكبرى للنبى صلى الله عليه وسلم وكونه المعجزة الباقية وهو المعجزة التى تحدى بها الرسول معانديه تحديا صريحا قال تعالى :

(وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل انما الآيات عند الله وانما أنا نذير مبين • أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم) •

وقد تصدى للاستدلال على هذا أبو بكر الباقلانى فى كتاب له سماه أو سمى (اعجاز القرآن) وأطال ، وخلاصة القول فيه :

أن رسالة نبينا صلى الله عليه وسلم بنيت على معجزة القرآن • وان كان أيد بعد ذلك بمعجزات كثـــيرة الا أن تلك المعجزات قامت فى أوقات وأحوال ومع ناس خاصة ونقل بعضها متواترا وبعضها نقل نقلا خاصا ، فأما القرآن فهو معجـــزة عامة ولزوم الحجة به باق من أول ورودها الى

يوم القيامة ، وان كان يعلم وجه اعجازه من عجز أهل العصر الأول عن الاتيان بمثـله فيغنى ذلك عن نظر مجدد ، فكذلك عجـز أهل كل عصر من العصور التالية عن النظر فى حال عجز أهل العصر الأول ، ودليل ذلك متواتر فى نص القرآن فى عدة آيات تتحدى العرب أن يأتوا بسورة مثله ، مما هو معلوم ، ناهيك أن القرآن نادى بأنه معجز لهم • وسجل عليهم أنهم لا يفعلون ذلك أبدا ، فكان كما سـجل ، فالتحدى متواتر وعجـز المتحدين أيضا متـواتر بشهادة التاريخ ، اذ طالت مدتهـم فى الكفر ولم يقيموا الدليل على أنهم غير عاجزين ، وما استطاعوا الاتيان بسورة مثله ثم عدلوا الى المقاومة بالقوة •

رابعـا : وقد اختلف العلماء فى تعليل عجزهم فذهبت طائفة قليلة الى تعليله بأن الله صرفهم عن معارضة القرآن فسلبهم المقدرة أو سلبهم الداعى ، لتقوم الحجة عليهم بمرأى ومسمع من العرب جميعا • ويعرف هذا القول بالصرفة كما فى المواقف للعضد والمقاصد للتفتزانى (ولعلها بفتح الصاد وسكون الراء وهى مرة من الصرف وضع بصيغة المرة للاشارة الى أنها صرف خاص فصارت كالعلم بالغلبة) •

ولم ينسبوا هذا القول الا الى الأشعرى فيما حكاه أبو الفضل عياض فى الشفا والى النظام والشريف المرتضى واسـحاق الاسفرايينى فيمـا حكاه عنهم عضد الدين فى المواقف وهو قول ابن حزم صرح به فى كتاب الفصل (ص ٧ ج ٣) (ص ١٨٤ ج ٢) وقد عزاه صـاحب المقاصد فى شرحه الى كثير من المعتزلة •

وأما الذى عليـه جمهرة أهل العلم والتحقيق واقتصر عليـه أئمة الأشعرية وامام الحرمين وعليـه الجاحظ وأهل العربية كما فى المواقف ، فالتعليل لعجز المتحدين به بأنه بلوغ القرآن فى درجات البلاغة والفصاحة مبلغا تعجز قدرة بلغاء العرب عن الاتيان بمثله •

وقد بدا لى دليـــل قوى على هذا وهو بقاء الآيات التى نسخ حكمها وبقيت متلوة من القرآن ومكتوبة فى المصاحف فانها لما نسخ حكمها لم يبق وجه لبقاء تلاوتها وكتبها فى المصاحف الا ما فى مقدار مجموعها من البلاغة بحيث يلتئم منها مقدار ثلاث آيات متحدى بالاتيان بمثلها مثال ذلك آية الوصية فى سورة العقود •

خامسا : وانما وقع التحدى بسورة أى وان كانت قصـــيرة دون أن يتحداهم بعدد من الآيات لأن من أفانين البلاغة ما مرجعه الى مجموع نظم الكلام وصوغه بسبب الغرض الذى سيق فيه من فواتح الكلام وخواتمه ، وانتقال الأغراض ، والرجوع الى الغرض ، وفنون الفصـــل ، والايجاز والاطناب ، والاستطراد والاعتـــراض ، وقد جعل شرف الدين الطيبى هذا هو الوجه لايقاع التحدى بسورة دون أن يجعل بعدد من الآيات •

سادسا : واذ قد كان تفصـــيل وجوه الاعجاز لا يحصره المتأمل كان علينا أن نضـــبط معاقدها التى هى ملاكهـــا ، فنرى ملاك وجوه الاعجاز راجعا الى ثلاث جهات :

الجهةالأولى : بلوغه الغاية القصوى ممايمكن أن يبلغه الكلام العربى البليغ من حصـــول كيفيات فى نظمه مفيدة معانى دقيقة ونكتا من أغراض الخاصة من بلغاء العرب مما لا يفيده أصل وضع اللغة ، بحيث يكثر فيـــه ذلك كثرة لا يدانيها شىء من كلام البلغاء من شعرائهم وخطبائهم •

الجهة الثانية : ما أبدعه القرآن من أفانين التصرف فى نظم الكلام مما لم يكن معهودا فى أساليب العرب ، ولكنه غير خارج عما تسمح به اللغة •

الجهةالثالثة : ماأودع فيه من المعانى الحكمية والاشارات الىالحقائق العقلية والعلمية مما لم تبلغ اليـــه عقول البشر فى عصر نزول القرآن وفى عصور بعده متفاوتة ، وهذه الجهة أغفلها المتكلمون فى اعجاز القرآن من علمائنا مثل أبى بكر الباقلانى والقاضى عياض •

وقد عد كثير من العلماء من وجوه اعجاز القـرآن ما يعد جهة رابعة هي ما انطوى عليه من الأخبار عن المغيبات مما دل على أنه منزل من علام الغيوب ، وقد يدخل فى هذه الجهة ما عده عيـاض فى الشفاء وجها رابعا من وجوه اعجاز القرآن وهو ما أنبأ به من أخبار القرون السالفة مما كان لا يعلم منه القصـة الواحدة الا الفذ من أحبار أهل الكتاب ، فهذا معجز للعرب الأميين خاصة وليس معجزا لأهل الكتاب ، وخاص ثبوت اعجازه بأهل الانصـاف من الناظرين فى نشأة الرسـول صلى الله عليه وسلم وأحواله ، وليس معجزا للمكابرين فقد قالوا انما يعلمه بشر •

فاعجاز القرآن من الجهتين الأولى والثانية متوجه الى العرب ، اذ هو معجز لفصحائهم وخطبـائهم وشعرائهم مبـاشرة ، ومعجز لعامتهم بواسطة ادراكهم أن عجز مقارعيه عن معارضته مع توفر الدواعى عليه هو برهان ساطع على أنه تجاوز طاقة جميعهم • ثم هو بذلك دليل على صدق المنزل عليـه لدى بقية البشر الذين بلغ اليهم صـدى عجز العرب بلوغا لا يستـطاع انكاره لمعاصريه بتواتر الأخبار ، ولمن جاء بعدهم بشواهد التاريخ • فاعجازه للعرب الحاضرين دليـل تفصيلى ، واعجازه لغيرهم دليل اجمالى •

ثم قد يشـارك خاصة العرب فى ادراك اعجازه كل من تعلم لغتهم ومارس بليغ كلامهم وآدابهم من أئمة البلاغة العربية فى مختلف العصور ، وهذا معنى قول السكاكى فى المفتاح مخاطبـا للناظر فى كتابه متوسـلا بذلك (أى بمعرفة الخصائص البلاغية التى هو بصدد الكلام عليها الى أن تتأنق فى وجه الاعجاز فى التنزيل منتقلا مما أجمله عجز المتحدين به عندك الى التفصيل) •

والقرآن معجز من الجهة الثالثـة للبشر قاطبة اعجازا مستمرا على ممر العصـور ، وهذا من جملة ما شمله قول أئمة الدين : ان القرآن هو

المعجزة المستمرة على تعاقب السنين ، لأنه قد يدرك اعجازه العقلاء من غير الأمة العربيـــة بواسطة ، ترجمة معانيه التشريعية والحكمية والعلمية والأخلاقيـــة ، وهو دليل تفصيلى لأهل تلك المعـــانى واجمالى لمن تبلغه شهادتهم بذلك •

وهو من الجهة الرابعة — عنـــد الذين اعتبروها زائدة على الجهات الثـــلاث — معجز لأهل عصر نزوله اعجازا تفصيليا ، ومعجز لمن يجىء بعدهم ممن يبلغـــه ذلك بسبب تواتر نقل القـــرآن ، وتعين صرف الآيات المشتملة على هذا الاخبار الى ما أريد منها •

سابعا : ما سبق كان ملاك الاعجاز بحسب ما انتهى اليه استقراؤنا اجمالا ، ولنأخذ فى شىء من تفصيل ذلك وتمثيله :

يقول السكاكى فى المفتاح : (واعلم أن شأن الاعجاز عجيب يدرك ولا يمكن وصفه ، كاستقامة الوزن تدرك ولا يمكن وصفها ، أو كالملاحة •

ومدرك الاعجاز عندى هو الذوق ليس الا • وطريق اكتساب الذوق طول خدمة هذين العلمين (المعانى والبيان) نعم للبلاغة وجوه متلثمة ربما تيسرت اماطة اللثام عنها لتجلى عليك ، أما نفس وجه الاعجاز فلا) •

ويقول التفتازانى : (يعنى أن كل ما ندركه بعقولنا ففى غالب الأمر نتمكن من التعبير عنه ، والاعجاز ليس كذلك لأنا نعلم قطعا من كلام الله أنه بحيث لا تمكن للبشر معارضته والاتيان بمثله ولا يماثله شىء من كلام فصحاء العرب مع أن كلماته كلمات كلامهم ، وكذا هيئـــات تراكيبه ، كما أنا نجد كلاما نعلم قطعا أنه مســـتقيم الوزن دون آخر ، وكما أنا ندرك من أحد كون كل عضو منه كما ينبغى وآخر كذلك أو دون ذلك ، لكن فيه شىء تسميه الملاحة ولا نعرف أنه ما هو ، وليس مدرك الاعجاز عند المصنف سوى الذوق وهو قوة ادراكية لها اختصاص بادراك لطائف الكلام

ووجوه محاسنه الخفية ، فان كان حاصلا بالفطرة فذاك وان أريد اكتسابه فلا طريق اليه سوى الاعتناء بعلمى المعانى والبيان وطول ممارستها والاشتغال بهما ، وان جمع بين الذوق الفطرى وطول خدمة العلمين فلا غاية وراءه ، فوجه الاعجاز أمر من جنس البلاغة والفصاحة لا كما ذهب اليه النظام وجمع من المعتزلة أن اعجازه بالصرفة بمعنى أن الله صرف العرب عن معارضته وسلب قدرتهم عليها ، ولا كما ذهب اليه جماعة من أن اعجازه بمخالفة أسلوبه لأساليب كلامهم من الأشعار والخطب والرسائل لا سيما فى المقاطع : مثل :

يؤمنون ، وينفقون ، ويعلمون قال السيد (لا سيما فى مطالع السور ومقاطع الآى) أو بسلامته من التناقض قال السيد (مع طوله جدا) أو باشتماله على الاخبار بالمغيبات والكل فاسد • اهـ •

وقال السيد الجرجانى : فهذه أقوال خمسة فى وجه الاعجاز لا سادس لها •

قال السيد : أراد المصنف أن الاعجاز نفسه وان لم يمكن وصفه وكشفه بحيث يدرك به • لكن الأمور المؤدية الى كون الكلام معجزا أعنى وجوه البلاغة قد تحتجب ، فربما تيسر كشفها ليتقوى بذلك دون البليغ على مشاهدة الاعجاز •

يريد السيد بهذا الكلام ابطال التدافع بين قول صاحب (المفتاح) : يدرك ولا يمكن وصفه اذ نفى الامكان ، وبين قوله نعم للبلاغة وجوه ملتثمة ربما تيسرت اماطة اللثام عنها ، فأثبت تيسر وصف وجوه الاعجاز ، بأن الاعجاز نفسه لا يمكن كشف القناع عنه ، وأما وجوه البلاغة فيمكن كشف القناع عنها •

ثامنا : ويثير فينا هذا الكلام حوارا :

ان القرآن اشتمل على أنوع أساليب الكلام العربى وابتكر أساليب

لم يكونوا يعرفونها وان لذلك التنويع حكمتين داخلتين فى الاعجاز :

أولاهما : ظهور أنه من عند الله •

الثانيـــة : أن تكون فى ذلك زيادة التحـــدى للمتحدين به بحيث لا يستطيع أحد أن يقول : ان هذا الأسلوب لم تسبق لى معالجته ولو جاءنا بأسلوب آخر لعارضته •

ونرى من أعظم الأساليب التى خالف بها القرآن أساليب العرب أنه جاء فى بأســلوب جامع بين مقصديه وهما : مقصـــد الموعظة ومقصد التشريع ، فكان نظمه يمنح بظاهره السامعين ما يحتاجون أن يعلموه وهو فى هذا النــوع يشبه خطبهم ، وكان فى مطاوى معانيه ما يستخرج منه العالم الخبير أحكاما كثيرة فى التشريع والآداب وغـــيرهما ، وقد قال فى الكلام على بعضه « وما يعلم تأويله الا الله والراسخون فى العلم » هذا من حيث ما لمعانيه من العموم والايماء الى العلل والمقاصد وغيرها •

ومن أساليبـــه ما أسميه بالتفنن وهو بداعة تنقلاته من فن الى فن بطرائق الاعتراض والتنظير والتذييل والاتيـــان بالمترادفات عند التكرير تجنبا لثقل تكرير الكلم ، وكذلك الاكثار من أسلوب الالتفات المعدود من أعظم أساليب التفنن عند بلغاء العربية فهو فى القرآن كثير ، ثم الرجوع الى المقصود فيكون السامعون فى نشاط متجدد بسماعه واقبالهم عليه ، ومن أبدع أمثلة ذلك قوله « مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنــورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون صم بكم عمى فهم لا يرجعون • أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين • يكاد البرق يخطف أبصـــارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه واذا أظلم عليهم قاموا ولو شـــاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم ان الله على كل شىء قدير » • بحيث كان أكثر أساليب القرآن من الأساليب البـــديعة العزيز مثلها فى

شعر العرب وفى نثر بلغائهم من الخطباء وأصحاب بدائه الأجوبة • وفى هذا التفنن والتنقل مناسبات بين المنتقل منه والمنتقل اليــه هى فى منتهى الرقة والبداعة بحيث لا يشعر سامعه وقارئه بانتقاله الا عند حصوله • وذلك التفنن مما يعين على استماع السامعين ويدفع سآمة الاطالة عنهم ، فان من أغراض القرآن استكثار أزمان قراءته كما قال تعالى « علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرءوا ما تيسر من القرآن » فقوله ما تيسر يقتضى الاستكثار بقدر التيسير ، وفى تناسب أقواله وتفنن أغراضه مجلبة لذلك التيسير وعون على التكثير ، نقل عن أبى بكر بن العربى أنه قال فى كتابه سراج المريدين « ارتباط آى القــرآن بعضها مع بعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسعة المعانى منتظمة المبانى ، علم عظيم » •

وقال شمس الدين محمود الأصفهانى فى تفســيره نقلا عن الفخر الرازى أنه قال « ان القرآن كما أنه معجز بسبب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه هو أيضــا معجز بسبب ترتيبه ونظم آياته ، ولعل الذين قالوا انه معجز بسبب أسلوبه أرادوا ذلك » •

ان بلاغة الكلام لا تنحصر فى أحوال تراكيبه اللفظية ، بل تتجاوز الى الكيفيات التى تؤدى بها تلك التراكيب •

فان سكوت المتكلم البليغ فى جملة سكوتا خفيفا قد يفيد من التشويق الى ما يأتى بعده ما يفيــده ابهام بعض كلامه ثم تعقيبه ببيانه ، فاذا كان من مواقع البلاغة نحو الاتيان بلفظ الاستئناف البيانى ، فان السكوت عند كلمة وتعقيبها بما بعدها يجعل مابعدها بمنزلة الاستئناف البيانى ، وأن لم يكنه عينه ، مثاله قوله تعالى « هل أتاك حديث موسى اذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى » فان الوقف على قوله (موسى) يحدث فى نفس السامع ترقبــا لما يبين حديث موسى ، فاذا جاء بعده « اذ ناداه ربه » الخ حصل البيان مع ما يحصل عند الوقف على كلمة موسى من قرينة من قرائن الكلام لأنه على سجعة الالف مثل قوله طوى ، طغى ، تزكى ، الخ •

تاسعـا : وان ملامح الاعجاز الهــامة والتى هى فى انتظار بحث أكاديمى يقوم بمهمة جمع شتاتها (مبتكرات القرآن) •

وللقرآن مبتكرات تميز بها نظمه عن بقية كلام العرب •

فمنها : أنه جاء على أسلوب يخالف الشعر لا محالة وقد نبه عليــه العلماء المتقدمون ، وأنا أضم الى ذلك أن أسلوبه يخالف أسلوب الخطابة بعض المخالفة ، بل جاء بطريقة كتاب يقصــد حفظه وتلاوته ، وذلك من وجوه اعجازه اذ كان نظمه على طريقة مبتكرة ليس فيها اتباع لطرائقها القديمة فى الكلام •

وأعد من ذلك أنه جاء بالجمل الدالة على معان مفيدة محررة شأن الجمل العلمية والقواعد التشريعية ، فلم يأت بعمومات شأنها التخصيص غير مخصوصة ، ولا بمطلقات تستحق التقييد غير مقيدة ، كما كان يفعله العرب لقلة اكترائهم بالأحوال القليــلة والأفراد النادرة ، مثاله قول الله تعالى « لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون » وقوله « ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله » •

ومنها أن جاء على أسلوب التقسيم والتسوير وهى سنة جديدة فى الكلام العربى أدخل بها عليه طريقة التبويب والتصنيف وقد أومأ اليها فى « الكشاف » ايماء •

ومنها الأسلوب القصصى فى حكاية أحوال النعيم والعذاب فى الآخرة وفى تمثيل الأحوال ، وقد كان لذلك تأثير عظيــم على نفوس لعرب اذ كان فن القصص مفقودا من أدب العربية الا نادرا ، كان فى بعض الشعر كأبيات النابغة فى الحية ، التى قتلت الرجل وعاهدت آخاه ، وغدر بها ، فلما جاء القرآن بالأوصاف بهت به العرب كما فى سورة الأعراف من وصف أهل الجنة وأهل النار •

ويتبع ذلك تصرف القرآن فى حكاية أقوال المحكى عنهم فيصــوغها

على ما يقتضيه أسلوب اعجازه لا على الصيغة التى صدرت فيها ، فهو اذا حكى أقوالا غير عربيـــة صاغ مدلولها فى صيغة تبلغ حد الاعجـــاز بالعربية ، واذا حكى أقوالا عربية تصرف فيها تصرفا يناسب أســـلوب المعبـــر مثل ما يحكيه عن الغرب فانه لا يلتزم حكاية ألفاظهم بل يحكى حاصل كلامهم ، وللعرب فى حكاية الأقوال اتساع مداره على الاحاطة بالمعنى دون التزام الألفاظ ، فالاعجاز الثابت للأقوال المحكية فى القرآن هو اعجاز للقرآن لا للأقوال المحكية .

وكذلك التمثل ، فقد كان فى أدب العرب الأمثال وهى حكاية أحوال برموز لها بتلك الجمل البليغة التى قيلت فيها أو قيلت لها المسماة بالأمثال ، فكانت تلك الجمل مشيرة الى تلك الأحوال ، الا أنها لما تداولتها الألسن فى الاستعمال وطال عليها الأمد نسيت الأحوال التى وردت فيها ولم يبق للأذهان عند النطق بها الا الشعور بمغازيها التى تقال لأجلها .

أما القـــرآن فقد أفصح الأمثال وأبدع فى تركيبها .

أيضا لم يلتزم القرآن أســـلوبا واحدا بل اختلفت سوره وتفنتت ، فبعض السور بنى على تواصل وبعضها ليس كذلك .

وكذلك فواتح الســـور منها ما افتتح بالاحتفال كالحمد ، ويا أيها الذين آمنـــوا ، وآلم ذلك الكتاب ، وهى قريب مما تعبر عنه فى صناعة الانشاء بالمقدمات ، ومنها ما افتتح بالهجوم على الغرض من أول الأمر نحو « الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم » .

ومن أبدع الأســـاليب فى كلام العرب الايجاز وهو متنافسهم وغاية تتبارى اليها فصحاؤهم ، وقد جاء القرآن بأبدعه اذ كان — مع ما فيـــه من الايجاز المبين فى علم المعانى — فيـــه ايجاز عظيم آخر وهو صلوحية

معظم آياته لأن تؤخذ منها معان متعددة كلها تصلح لها العبارة باحتمالات لا ينافيها اللفظ ، فبعض تلك الاحتمالات مما يمكن اجتماعه ، وبعضها وان كان فرض واحد منــه يمنع من فرض آخر فتحريك الأذهان اليــه واخطاره بها يكفى فى حصول القصد من التذكير به للامتثال أو الانتهاء •

ولولا ايجاز القــرآن لكان أداء ما يتضمنه من المعانى فى أضعاف متدار القــرآن ، وأسرار التنزيل ورموزه فى كل باب بالغــة من اللطف والخفاء حدا يدق عن تفطن العالم ويزيد عن تبصره •

انك تجد فى كثير من تراكيب القرآن حذفا ولكنك لا تعثر على حذف يخلو الكلام من دليل عليــه من لفظ أو سياق ، زيادة على جمعه المعــانى الكثيرة فى الكلام القليــل ، قال فى الكشاف فى ســورة المدثر « الحذف والاختصار هو نهج التنزيل » •

ومن بديع الايجاز فى القرآن وأكثره ما يسمى بالتضمين ، وهو يرجع الى ايجاز الحذف ، والتضمين أن يضمن الفعل أو الوصف معنى فعل أو وصف آخر ويشار الى المعنى المضمن بذكر ما هو من متعلقاته من حرف أو معمول فيحصل فى الجملة معنيان •

ومن هذا الباب ما اشتمل عليه من الجمل الجارية مجرى الأمثال ، وهذا باب من أبواب البلاغة نادر فى كلام بلغاء العرب ، وهو الذى لأجله عدت قصيدة زهير فى المعلقات فجاء فى القرآن ما يفوق ذلك كقوله تعالى « قل كل يعمل على شاكلته » وقوله « طاعة معروفة » وقوله « ادفع بالتى هى أحسن » •

واعلم أن مما يندرج تحت جهة الأســلوب ما سماه أئمة نقد الأدب بالجزالة ، وما سموه بالرقة وبينوا لكل منهما مقاماته وهما راجعتان الى معانى الكلام ، ولا تخلو ســورة من القرآن من تكرر هذين الأسلوبين ،

وكل منهما بالغ غايته فى موقعه ، فبينما تسمعه يقول « قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا انه هو الغفور الرحيم » ويقول « يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الانسان ضعيفا » اذ تسمعه يقول « فان أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » قال عياض فى الشفا : ان عتبة بن ربيعة لما سمع هذه الآية امسك بيده على فم النبى صلى الله عليه وسلم وقال له : ناشدتك الله والرحم الا ما كففت •

فى بشرى المؤمنين وما أعد لهم من الجزاء :

قال الله تعالى :

(وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار،كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل وأتوا به متشابها ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون) •

معانى المفردات :

قوله تعالى : (وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات) •

(البشارة) : هى الخبر السار الذى ليس عند المخبر علم به واشترط بعضهم أن كون صدقا ، وقيل هو الخبر الذى يظهر أثره على البشرة حزنا كان أو سرورا ، وكثر استعماله فى الخير •

وقوله : (الذين آمنوا وعملوا الصالحات) :

تقدم الكلام على الايمان عند تفسير قوله تعالى (الذين يؤمنون بالغيب) •

و (الصالحات) : جمع صالحة ، وهى الفعلة الحسنة ، وكل ما استقام من الأعمال أى صلح لترتب الثواب عليه ، وهى فى الأصل مؤنث الصالح ، اسم فاعل من صلح صلوحا وصلاحا خلاف فسدت ، ثم

غلبت على ما سوغه الشرع وحسنه ، فهى من الصفات التى جرت مجرى الأسماء فى ايلائها العوامل ، يقولون صالحة وحسنة ولا يقدرون موصوفا محذوفا .

وأل : فى الصـــالحات : للاستغراق ، وهو استغراق عرضى ، يحدد مقداره بالتكليف والاستطاعة والأدلة الشرعية مثل كون اجتناب الكبائر يغفر الصغائر فيجعلها كالعدم .

قوله تعالى : (أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار) .

أى : بأن لهم لتعدى البشارة بالباء فحذف حرف الجر وهذه الجملة فى محل نصب بنزع الخافض ، أو الجر لأن حرف الجر بعد حــذفه قد يبقى أثره .

و (اللام) : فى قوله (لهم) للاستحقاق .

و (الجنات) : جمع جنة وهى كل بستان ذى شجر متكاثف ، ملتف الأغصان يظلل ما تحته ويستره من الجن وهو ستر الشىء عن الحاسة ، ثم صارت الجنة اسما شرعيا لدار النعيم فى الآخرة .

و (الأنهار) : جمع نهر بفتح الهاء وسكونها والفتح أفصح وهو الاخدود الذى يجرى فيــه الماء على الأرض ، وهو مشتق من مادة نهر الدالة على الانشقاق والاتساع ويكون كبيرا وصغيرا .

و (الجرى) : حقيقته سرعة شــديدة فى المشى ، ويطلق مجازا على سيل الماء سيلا متكررا متعاقبا ، وأحسن الماء ما كان جاريا غير قار لأنه يكون بذلك جديدا كلما اغترف منه شارب أو اغتسل مغتسل .

و (أل) : فى الأنهار للجنس أو للعهد الذهنى .

وقوله (من تحتها) : ان أريد بالجنــة الأشجار فجريان الأنهار من تحتها ظاهر ، وان أريد بها الأرض المشــتملة عليها ، فلابد من تقدير

مضاف أى من تحت أشجارها وان أريد بها مجموع الأرض والأشجار ، فاعتبار التحتية بالنظر الى الجزء الظاهر المصحح لاطلاق اسـم الجنة على الكل •

وقوله تعالى : (كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل) •

صفة ثانيـة لجنات ، أو خبر مبتدأ محذوف والتقدير هم ، أو أنها جملة مستأنفة استئنافا بيانيا •

و (كلما) : منصوبة على الظرفية والعامل فيها (قالوا) •

و (رزقا) : مفعول ثان لرزقوا ، كرزقه الله مالا أى أعطاه •

وتنكير الرزق للتنويع أو التعظيم •

و (من) : الأولى والثانيـة فى قوله (منها من ثمرة) للابتداء ، وصاحب الأولى (رزقا) والثانية ضمير المستكن فى الحال •

وفى قوله : (هذا الذى رزقنا من قبل) :

تشبيه من أبلغ مراتب التشبيه وهو التشبيـه بغير أداة كقولهم : أبو يوسف أبو حنيفة ، يريدون أنه لاستحكام الشبه كأن ذاته ، ذاته •

وقوله تعالى (وأتوا به متشابها) •

فيه ثلاثة أقوال :

أحـدها : أنه متشابه فى المنظر واللون ، مختلف فى الطعم ، قاله مجاهد وأبو العالية والضحاك والسدى ومقاتل •

الثانى : أنه متشابه فى جودته ، لا ردىء فيه ، قاله الحسن وابن جريج •

الثالث : أنه يشبه ثمار الدنيا فى الخلقة والاسم غير أنه أحسن فى المنظر والمطعم قاله قتادة وابن زيد •

قوله تعالى : (ولهم فيها أزواج مطهرة) •

أى : فى الخلق ، فانهن لا يحضن ولا يبلن ، ولا يأتين الخلاء • وفى الخلق فانهن لا يحسدن ولا يغرن ، ولا ينظرن الى غير أزواجهن •

قال ابن عباس : نقية عن القذى والأذى •

قال الزجاج : ومطهرة أبلغ من طاهرة لأنه للتكثير •

قوله تعالى : (وهم فيها خالدون) •

الخلود فى اللغـــة : طول المكث ، وفى الشرع : الدوام الأبدى وهو المراد هنا[1] •

التفسير التحليـــلى

مناسبة الآيات لما قبلها :

فى الكشـــاف : من عادته عز وجل فى كتابه أن يذكر التـــرغيب مع الترهيب ويشفع البشـــارة بالانذار ارادة التنشيط لاكتساب ما يزلف والتثبيط عن اقتراف ما يتلف فلما ذكر الكفار وأعمالهم وأوعدهم بالعقاب قفاه ببشارة عباده الذين جمعوا بين التصديق والأعمال الصالحة • اه •

وجعل جملة (وبشر) معطوف على مجموع الجمل المســـوقة لبيان وصف عقاب الكافرين يعنى جميع الذى فصل فى قوله تعالى (وان كنتم فى ريب ـــ الى قوله ـــ أعدت للكافرين) فعطف مجموع أخبار عن ثواب المؤمنين على مجموع أخبار عن عقاب الكافرين والمناسبة واضحة مسوغة لعطف المجموع على المجموع ، وليس هو عطفا لجملة معينـــة على جملة معينة الذى يطلب معه التناسب بين الجملتين فى الخبرية والانشائية •

---

(1) راجع تفســـير الألوسى وتفسير التحرير والتنوير والتســـهيل لعلوم التنزيل فى تفسير الآية •

ونظره بقولك : زيد يعاقب بالقيـــد والارهاق وبشر عمرا بالعفو والاطلاق •

وجعل السيد الجرجاني لهذا النوع من العطف لقب عطف القصة على القصة لأن المعطوف ليس جملة على جملة بل طائفة من الجمل على طائفة أخرى •

ونظيره في المفردات ما قيل ان الواو الأولى والواو الثالثة في قوله تعالى (هو الأول والآخر والظاهر والباطن) ليستا مثل الواو الثانية لأن كل واحدة منهما لافادة الجمع بين الصفتين المتقابلتين أما الثانية فلعطف مجموع الصفتين المتقابلتين اللتين بعدها على مجموع الصفتين المتقابلتين اللتين قبلها ولو اعتبـــر عطف الظاهر وحده على احدى السابقتين لم يكن هناك تناسب •

هذا حاصـــله وهو يريد أن الواو عاطفة جملة ذات مبتدأ محذوف وخبرين على جملة ذات مبتدأ ملفوظ به وخبرين ، فالتقدير وهو الظاهر والباطن وليس المراد أن المبتدأ فيها مقدر لاغناء حرف العطف عنه بل هو محذوف للقرينة أو المناســـبة في عطف جملة الظاهر والباطن على جملة الأول والآخر • انهما صفتان متقابلتان ثبتتا لموصوف واحد هو الذي ثبتت له صفتان متقابلتان أخريان •

قال السيد : ولم يذكر صاحب المفتاح عطف القصة على القصة فتحير الجامدون على كلامه في هذا المقام وتوهموا أن مراد صاحب الكشاف هنا عطف الجملة على الجملة وأن الخبر المتقدم مضمن معنى الطلب أو بالعكس لتتناسب الجملتان مع أن عبارة الكشاف صريحة في غير ذلك وقصد السيد من ذلك ابطال فهم فهمه سعد الدين من كلام الكشاف وأودعه في شرحه المطول على التلخيص •

وجوز صاحب الكشاف أن يكون قوله (وبشر) معطوفا على قولـــه

(فاتقوا) الذى هو جواب الشرط فيكون له حكم الجواب أيضا وذلك لأن الشرط وهو فان لم تفعلوا سبب لهما لأنهم اذا عجزوا عن المعارضة فقد ظهر صـــدق النبى فحق اتقاء النار وهو الانذار لمن دام على كفره وحقت البشارة الذين آمنوا ٠

وانما كان المعطوف على الجواب مخالفا له لأن الآية سيقت مساق خطاب للكافرين على لسان النبى فلما أريد ترتب الانذار لهم والبشـــارة للمؤمنين جعل الجواب خطابا لهم مباشرة لأنهم المبتدأ بخطابهم وخطابا للنبى ليخاطب المؤمنين اذ ليس للمؤمنين ذكر فى هذا الخطاب فلم يـــكن طريق لخطابهم الا الارسال اليهم ٠

وقد استضعف هذا الوجه بأن علماء النحو قرروا امتناع عطف أمر مخاطب على أمر مخاطب الا اذا اقترن بالنـــداء نحو قم يا زيد واكتب يا عمرو ، وهذا لا نداء فيه ٠

وجوز صاحب المفتاح أن بشر معطوف على قل مقدرا قبل (يا أيها الناس اعبدوا) ٠

وقال القزوينى فى الايضاح انه معطوف على مقدر بعد قوله (أعدت للـــكافرين) أى : فأنذر الذين كفروا وكل ذلك تكلف لا داعى اليـــه الا الوقوف عند ظاهر كلام النحاة مع أن صاحب الكشاف لم يعبأ به ٠

قال عبد الحكيم : لأن منع النحاة اذا انتفت قرينة تدل على تغاير المخاطبين ، والنـــداء ضرب من القرينة نحو (يوسف أعرض عن هـــذا واستغفرى لذنبك) اه ٠

يريد أن كل ما يدل على المراد بالخطاب فهو كاف وانما خص النحاة النداء لأنه أظهر قرينة واختلاف الأمرين هنا بعلامة الجمع والافراد دال على المراد ، وأياما كان فقد روعى فى الجمل المعطوفة ما يقابل ما فى الجمل

المعطوف عليها فقوبل الانذار الذى فى قوله (فاتقوا النار) بالتبشير وقوبل الناس المراد به المشركون بالذين آمنوا وقوبل النار بالجنة فحصل ثلاثة طباقات •

والتبشير الاخبار بالأمر المحبوب فهو أخص من الخبر وقيد بعض العلماء معنى التبشير بأن يكون المخبر (بالفتح) غير عالم بذلك الخبر والحق أنه يكفى عدم تحقق المخبر (بالكسر) علم المخبر (بالفتح) فان المخبر (بالكسر) لا يلزمه البحث عن علم المخاطب ، فاذا تحقق المخبر علم المخاطب لم يصح الاخبار الا اذا استعمل الخبر فى لازم الفائدة أو فى توبيخ ونحوه[1] •

والمبشر : هو البشير الأعظم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم •

وفى اسناد البشارة اليه انباء عن عظيم شأنه عند ربه لأن الله سبحانه وتعالى جعله السبيل الى رحمته فى الدنيا والآخرة فلا تكون الا بسببه صلى الله عليه وسلم •

وأتى بمفعول بشر اسم موصول معللا البشارة بصلته ، وهو الايمان والعمل الصالح لبيان أنهما سبب البشارة •

وجعل صلة الذين فعلين ماضيين لبيان ثبات المؤمنين على الايمان والعمل الصالح واستمرارهم عليهما • وفيه تنديد بالكافرين واستمرارهم على كفرهم •

وفى عطف العمل الصالح على الايمان دليل على أهمية العمل وأن له المدخل الأكبر فى الاستحواذ على أعلى درجات الجنة فان دخول الجنة فى نفسه لا ينال الا بفضل الله تعالى ، وهذا هو معنى الحديث الصحيح :

---

(١) راجع تفسير التحرير والتنوير للشيخ محمد الطاهر بن عاشور جـ ١ ص ٣٥٢ .

(لن يدخل أحد عمله الجنة) •

فأما التبوأ فى أماكنها والتقلب فى فنون نعيمها فبالعمل ، قال تعالى :

(وتلك الجنـــة أورثتموها بما كنتم تعملون • لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون) •

وعطف قوله تعالى (وعملوا الصالحات) على (آمنوا) أقوى دليل على مغايرة العمل للايمان •

وعلى أن انتفاء العمل لا يســتلزم انتفاء الايمان ، وعلى أن دخول الجنة بمجرد الايمان وتوقف الأنفس عليه خلافا لما يقوله المعتزلة من جعل العمل ركنا فى الايمان وتوقف حصول الايمان عليه •

و (الصالحات) : جمع صالحة مؤنث صالح أو صفة •

وفى اللغة : كل نافع مفيد من صلح وضده فسد وأطلقه الشرع على ما أمر الله تعالى به ورسوله ايجابا أو ندبا وهو المراد هنا •

و (أل) فى (الصالحات) للجنس وليس المراد به أن المؤمن العامل لا يبشر الا اذا عمل كل الأعمال الصالحة •

بل المراد اتصاف المؤمنين بكل الصالحات كل حسب طاقته بعد أداء المفروضات التى لابد من أن يتصف بأدائها كل مؤمن •

وقوله تعالى : (أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار) •

فى محل نصب بنزع الخافض لأن التقدير بأن لهم جنات •

واللام فى قولــه (لهم) تفيد الاستحقــاق والاختصاص وانمــا استحقوها بفضل الله ووعده الذى لايتخلف لا لايجاب عليــه بشرط أن يموت المؤمن على الايمان •

و (الجنات): جمع جنة والجنة مأخوذة من الجن بمعنى الستر ، قال تعالى :

(فلما جن عليه الليل رأى كوكبا) •

ومنه الجنين لاستتاره فى بطن أمه والمجنون لاستتار عقله ، وتطلق على البستان الذى سترت أشجاره أرضه ، وعلى الأرض التى بها شجر ونخل قال تعالى :

(واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من نخيل وأعناب) •

وقال تعالى : (كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئا) • الى غير ذلك من الآيات •

ثم صارت علما على دار الثواب التى أعدها الله لعباده المؤمنين ، والتى فيها من أنواع النعيم مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين •

وتنوينها للتنويع فهى جنات متنوعة وفى كل جنة منها جنان ودرجات لا يحصيها الا من خلقها ، وكذلك هو للتعظيم على معنى أنها جنات عظيمة لا يحاط بكنهها •

وتقدم خبر ان لبيان مزيد اختصاصهم بالجنات وتعجيل المسرة للسامع ولبيان حرمان الكافرين منها وتكذيب من قال منهم : (ولئن رجعت الى ربى أن لى عنده للحسنى) •

وتحت ظرف مكان والضمير فى قوله (من تحتها) للجنات بمعنى الأشجار فان كانت الجنة بمعنى الأرض كان التقدير : تجرى من تحت أشجارها •

ومعنى (تجرى) : تنتشر وتنساب وهو كناية عن انبساط أرض الجنة وأنه لا حزن ولا وعورة •

و (الأنهار) : جمع نهر وأصله الشق والسعة ويطلق ويراد به ما دون البحر ، وفوقه الجدول ، ولا يقال الا لما يجرى فيه عذب الماء ومعنى جريان الأنهار من تحتها ، سريان الماء فوق حصبائها وفى أصول أشجارها بغير شق ولا أخدود خلافا للمعهود فى جنات الدنيا •

وأن فى الأنهار اما للعهد الذكرى بناءا على ما نزل بمكة قبل ذلك من آيات فيها ذكر أنهار الجنة أو هى للعهد الذهنى •

وقوله تعالى : (كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا) •

صفة ثانية لجنات سيقت لبيان أحوال سكانها بعد أن وصفها الله تعالى بجريان الأنهار من تحتها •

أو هى خبر مبتدأ محذوف تقديره هم كلما رزقوا منها •

والجملة حينئذ جواب سؤال مقدر فى النفس كأنه قيل ما حال المؤمنين حيال ما رزقوه فى الجنة فكان الجواب كلما رزقوا منها الخ ، أو هى جملة مستأنفة لبيان أن ثمار الجنة وطرائق الرزق فيها غير ما هو مألوف فى الدنيا •

وكلما ظرف زمان والعامل فيه قالوا •

والضمير فى قوله تعالى منها راجع الى الجنات •

ومن فى قوله (منها) وفى قوله (من ثمرة) للابتداء •

ورزقا بمعنى المفعول أى مرزوق وهو مفعول ثان لرزقوا •

والمعنى : كل حين رزقهم الله تعالى مرزوقا مبتدأ من الجنات مبتدأ من ثمارها قالوا هذا الذى رزقنا من قبل أى أنهم لا يقولون ذلك الا فى الجنة حين يأتيهم رزقها •

وقال سبحانه (منها من ثمرة) ولم يقل من ثمرها لينص على أن سكانها لا تحتاج الى غيرها والذى أفاد هذا المعنى قوله (منها) •

وقوله (من ثمرة) يفيد أن المراد بيان المأكول على وجه يشمل جميع الثمرات دون بقية اللذات المعلومة من السابق واللاحق ، ولبيان أنهم لم يقولوا هذا الذى رزقنا من قبل الا مع الرزق من الثمرات •

وقوله تعالى : (هذا الذى رزقنا من قبل) • جملة مقول قال وهذا اشارة الى نوع ما رزقوا أو الى شخصه •

وقوله : (رزقنا من قبـــل) صلة الموصول والعائد محذوف أى : رزقناه •

و (من) فيه للبيان •

و (قبل) ظرف زمان بنى على الضم فى محل جر •

والمراد : هذا الذى رزقنـــاه من قبل أى فى الدنيا وجعل الله ثمار الجنة على هذا التقدير على هيئة ما ألفوه فى الدنيا زيادة سرور لهم لأن النفس أنعم بما ألفت وأكثر اطمئنانا اليه •

ولأنهم لما حرموها بالموت أصبحوا وكأن لهم عليها حسرة بفواتها ففى مجىء ثمار على صـــورة ثمار الدنيا ازالة لما علق بنفوسهم من حرمان بالموت وأقول كأن لأن المؤمن لا يخرج من الدنيا وهو آسف عليها لأنه انتقل الى ما هو أفضل منها •

وقد بين الله تعالى مغايرة ثمار الجنة لثمار الدنيا اذ ليس منها من ثمار الدنيا سوى الأسماء ، فقال تعالى : (وأتوا به) أى بالرزق (متشابها) أى يشبه بعضه بعضـــا مع الفرق الهائل بين الرزقين لمزيد المسرة وليظهر فرحهم بما كانوا قد ألفوه •

أو يراد بقوله تعالى (من قبـــل) ما رزقوه من النعم السابقة فى الجنة •

والتشابه فى الصورة مع الاختلاف فى الطعم كما روى عن الحسن أن أحدهم يؤتى بالصحفة فيأكل منها ثم يؤتى بأخرى فيراها مثـــل الأولى فيقول الملك : (كل فاللون واحد والطعم مختلف) •

وجملة (وأتوا به) حاليـــة وسر بنائها للمفعول تعدد الاتين لهم بالرزق •

قوله تعالى : (ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون) •

صفة ثالثـــة ورابعة لجنات ، وأوردت الأوليتان بالجملة الفعليـــة لافادة التجدد ، وهاتان بالاسمية لافادة الدوام ، وترك العاطف فى البعض مع ايراده فى البعض للتنبيه على جواز الأمرين فى الصفات أى جوازها مسرودة لموصوفها بالعطف تارة وبدونه أخرى •

وأزواج : جمع زوج أو زوجة •

والمراد هنا بالأزواج النســـاء اللاتى تختص بالرجـــل لا يشركه فيها غيره •

وقوله تعالى : (ولهم فيها) بتقديمهما على الأزواج على اختصاص كل رجل من أهل الجنة بأنواع من الأزواج تبعا لقوة ايمانه وشدة عفته فى الدنيا •

كما أفاد قوله تعالى (فيها) اختصـــاص الأزواج فى الجنة بأوصاف ليست فى أزواج الدنيا وقد صرح الله به تأكيدا لذلك فى قوله (مطهرة) •

ومعناه أن الله سبحانه نزههن عن كل ما يشينهن والمراد بهن الحور العين ، فقد خلقهن الله على الطهارة لم يعلق بهن دنس ذاتى ولا خارجى وهن مع ذلك كلما وقعت عليهن أبصار أزواجهن كساهن الله حسنا جديدا وبهاءا لم يعهد من قبل وقد استفيد ذلك من التضعيف فى قوله (مطهرة) •

ويجوز أن يراد بهن أزواجهن فى الدنيـــا كما روى عن الحسن : من عجائزكم الرمص الغمص يصرن شواب ، والمراد : بالرمص الغمص ضعف البدن وارتخاء العينين وتشابك أهدابهما فالمراد اذهاب كل شىء عنهن من العيوب الذاتية وغيرها •

والتطهر : كما قال الراغب يقال فى الأجســـام والأخلاق والأفعال جميعا وهو المراد هنا بقرينة المدح •

وقوله (مطهرة) بفتح الهاء المشـــددة أفاد أن لهن مطهرا وهو الله تعالى وناهيك بمن طهره الله كم يكون فيه من سمو ومن فضل ومن كرم ومن كرامة •

ولما ذكر ســـبحانه مسكن المؤمنين ومطعمهم ومنكحهم وكانت هـــذه الملاذ لا تبلغ درجة الكمال مع خوف الزوال أعقب ذلك بما يزيل ما ينغص انعامه من ذكر الخلود فى دار الكرم •

فقال : (وهم فيها خالدون) •

والخلود : هو المكث الدائم بغير انقطاع والخالد هو الذى لا ينقضى أجله بالموت وأهل الجنة فيها خالدون لا يموتون •

وانما قال : وهم فيها لبيان أن الخلود مرتبط بها لا يتحقق الا فيها لأن استمرار أهلها فيها يكسبهم نضـرة وقوة على عكس ما فى الدنيـــا ، اذ لو كان الخلود شأنا من شئونها لبغضه أهلها لما يطرأ عليهم من هرم وضعف •

ولا تنافى بين قوله تعالى (وهم فيها خالدون) مع قوله تعالى (هو الأول والآخر) ، لأن بقاء البارى بذاته وأما بقاء أهل الجنة فبفضله ومنته وفرق بين البقاء الذاتى وبين الابقاء الذى هو منة البـــاقى فان بقاءنا فى الجنة لو شاء الله لقطعه لكنه لم يقطعه بفضله ورحمته •

ولا يقال : ان تركيب الأبدان يقتضى مع طول المكث فساد الأعضاء فكيف نخلد فى الجنة ؟ •

لا يقال ذلك لأنه قياس الشاهد على الغائب وما دام الخلق فى الآخرة

والأولى لله فما المانع من نفى التحلل عن الأبدان المركبة فى الجنة وهو الذى قد حكم لأهلها بالخلود فيها أبدا فسبحان الخالق الحكيم[1] .

وهل فى الجنة من توالد ؟ .

وليس فى المفهوم اعتبار التوالد الذى هو مدار بقاء النوع حتى لا يصح اطلاقه على أزواج الجنة لخلودهم فيها واستغنائهم عن الأولاد[2] .

(١) راجع باستفاضة المنتخب فى التفسير ص ١٠٨ — ١١٠ .
(٢) تفسير الالوسى ج ١ ص ١٨٨،١٨٩ .

فقــه الآيات

فى البعث :

الله سـبحانه وتعالى خالق ، وهو واحد ، مريد ، عالم ، قادر .. الخ ، وهو أيضا باعث ، ومسألة البعث ، مسألة أنكرها قوم يطلق عليهم الامام الغزالى (الطبيعيــون) وهم قوم أنكروا البعث مع اعتــرافهم بالصانع .

لقد اعترفوا بالصانع لما رأوه من عجائب من تناسق محكم لا يمكن أن يكون وليد المصادفة ، ولكنهم رأوا أن النفس تابعة للبدن ، ولذلك تفنى بفنائه ، وكانت نتيجة ذلك أن جحدوا الآخرة ، وأنكروا الجنة والنار والحساب .

على هؤلاء وأضرابهم ، على اختلاف بيئاتهم وأساليبهم يرد القرآن فى غير ما موضع .

وطبيعيو العرب لم يكن عندهم فى هذه المسألة منطق جدلى فلسفى وليس لهم من دليل سوى الانكار والاستبعاد :

(وقالوا ، أأذا كنا عظاما ورفاتا أانا لمبعوثون خلقا جديدا)[1] .

(قال من يحى العظام وهى رميم)[2] .

والقرآن يرد عليهم بتذكيرهم بمظاهر قدرة الله السائدة فى الكون ، وبأنه ليس من العدالة الالاهية أن يترك الانسان سدى فلا يجازى على ما قدم :

(أيحسب الانسان أن يترك سـدى ؟ ألم يك نطفة من منى يمنى ؟

---

(١) سورة الاسراء آية : ٤٩ .

(٢) سورة يس آية : ٧٩ .

ثم كان علقة فخلق فسوى • فجعل الزوجين الذكر والأنثى ، أليس ذلك بقادر على أن يحى الموتى ؟) •

وفى القرآن كثير من الآيات ترد عليهم مستندة الى مظاهرة قدرة الله وعدالته •

وفيه آيات متتالية فى آخر سورة يس تحدثت عن رأى منكرى البعث •

ثم ردت عليهم ردودا متنوعة مختلفة واضحة قوية • ونحن نذكر هذه الآيات ، ونذكر تفسير الكندى لها نقلا عن كتاب الكندى للاستاذ أبى ريدة :

(قال من يحى العظام وهى رميم ؟

قل : يحيها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم •

الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فاذا أنتم منه توقدون •

أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ؟ •

بلى ، وهو الخلاق العليم •

انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له : كن فيكون •

فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء واليه ترجعون)(١) •

ويقول الأستاذ أبو ريدة ، عن تفسير الكندى لهذه الآيات :

ان فيه يبرز فيلسوفنا الأصول النظرية التى تتضمنها هذه الآيات من جهة ، ويستخرج النتائج التى تلزم عنها من جهة أخرى ، وهى :

١ — وجود الشىء من جديد ، بعد كونه وتحلله السابقين : ممكن بدليل مشاهدة وجوده بالفعل مرة ، لاسيما أن جمع المتفرق أسهل من

---

(١) سورة يس آية : ٧٨ — ٨٣ •

ايجاده وابداعه عن عدم ، وان كان لا يوجد بالنسبة لله شيء هو أسهل وشيء هو أصعب ، هذا الدليل موجود فى الآيات فى كلمات قليلة :

(قل يحييها الذى أنشأها أول مرة ، وهو بكل خلق عليم) •

٢ — ظهور الشيء من نقيضه كظهور النار من الشجر الأخضر ، ممكن وواقع تحت الحس •

واذن يمكن أن تدب الحياة فى الجسد المتحلل الهامد مرة أخرى •

وذلك أيضا على أساس المبدأ الأكبر ، وهو :

أن الشيء يمكن أن يوجد من العدم المطلق بفعل المبدع الحق — هذا الدليل موجود فى آية :

(الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا ، فاذا أنتم منه توقدون) وقد انتفع به الأشعرى فى اثبات امكان البعث •

٣ — خلق الانسان أو احياؤه بعد الموت ، أيسر من خلق العالم الأكبر بعد أن لم يكن ، وهذا هو مضمون آية :

(أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم) •

٤ — الخلق ، والفعل مطلقا مهما عظم المخلوق ، لا يحتاج من جانب الله المبدع لا الى مادة ولا الى زمان — خلافا لفعل البشر الذى لا يتم الا فى زمان ، ويحتاج الى مادة تكون موضوع الفعل ، وهذا هو معنى آية :

(انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن ! فيكون) •

وهذه الآية فى رأى الكندى ، اجابة عما فى قلوب الكفار من النكير بسبب ظنهم أن الفعل الالهى المتجلى فى خلق العالم الكبير يحتاج الى زمان يناسب عظمته ، قياسا منهم لفعل الله على فعل البشر •

لأن فعل البشر لما هو أعظم يحتاج الى مدة زمانية أطول ، فجاءت الآية حاســمة فى بيان نوع الفعل الالهى ، وأنه ابداع بالارادة الخالقة والقدرة المطلقة لا يحتاج الى مادة ولا الى امتداد زمانى •

فأى بشر — كما يقول الكندى — يقدر بفلسفة البشر أن يجمع فى قول ، بقدر حروف هذه الآيات ، ما جمع الله ، جل وتعالى ، الى رسوله صلى الله عليه وسلم فيها من ايضاح •

أن العظام تحيى بعد أن تصير رميما ؟ •

وأن قدرته تخلق مثل السموات والأرض ؟ •

وأن الشىء يكون من نقيضه ؟ •

كلت الألسن المنطقيــة المتحايلة وقصرت عن مثـله نهايات البشر ، وحجبت عنه العقول الجزئية[1] •

على أننا لا نترك موضوع البعث دون أن نوجه ذهن القارىء الى هذا التنظير البديع الذى ذكره القــرآن الكريم بين الأرض الموات التى يحييها الله فتنبت من كل زوج بهيج ، والعظام والرفات التى يحييها الله ويصورها فيحسن تصويرها[2] :

(يا أيها الناس ان كنتم فى ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ، ونقر فى الأرحام ما نشاء الى أجل مسمى ، ثم نخرجكم طفلا ، ثم لتبلغوا أشــدكم ، ومنكم من يتوفى ، ومنكم من يرد الى أرذل العمر : لكيلا يعلم من بعد علم شيئا ، وترى الأرض هامدة ، فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ، وأنبتت من كل زوج بهيج •

---

(١) رسائل الكندى ص ٥٧،٥٨ •

(٢) التفكير الفلسفى فى الاسلام ص ٧٥ •

ذلك بأن الله هو الحق ، وأنه يحي الموتى ، وأنه على كل شيء قدير ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من فى القبور)[1] •

مشـــاهد القيامة :

ويســـبق البعث ويعقبه أمور تحدث عنها القرآن فى كثير من الآيات ووصفها فى روعة أخاذة :

انها تصف يوم القيامة ، وتتحدث عن الحساب والميزان ، وتصف حالة المؤمنـــين والكافرين ، وتصـــور النار فى صورتها البشعة الكريهة ، والجنة فى روحها وريحانها وصورها ورياضها الفيحاء ، وسنكتفى من كل ذلك بآيات من آخر سورة الزمر :

يقول الله تعالى :

(وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضـــته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه ، سبحانه وتعالى عما يشركون •

ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض الا من شاء الله ، ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون •

وأشرقت الأرض بنـــور ربها ، ووضع الكتاب ، وجيء بالنبيـــين والشهداء ، وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون •

ووفيت كل نفس ما عملت ، وهو أعلم بما يفعلون •

وسيق الذين كفروا الى جهنم زمرا ، حتى اذا جاؤها فتحت أبوابها ، وقال لهم خزنتهـــا : ألم يأتكم رسل منكم يتـــلون عليكم آيات ربكم ، وينذرونكم لقاء يومكم هـــذا ؟ قالوا : بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين •

قيل : ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها ، فبئس مثوى المتكبرين •

---

(١) سورة الحج آية : ٥ — ٧ .

وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زمرا ، حتى اذا جاءوها وفتحت أبوابها ، وقال لهم خزنتها : سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين •

وقالوا : الحمد لله الذى صدقنا وعده ، وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشـــاء ، فنعم أجر العاملين ، وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم ، وقضى بينهم بالحق ، وقيل : الحمد لله رب العالمين) •

فى الايمان بجزاء الله فى الآخرة :

والله سبحانه وتعالى جعل الدار الآخرة دار كرامة لمن آمنوا بها ودار عذاب لمن كذبوا بها ، والايمان بيوم الحساب أكبر مهذب للنفوس ومطهر لها ولو أن الناس صدقوا بيوم الحساب تصديقا حقيقيا لعاشوا فى الدار الدنيا فى سعادة حتى ينتقلوا الى السعادة الأبدية فى ملكوت الله تعالى ومنازل رضوانه الأكبر • فانظر الى الجنة ونعيمها وما أعده الله عز وجل لعباده الصالحين •

عن أبى هريرة رضى الله عنها ، أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

(قال الله عز وجل : أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ذخرا بله ما أطلعكم الله عليه • ثم قرأ : فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين)[1] •

فالايمان باليوم الآخر يبعث على التقوى ، وفى التقوى صلاح الدنيا وقوامها وسلطان الخلق الكريم • تصدر عنـــه الأقوال فتصدق والأعمال فتصلح ، وبه تسود الفضـــائل وتعم وتتخاذل الرذائل وتقل ، ولعل هذا

---

(١) صحيح مسـلم بشرح النووى جـ ٨ ص ٢٢٦ / الآية ١٧ سـورة السجدة .

كله هو الحكم فى أن جعلت الآية الحكيمة آية البر المحيطة بالايمان باليوم الآخر مرادفا للايمان بالله[١] •

ان قضية الآخرة ويوم الدين •• هى قضية الايمان •• والايمان انك ستلاقى الله •• وسيحاسبك والمؤمن اذا جاء أجله كانت نفســه مطمئنة لماذا ؟ لأنه يعلم أنه سيلاقى ربه وسيوفيه حسابه وغير المؤمن اذا سمع حديث الموت انزعجت نفسه وملأ قلبه الخوف والرعب لماذا ؟ لأنه يعلم داخل نفســه أنه سيلقى الله •• ولكنه يحاول ســتر هذه الحقيقة التى سيكشفها الموت •

والله عنده علم الســاعة •• وما دام قد تقرر فليست هناك قوة فى الأرض تستطيع أن تمنع حدوثه انه لا محالة • لأن المؤمن الحقيقى اذا كان يخشى شيئا فانه يخشى يوم الساعة ويوم الحساب واذا كان يخشى شيئا يخشى عدل الله سبحانه وتعالى الذى لايترك صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا • والانسان المؤمن يخاف يوم الحساب ويخشاه مهما كان ايمانه[٢] •

الآثار الأخروية للعفو الالهى :

ما الذى ينتظره العبد بعد عفو الله تعالى عنه وغفران ذنوبه وبعد أن متعه العفو الغفور متاعا حســنا ومده بما يمكنه من الفــوز بكل مرغوب وينجيه من كل مرهوب فانه عز وجل قد وعده فى الآخرة بالجنة التى أعد الله فيها لعباده ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر •

كما ينطق بذلك القرآن والسنة :

---

(١) آية البر / عباس الحمل / ص ٥٦ •

(٢) الصــدق وأثره والكذب وعاقبته فى بيان القرآن الكريم ص ١٦٠ رسالة دكتوراه غير مطبوعة للدكتورة زينب عبد الله درويش •

١ — أما القرآن : فقال تعالى :

(وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا ، قالوا هذا الذى رزقنا من قبل ، وأتوا به متشابها ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون) •

وقال تعالى : (قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله ، والله بصير بالعباد • الذين يقولون ربنا اننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار • الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار)[١] •

وقال سبحانه : (ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار ، ربنا انك من تدخل النار فقد أخزيته ، وما للظالمين من أنصار •

ربنا اننا سمعنا مناديا ينادى للايمان أن آمنوا بربكم فآمنا • ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار • ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة انك لا تخلف الميعاد ، فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض ، فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا فى سبيلى ، وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها

---

(١) سورة آل عمران آية : ١٥ — ١٧ •

الأنهار ثوابا من عند الله ، والله عنده حسن الثواب)[1] .

وقال عز وجل : (ان الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار ان الله يفعل ما يريد)[2] .

وقال سبحانه : (أن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار ، يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير وهدوا الى الطيب من القول وهدوا الى صراط الحميد)[3] .

وقال تعالى : (ولمن خاف مقام ربه جنتان .. الى قوله .. تبارك اسم ربك ذى الجلال والاكرام)[4] .

وقال سبحانه : (والسابقون السابقون أولئك المقربون ، فى جنات النعيم .. الى ثلة من الأولين وثلة من الآخرين)[5] .

وقال سبحانه : (يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم)[6] .

وقال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا توبوا الى الله توبة نصوحا عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار يوم لا يخزى الله النبى والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم

---

(١) سورة آل عمران الآيات : ١٩٠ — ١٩٥ .
(٢) سورة الحج آية : ١٤ .
(٣) سورة الحج الآيتان : ٣١،٣٠ .
(٤) سورة الرحمن الآيات ٤٦ الى آخر السورة .
(٥) سورة الواقعة الآيات : ١٠-٤٠ .
(٦) سورة الحديد آية : ١٥ .

وبأيمانهـــم يقولون ربنا أتمم لنـــا نورنا واغفر لنا ، انك على كل شيء قدير)[١] .

وقال ســـبحانه : (ان للمتقين مفازا ، حدائق وأعنـــابا ، وكواعب أترابا وكأسا دهاقا ، لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا ، جزاء من ربك عطاء حسابا)[٢] .

وقال : (وجوه يومئذ ناعمة لسعيها راضية ، فى جنة عالية لا تسمع فيها لاغيـــة ، فيها عين جارية ، فيها سرر مرفوعة ، وأكواب موضوعة ، ونمارق مصفوفة ، وزرابى مبثوثة)[٣] .

عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ان فى الجنة لشجرة يسير الراكب فى ظلها مائة سنة »[٤] .

وعن أبى سعيد الخدرى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ان الله يقول لأهل الجنة يا أهل الجنة فيقولون لبيك ربنا وسعديك . والخير فى يديك ، فيقول هل رضيتم ، فيقولون وما لنا لا نرضى يا رب ، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك . فيقول ألا أعطيكم أفضـــل من ذلك ، فيقولون يا رب وأى شيء أفضل من ذلك ، فيقول أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبدا »[٥] .

وعن سهل بن سعد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ان أهل الجنة ليتراءون الغرفة فى الجنة كما تراءون الكوكب فى السماء »[٦] .

---

(١) سورة التحريم الآية : ٨ .
(٢) سورة النبأ الآيات : ٣١ — ٣٦ .
(٣) سورة الغاشية الآيات : ٨ — ١٦ .
(٤) مسلم كتاب الجنة ونعيمها وصفة أهلها ، جـ ٢ ص ٥٣٠ .
(٥) مسلم ، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب احلال الرضوان على أهل الجنة فلا يسخط عليهم ابدا جـ ٢ ص ٥٣١ .
(٦) مسلم ، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها باب ترائى أهل الجنة أهل الغرف كما يرى الكوكب فى السماء جـ ٢ ص ٥٣١ .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من أشـــد أمتى لى حبا ناس يكونون بعدى يود أحدهم لو رآنى بأهله وماله »(١) .

وعن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ان فى الجنة لسـوقا يأتونها كل جمعة فتهب ريح الشـمال فتحثو فى وجوههم وثيابهم ، فيزدادون حسـنا وجمالا ، فيرجعون الى أهليهم وقد ازدادوا حسـنا وجمالا ، فيقول لهم أهلوهم ، والله لقد ازددتم بعدنا حسـنا وجمالا ، فيقول : وأنتم والله لقد ازددتم بعدنا حسنا وجمالا »(٢) .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، والذين يلونهم على أشـد كوكب درى فى السماء اضاءة ، لا يبولون ولا يتغوطون ولا يتمخطون ولا يتفلون ، أمشاطهم الذهب ورشحهم المسك ، ومجامرهم الألوة ، وأزواجهم الحور العين ، أخلاقهم على خلق رجـل واحد على صورة أبيهم آدم ستون ذراعا فى السماء »(٣) .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من يدخل الجنة ينعم ولاييأس لاتبلى ثيابه ولايفنى شبابه »(٤) .

وعنه أن النبى صلى الله عليـه وسلم قال « ينادى مناد ان لكم أن

---

(١) مسلم ، كتاب الجنة وصفة نعيمها واهلها باب فيمن يود رؤية النبى صلى الله عليه وسلم بأهله وما له جـ ٢ ص ٥٣٢ .

(٢) مسلم ، كتاب الجنة وصفة نعيمها واهلها — باب فى سوق الجنة وما ينالون فيها من النعيم والجمال جـ ٢ ص ٥٣٢ .

(٣) مسلم — كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب اول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر وصفاتهم وازواجهم جـ ٣ ص ٥٣٢ .

(٤) مسلم — كتاب الجنة وصفها ونعيمها وأهلها ، باب فى دوام نعيم اهل الجنة وقوله تعالى « ونودوا ان تلكم الجنة » الآية جـ ٢ ص ٥٣٤ .

تصحوا فلا تسقموا أبدا • وأن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدا • وان لكم أن تشبوا فلا تهرموا ، وان لكم أن تنعموا فلا تبتئسوا أبدا • فذلك قوله عز وجل ، ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون »[١] •

وعنه رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير »[٢] •

وعن أبى بكر بن عبد الله بن قيس عن أبيه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « جنتان من فضة ، آنيتهما وما فيهما ، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا الى ربهم عز وجل الا رداء الكبرياء على وجه فى جنة عدن »[٣] •

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « للرجل من أهل الجنة زوجتان من الحور العين على كل واحدة سبعون حلة يرى مخ ساقها من وراء الثياب »[٤] •

وعن أنس رضى الله عنه أن رســول الله صلى الله عليه وسلم قال « لغدوة فى سـبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها ، ولقاب قوس أحدكم — أو موضــع قيده — يعنى سوطه — من الجنة خير من الدنيا وما فيها ، ولو اطلعت امرأة من نساء أهل الجنة الى الأرض لملأت ما بينهما ريحـا ، ولطاب ما بينهمـا ، ولنصيفها على رأسهـا خير من الدنيـا وما فيها »[٥] •

---

(١) نفس المرجع السابق •

(٢) مسلم — كتاب الجنة وصفها نعيمها واهلها ، باب يدخل الجنة اقوام افئدتهم مثل افئدة الطير ج ٢ ص ٥٣٥ •

(٣) مســلم كتاب الايمان باب : اثبات رؤية المؤمنــين فى الآخرة ربهم سبحانه وتعالى ج ١ ص ١١٢ •

(٤) مسند الامام احمد ج ٢ ص ٢٤٥ •

(٥) مســند الامام احمد ج ٣ ص ١٤١ — البخارى كتاب الجهاد باب « الحور العين » ج ٤ ص ٣١،٣٠ •

وعن أبى بكر بن عبد الله بن قيس عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « وان فى الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة عرضها ستون ميلا ، فى كل زاوية منها أهل يرون الآخرين ، يطوف عليهم المؤمنون »[١].

وعن أنس بن مالك : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن الكوثر فقال : « أعطانيه ربى عز وجل فى الجنة . أشد بياضا من اللبن ، وأحلى من العسل ، فيه طيور أعناقها يعنى كأعناق الجزر ، فقال عمر : انها لناعمة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أكلها أنعم منها »[٢] .

أما بعد : فهذه آيات بينات واضحات الدلالة على ما وعد الله تعالى ، المستغفرين التائبين العائدين له سبحانه وتعالى ، العالمين بأن لهم ربا يغفر الذنب ويستر العيب ويتجاوز عن المسيئين . وهذه أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم توضح المبهم وتفصل المجمل وتقيد المطلق وتخصص العام ، ومن آيات القرآن وأحاديث السنة رأينا بما لا يدع مجالا للشك أن الله أعد لعباده الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر من ألوان النعيم الالهى والتفضيل الربانى ، حيث الأماكن الطيبة ، ثم المآكل الشهية ، ثم المشارب الهنية ، ثم الملابس الرفيعة ، ثم المناكح اللذيذة ، ثم ما بعده مما يختلف فيه الطباع .

أما عن المآكل الشهية ، فان الانسان انما يتقبل ما يألفه ، وتعاف نفسه كل شىء لا يألفه ، فاذا شاهد ما يألفه ورأى فيه مزية ظاهرة كان استعجابه به أكثر ، واستحسانه أعظم . قال الحافظ ابن كثير : عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة فى قوله تعالى : (وأتوا به متشابها) يعنى فى اللون والمرأى وليس يشتبه فى الطعم .

---

(١) البخارى — تفسير سورة الرحمن ج ٦ ص ١٨٢ .

(٢) تحفة الأحوذى ، أبواب صفة الجنة — باب « ما جاء فى صفة طير الجنة » الحديث ٢٦٦٥ ج ٧ ص ٢٤٩، ٢٥٠ .

وقال ابن أبى حاتم •• عن يحيى بن كثير قال عشب الجنة الزعفران، وكثبانها المسك ويطوف عليهم الولدان بالفواكه ، فيأكلونها ، ثم يؤتون بمثلها ، فيقول لهم أهل الجنة : هذا الذى آتيتمونا آنفا به ، فيقول لهم الولدان : كلوا فان اللون واحد ، والطعم مختلف ، وهو قول الله تعالى : (وأتوا به متشابها)[1] •

وأما المناكح اللذيذة فهاهى الأزواج المطهرة ، مطهرة من مساوىء الأخلاق وما يختص من النساء بالحيض والاستحاضة ، وما لا يختص من البول والغائط وسائر الأقذار والأدناس • كلما أتاهن أزواجهن وجدنهن أبكارا وأترابا ، ومتحببات الى أزواجهن ، مستويات فى السن معهم •

قال الحافظ بن كثير : « عن ابن عباس رضى الله عنه : يعنى فى سن واحدة ، ثلاث وثلاثين سنة •

وقال مجاهد : الأتراب المستويات ، وقال السدى : « أترابا » أى : فى الأخلاق المتواضعات بينهن ، ليس بينهن تباغض ولا تحاسد ، يعنى لا كما كن ضرائر متعاديات »[2] •

وينعم الرجال بالحور العين اللاتى يقصرن أبصارهن على أزواجهن ، لا يمدن طرفا الى غـيرهم ، ولقد ورد وضعهن فى كثير من الآيات كما فى قول الله تعالى : (لم يطمثهن انس قبلـهم ولا جان) وقوله : (كأنهن الياقوت والمرجان) أى فى الصفاء والبياض وهن كأمثال اللؤلؤ المكنون فى الصفاء والنقاء ، وهن مقصورات فى الخيام أى مخدرات فيها ، وقد قيل ان الخيام من الدر المجوف طول الخيمة فى السماء ثلاثون ميلا فى كل زاوية منها للمؤمن أهل لا يراهم الآخرون •

---

(١) جـ ١ ص ٩١ •
(٢) جـ ٨ ص ١٢ •

لقد أوضحت آيات وأحاديث كثيرة ما ينعم به أصحاب الجنة كما فى قول الله تعالى : (ان أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون،هم وأزواجهم فى ظلال على الآرائك متكئون لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون ، سلام قولا من رب رحيم)[1] .

فلقد روى أن أصحاب الجنة فى شغل لا يوصف ، ألا وهو افتضاض الابكار على شط الأنهار تحت الأشجار ، وضرب الأوتار[2] ، وضيافة الجبار .

قال الحافظ ابن كثير : « قال عبد الله بن مسعود وابن عباس وسعيد ابن المسيب وعكرمة فى قوله (ان أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون ، قالوا : شغلهم افتضاض الأبكار)[3] . كل ذلك وغيره وأهل الجنة على الأرائك متكئين على سرر متقابلين فى ظــلال ينعمون . فكل ما يدعون به يأتيهم ويسلم الله تعالى عليهم بواسطة الملائكة أو بغير واسطة تكريما لهم قائلين (ســـلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار)[4] فتنزل عليهم الرحمات ويحمدون ربهم حمدا طيبــا ويثنون عليه سبحانه ثناءا عاطرا ، قائلين (الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن ان ربنا لغفور شكور)[5] .

ويقولون : (الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين)[6].

---

(١) سورة يس الآيات ٥٥ — ٥٨ .
(٢) ابن كثير ج ٦ ص ٥٦٩ .
(٣) ج ٦ ص ٥٦٩ .
(٤) سورة الرعد الآية ٢٤ .
(٥) سورة فاطر الآية ٣٤ .
(٦) آخر سورة الزمر .

الأثر الدنيوى والأخروى معاً :

لم تقف ثمار العفو الالهى عند حدود الزمان والمكان فى الدنيا ولا فى الزمان غير المتناهى فى الآخرة ، وانما جمعتهما فى ثمرة شملتهما معا ، وهذه الثمرة هى الفلاح والنجاح فى الدنيـا والآخرة ، وكيف لا ، وقد غفر الله لهم ما سبق من الذنوب وعفا عما فعلوا من السيئات ، ثم منحهم من المال الكثير ، والخير الوفير ، فدفعوا ذلك فى سـبيله راضين فتمتعوا فى حياتهم متاعا حسنا ، ثم من عليهم بالعافية التى ساعدوا بها الضعيف وذا الحاجة ، وهذا كله مع الخوف والرعب لا يساوى شيئا ، من هنا كان للأمن من نزول عذاب الاستئصال أهميـة عظيمة ، أضفت على الحياة الدنيا بهجة ، وساقت الى القلوب غبطة وسرورا ، وها هم بعد الوفاة قد فازوا بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وهم بهذه الثمار الدنيوية والأخروية كانوا من أهل الفلاح والفوز ، وفيهم يقول الله تعالى :

(فأما من تاب وآمن وعمل صالحا ، فعسى أن يكون من المفلحين)[١] .

يرى الحافظ ابن كثير أن الفلاح يوم القيامة ، أى فى الآخرة حيث قال : (فعسى أن يكون من المفلحين) أى : يوم القيامة ، وعسى من الله موجبة فان هذا واقع بفضل الله ومنه لا محالة)[٢] .

ويرى النسفى أن الفلاح دنيوى حيث قال :

أى : فعسى أن يفلح عنـد الله ، وعسى من الكرام تحقيق ، وفيه بشارة للمسلمين على الاسلام ، وترغيب للكافرين على الايمان ، ونزل

---

(١) سورة القصص الآية : ٦٧ .
(٢) جـ ٦ ص ٢٦١ .

جوابا لقول الوليد بن المغيرة (لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم.)[١]، يعني نفسه أو أبا مسعود[٢].

والذي نراه أن الفلاح في الآية عام، يشمل الدنيا والآخرة، وذلك لأن الآية مطلقة والاطلاق امارة العموم وهو رأى الألوسى حيث قال: (فعسى أن يكون من المفلحين) أى الفائزين بالمطلوب عنده عز وجل الناجين من المرهوب، (وعسى) للتحقيق على عادة الكرام أو للترجى من قبل التائب المذكور بمعنى فليتوقع أن يفلح[٣].

وهو أيضا رأى القاسمى حيث قال: (فعسى أن يكون من المفلحين) أى أن يفلح عند الله (وعسى) من الكرام تحقيق، ويجوز أن يراد ترجى التائب وطمعه كأنه قال: فليطمع أن يفلح. قاله الزمخشرى[٤].

والفلاح الفوز والظفر بادراك البغية وأصله الشق والقطع ويشاركه في معنى الشق والقطع مشاركة في الفاء والعين نحو: فلى، وفلق.

وبعد .. فان أقرب الناس الى رحمة الله تعالى ورضوانه وعفوه وغفرانه، انما هم الذين فعلوا ما لم يفعله غيرهم وترددوا الى خالقهم ترددا مكثفا متواصلا بلا تردد ولا كسل ولا فتور ولا خور، فقد سلكوا لمرضاته سبلا متعددة المشارب متنوعة المنازع، لا تدخل تحت حصر الحاصرين ولا يحيط بها عد العادين[٥].

---

(١) سورة الزخرف الآية: ٣٠.
(٢) جـ ٣ ص ٢٤٣.
(٣) جـ ٧ ص ١٠٣.
(٤) جـ ١٢ ص ٤٧١٩.
(٥) راجع بتوسع كتاب العفو فى القرآن والسنة تاليف الدكتور حسنى امين مصرى.

ندعوا الله تعالى أن يجعلنا منهم ويحشرنا فى زمرتهم وأن يجنبنا فى دنيانا الزلل فى القول والعمل والحمد لله على التمام ، وصلى الله وسلم وبارك وشرف وكرم على سـيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فى البـدء والختام ٠

ثبت الــكتاب

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
سورة البقرة (دراسة عامة) وتشتمل :	١٧
وجه تسميتها	١٧
فضل سورة البقرة	٢٠
زمن نزول سورة البقرة	٢٢
عدد آيات السورة الكريمة	٢٣
في أغراض السورة الكريمة	٢٤
المناسبة بين سورة البقرة وما قبلها وما بعدها	٣١
الحروف المقطعة فى أوائل السور	٣٤
حكم الوقف عليها	٤٠
محل الحروف المقطعة من الاعراب	٤١

القـــرآن

الموضوع	الصفحة
معانى المفردات	٤٣
التفسير التحليلى	٤٤
فقـــه الآية	٥٣
القرآن مصدر هداية	٥٣
توجيهات الآية الكريمة بالنسبة للغزو الفكرى والثقـــافات الوافـــدة	٥٥
وصف القرآن	٥٩
طوائف الناس أمام هداية القرآن	٧٠
الطائفة الأولى : المؤمنون	٧٠
معانى المفردات	٧٠
التفسير التحليلى	٧١
الآراء فى تعريف الايمان	٧٧

الموضوع	الصفحة

رقم الايداع بدار الكتب ١٧٨٩١ لسنة ١٩٩٢

I. S. B. N. 977 - 00 - 3930 - 6